

تأليف العلامة: سيد سليمان الندوي
ترجمة وتقديم: أحمد محمد عبد الرحمن



العلاقات العربية الهندية

العلاقات العربية الهندية

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٢١٦
- العلاقات العربية الهندية
- سيد سليمان الندوى
- أحمد محمد عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب:

عرب وهند کے تعلقات

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦، فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤ .

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 – 27354526. Fax: 27354554

العلاقات العربية الهندية

تأليف: العلامة سيد سليمان الندوى
ترجمة وتقديم: أحمد محمد عبد الرحمن



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

الندوى، سيد سليمان
العلاقات العربية الهندية: تأليف: سيد سليمان الندوى؛ ترجمة
وتحقيق: أحمد محمد عبد الرحمن - القاهرة: المركز القومي
للترجمة، ٢٠٠٨.

٣٠٤ ص؛ ٢٤ سم

١- العالم العربى - العلاقات الخارجية - الهند.

أ- عبد الرحمن، أحمد محمد (مترجم ومحقق)

٥٦٠٥٤ و ٣٢٧

ب- العنوان

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٣٥٦٤

الترقيم الدولى: 6 - 796 - 437 - 977

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتوى

9	- مقدمة المترجم
13	- توطئة المترجم
25	- الباب الأول: الرحالة العرب وبداية العلاقات مع الهند.....
59	- الباب الثانى: العلاقات التجارية
99	- الباب الثالث: العلاقات العلمية
157	- الباب الرابع: العلاقات الدينية
199	- الباب الخامس: المسلمون فى الهند قبل الفتح

إهداء

إلى بناتي

ثمار قلبي

وزوجتي

شريكة عمري

المترجم

المقدمة

إن أول ما يخطر بالذهن عند ذكر كلمة (الهند)، هو ذلك الجو الشرقى الساحر، المغلف بالغيبيات والروحانيات، الذى ألف الناس أن يقرأوا عنه، فيما وصل إلى أيديهم من كتب عن الهند، سواء كانت أدبية أو تاريخية، أو فيما يروونه من الأفلام السينمائية الغربية، التى تعتنى، أهم ما تعتنى، بإظهار سذاجة أهل الهند وتخلفهم، وانشغالهم بالروحانيات، والغيبيات الساذجة، عن الحياة العصرية ومطالبها، شأنهم فى ذلك شأن أهل الشرق جميعًا، حتى صار لدينا - نحن العرب - المثل القائل، والذى يقال لأى شخص يحاول أن يستغفل أحدًا ما: "هو إنت فاكرنى هندی".

والحقيقة التى لا جدال فيها هى أن الحضارة الهندية اليوم، ومن ثم الثقافة الهندية، تقوم على هذه الروحانيات والغيبيات، بل تنادى بها معظم فلسفاتها وتقاليدها ودياناتها. والإنسان السعيد حقًا لديهم، هو ذلك الذى يستطيع أن يتخلص من شوائب الجسد، ليتصل بعالم الروح. ومع وجود هذه الحقيقة الأولى، فإن هناك حقيقة ثانية مناقضة يلمسها كل من سمع عن الهند أو زارها فى العصر الحديث، وهى أن الهند أخذت تصفى حساباتها مع التراث القديم، لتطرح عنها جانبًا الأفكار الغيبية الساذجة، التى وقفت حجر عثرة فى سبيل تقدمها، وتتقى منه، ومن واقع الحياة الهندية الحديثة ومطالبها، ما يكفل لها دفع عجلة التقدم إلى الأمام.

وللأسف، فمعرفتنا - نحن العرب - بالهند لا تتعدى، على حد قول البيروني، العجيب والغريب من حكاياتهم. ولذلك أطلقنا عليها بلد "العجائب والغرائب"، رغم أن الخليج العربى أدى دورًا مهمًا فى النشاط التجارى، وأن العرب أدوا دور الوسيطاء فى نقل التجارة، من وإلى شبه القارة الهندية.

والنشاط التجارى للعرب ليس وليد اللحظة، إنما يمتد تاريخه إلى ما قبل الإسلام بقرون عديدة، لكن ليس بالإمكان تناول كل هذا التاريخ التجارى الطويل هنا. لهذا، كان من الضروري أن نصدر الكتاب بتوطئة، نوضح فيها تاريخ العلاقات العربية الهندية، منذ القرن السادس الميلادى — أى قبيل ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية — إلى القرن العشرين.

وعند دراسة موقع مصر الجغرافى، يتوقف الدارسون كثيرًا أمام مفارقة لافتة للنظر، فرغم أنها دولة أفريقية جغرافيًا، فهى دولة آسيوية تاريخيًا. فالجغرافيا لم تجعل طرق الاتصال بأفريقيا، طوال العصور التاريخية الأولى، ميسرة أو سهلة، بنفس القدر الذى يسرت به طرق الاتصال بآسيا.

وشبه القارة الهندية هى إحدى هذه الواجهات الرئيسية لشبه الجزيرة العربية. ومن هنا، تقف العلاقات العربية الهندية على أرضية صلبة، تستند إلى تاريخ طويل من الاحترام المتبادل، والمنفعة المشتركة، رغم أن طبيعة العلاقات قد تغيرت نسبيًا، بعد انقسام شبه القارة، عام ١٩٤٧م، إلى دولتى: باكستان والهند؛ حيث دخلت هذه العلاقة مرحلة جديدة، وإن كانت لم تقطع جذورها بالماضى.

ومن هنا، جاءت أهمية ترجمة كتاب (العلاقات العربية الهندية)، للسيد سليمان الندوي، لنرى كيف قدمت المصادر العربية، وغير العربية، قديمًا صورة واضحة للمبادئ، والقيم المتميزة، التى طالما شكلت روافد أساسية للعلاقات العربية الهندية. والكتاب يضع أمامنا عدة تساؤلات، لعل أهمها: إلى أى مدى استطعنا أن نستثمر هذا الماضى المشرق فى تحقيق تعاون بناء بيننا وبين الهند، فى الوقت الحاضر؟ هل تعثرنا فى معرفة قدراتنا الضخمة، فى مواجهة تحديات اليوم؟ أم أن نظرتنا القاصرة تجاه الآخر حالت دون تحقيق كل هذا؟

وتجدر الإشارة إلى أنى حاولت، قدر استطاعتي، الرجوع إلى المصادر العربية، التى استقى منها الكاتب معلوماته، وقد عانيت فى ذلك كثيرًا؛ لأن المؤلف،

فى الغالب؁ لا يذكر الجزء أو رقم الصفحة من المصدر الذى رجع إليه. وكل ما هو مكتوب بحروف مائلة؁ هو من إضافات المترجم.

وفى النهاية؁ لا يسعنى إلا أن أشكر كل من أسهم فى إخراج هذا الكتاب؁ بهذا الشكل؁ وأخص بالذكر؁ فى هذا الشأن؁ الأستاذ الدكتور مناع عبد المحسن؁ أستاذ اللغة العبرية؛ لما قدمه من مراجعة؁ وإبداء للرأى حول الكثير من موضوعات الكتاب؁ فله منى كل الشكر والتقدير. ولا يفوتنى أيضاً أن أقدم الشكر إلى الأستاذ الدكتور سيد نوىشى؁ أستاذ اللغة العبرية وأتمنى أن تكون هذه الترجمة حلقة من حلقات التعريف بالعلاقات العربية الهندية.

ولا شك أن نشر هذا الكتاب؁ عن طريق المركز القومى للترجمة؁ يتيح للقارئ العربى التعرف على مدى عمق العلاقات العربية الهندية. ومن هنا؁ وجب علينا شكر القائمين على هذا الصرح؁ مع دعواتنا لهم بالتوفيق والسداد.

توطئة

العلاقات العربية الهندية منذ دخول العرب حتى القرن العشرين

لقد كان الاتصال الفعلى بين الهند والبلاد العربية، فى عصر البوذيين، اتصالاً وثيقاً مع بلاد الشام، وخاصة العراق. وهناك دلائل تاريخية تشير إلى وجود أثر للبوذية فى العراق، وقد سُمى هؤلاء البوذيون بالفرقة "السمنية"، وهذا ما أكدّه أبو الريحان البيرونى بقوله: "ومما زاد فى النفار والمباينة أن الفرقة المعروفة بالسمنية... هم أقرب إلى الهند، من غيرهم. وقد كانت خراسان، وفارس، والعراق، والموصل، إلى حدود الشام فى القديم، باقية على دينهم..."^(١).

وفى هذه الفترة، ارتفع نجم البطالمة^(٢)، الذين استولوا على جميع مسارات التجارة البحرية؛ فكانت سفنهم تردّ من مصر واليمن إلى الهند. وقد حاول البطالمة فى العصور الأخيرة، تركيز تجارة الشرق فى مصر، وذلك ببسط سلطانهم على الطريق البحرى؛ لأن التجارة الواسعة التى كانت تحملها السفن عبر البحار، بين مصر من ناحية، وبلاد العرب والهند من ناحية أخرى، كانت تتطلب، ولا شك، الهيمنة على شاطئ البحر الأحمر، أو على الأقل، المواقع المهمة المطلة عليه.

ومن هنا، نالت بلاد العرب، فى جنوب الجزيرة العربية، شهرة كبيرة فى المجالات السياسية والاقتصادية، واتصلت اليمن اتصالاً وثيقاً بالهند، وظلت على ذلك حتى فجر التاريخ. وعندما ظهر الإسلام، فيما بعد، أصبحت مكة والمدينة هما مركز هذه التجارة.

(١) أبو الريحان البيرونى، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مردولة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١٠.

(٢) بطليموس؛ هو مؤسس هذه الدولة التى استمرت من عام ٣٢٣ ق.م، حتى عام ٣٠ ق.م.. ثم جاء عهد الرومان من بعدهم.

وهكذا ظلت التجارة الهندية - العربية تواصل نشاطها، رغم الاضطرابات السياسية التي لحقت بهذه المنطقة، والتي نتج عنها تشتت شمل أبنائها؛ مما دفعهم إلى الهجرة، والانتقال إلى البلاد الأخرى، وكان لهذه الظاهرة أثر إيجابي، وهو انتشار الثقافة العربية في هذه البلاد التي هاجروا إليها، وبدهى أن تكون الهند على رأس هذه البلاد. ورغم ذلك، بقيت البلاد العربية تؤدي دور الوسيط، بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط^(١).

وظلت العلاقات العربية الهندية بين مد وجزر، حتى جاء الإسلام، وكانت هناك طائفة من قبائل "الزط"^(٢) الهندية، تعيش في الجزيرة العربية. وكانت قد نزحت إلى بلاد العرب، بعد زوال الدولة الكسروية، وذلك حين اتصل الفرس بالهنود، في عهد "أنوشروان". هذا إلى جانب الاتصال الوثيق، بين جنوب الهند والجزيرة العربية، وذلك بفضل توافد العرب على موانئ الجنوب الهندي، فكان "مالابار"^(٣)، في ساحل شرق الهند، شرف السبق للتعرف على الإسلام، واعتناقه، قبل غزو العرب لشبه القارة الهندية؛ حيث كان العرب ينزلون بهذه الموانئ، وهم في طريقهم إلى جزيرة "سرانديب" (سيريلانكا الحالية)؛ لمشاهدة أثر قدم سيدنا آدم، عليه السلام.

ومن هنا، دخلت الكلمات والمصطلحات الهندية في اللغة العربية، مثل: "موز"، وهو في السنسكريتية "موجا"، "وكافور"، وأصله "كاربورا"، والصندل (چندن)، وغير ذلك من أسماء الأحجار الكريمة، والسيوف، وأنواع الطيب التي كانت، وما زالت، لها شهرة واسعة في المجتمعات العربية.

(١) د. محمد إسماعيل الندوي، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ط ١ - بيروت - بدون تاريخ - ص ١٦ - ١٧.

(٢) الزط: هي تحريف لكلمة "الجات" الهندية، وهم قوم يشتهرون بالحرب والبطولة.

(٣) مالابار: هي في ولاية (كيرالا) بجنوب الهند.

وعلى الرغم من العناية التي وجهت إلى الهند، فإن فتحها لم يتم إلا في عصر الوليد بن عبد الملك، وبأمر حاكمه على العراق، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي أسند بدوره هذه المهمة إلى محمد بن القاسم، عام ٨٩هـ / ٧١٢م، وكان جيش محمد بن القاسم، كما يقول الدكتور الساداتي، في كتابه "تاريخ المسلمين في شبه القارة"، يضم اثني عشر ألفاً من جند الشام والعراق، انضمت إليهم جموع كثيرة من قبيلتي الميذ والنزط السنديتين، أفاد منهم المسلمون كثيراً.

وكانت مدينة الملتان (حالياً في باكستان) هي أول عاصمة للعرب في الهند، وهكذا، توالى الفتوحات الإسلامية في شمال الهند. أما جنوبها، فقد رغب كثير من حكامه في الإسلام، وحاولوا توطيد أواصر الصداقة مع الدولة الأموية (٦٦٠-٧٩٤م)، حتى إن الملوك الهنادكة منحوا الجاليات العربية، التي استوطنت بلادهم، حرية لنشر تعاليم الإسلام، لدرجة أنهم احترموا أولئك الذين أسلموا من أبناء جلدتهم^(١)، وحدث امتزاج فعلى بين الفاتحين، وسكان البلاد الأصليين، عن طريق الزواج والتناسل.

ولم يكد يصل العصر العباسي، حتى تدفقت أمواج الممالك الهنود على قصور الملوك، وبيوت الأمراء، في بغداد، هذا إلى جانب الهنود الأحرار الذين استوطنوا البلاد العربية، وتزوجوا من العربيات، وظهر من بينهم العلماء والساسة، ومن منا يُنكر دور البرامكة - وهم من أصل هندي^(٢) - وهي أكبر أسرة أسدت خدمات عظيمة إلى بلاط هارون الرشيد؟ ومن هنا، بدأ الرحالة العرب في استكشاف هذا العالم، فذهب المسعودي، في عام (٣٠٣هـ / ٩١٥م)، ووصفها وصفاً دقيقاً.

(١) جورج فضل حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، في العصور القديمة، وأوائل العصور الوسطى، ترجمة: د/ سيد يعقوب بكر، مصر، ١٩٥٨م، ص ٤٥.

(٢) سيد سليمان الندوي، عرب وهند كـ تعلقات، لكهنو، ١٩٨٠م، ص ٤٣.

وقد جاء أول دعاة الفاطميين إلى الهند من اليمن، ولما تولى الحكم فى مصر العزيز بالله الفاطمى، الذى دامت حكومته أكثر من واحد وعشرين عامًا، من سنة ٣٦٥هـ / ٩٦٦م - ٣٨٦هـ / ٩٩٦م، أصبحت للفاطميين إمبراطورية واسعة، فاقت أحيانًا الخلافة العباسية قوة، ونفوذًا، واتساعًا للملك، حتى إنه طمع فى ضم (السند) العباسية، تحت راية الدولة الفاطمية.

وبالفعل، تمكن جلم بن شيبان من الوصول إلى سدة الحكم، بدعم من قبل العزيز بالله الفاطمى، عام ٣٧٥هـ / ٩٨٥م، وهو ما أكدته البشارى المقدسى، عندما زارها فى هذه الفترة: "وأما الملتان، فيخطبون للفاطمى، ولا يحلون ولا يعقدون إلا بأمره، ورسلمهم وهداياهم تذهب دائمًا إلى مصر، وهو سلطان قوى" (١).

وعندما قامت الدولة الغزنوية، على يد سبكتگين، فى أواخر القرن الرابع الهجرى، تم القضاء على الدولة الفاطمية فى الملتان، عام ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م، وبقيت دولة عربية أخرى، وهى "سندان"، التى كانت تقع على الساحل الشرقى الهندى، وقد قامت على يد فضل بن ماهان، وكانت معروفة للجغرافيين العرب، أمثال: الإصطخرى، الذى كتب عنها "وأما مدن الهند فهى: سوبارة، وسندان، وصيمور، والملتان... فهذه من المدن التى رفأناها" (٢).

هذا الحكم العربى لشبه القارة لم يترك أثره السياسى والاجتماعى فحسب؛ بل ترك آثارًا خالدة باقية فى أفكار أهل شبه القارة وثقافتهم؛ فأصبحت السند، فى هذه الأيام، قطعة من البلاد العربية، على اختلاف أنواعها وفروعها، على غرار ما فى الحجاز، ودمشق، وبغداد، والقاهرة، وهذا ما أكدته (جواهر لال نهرو) فى كتاباته عن فترة الحكم العربى للهند، بقوله: ظلت الخلافة مائة عام تقريبًا فى قبيلة تعرف بالأمويين، اتخذوا دمشق عاصمة لهم... وأدخلوا، لأول مرة بالهند، الفن

(١) شمس الدين أبو عبد الله المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٦٧م، ص ٤٨٠.

(٢) أبو إسحاق الإصطخرى الفارسى: المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحينى، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٧٣.

المعماري العربي، الذي اشتهر واختلط بالفن الهندي بمرور الزمن، وأصبح له طابع خاص، يتميز به عن الفنون الإسلامية الأخرى^(١).

وأدى هذا التجاوب إلى أن تركت الثقافة الهندية أثرًا كبيرًا في الثقافة العربية، وكان أول خيوط هذا التجاوب، حين استدعى أبو جعفر المنصور (١٥٤هـ - ٧٧١م) إلى بلاطه عددًا من علماء الهند، للاستفادة من تجاربهم، وخبراتهم العلمية، في علوم الفلك والطب والصيدلة.

ولا شك أن انهيار الحكم العربي في الهند، كان مرتبطًا بالأحوال السياسية البائسة؛ مما أدى إلى ظهور الأتراك على المسرح السياسي، في العالم العربي والإسلامي أجمع؛ فذهبت هيبة الخلافة العباسية، وسلب من أيدي الخلفاء سلطانهم ونفوذهم، وانقسمت الدولة إلى دويلات يحكمها أمراء وسلاطين، دون قوة تمكنهم من الوقوف في أوجه أعدائهم، فانفرد الغزنويون بالحكم في شبه القارة. ومن ثم، لم تشهد الهند، في عصر الدولة الغزنوية، أية نهضة للثقافة العربية؛ إذ كانت الثقافة الفارسية هي السائدة، رغم وجود البيروني، الذي كان يُعد أبرز مظاهر الثقافة العربية الهندية آنذاك.

وهكذا، ظل الاتصال بين البلاد العربية، وشبه القارة الهندية، اتصالاً محدودًا، يقتصر على الولاء الروحي للخلافة الإسلامية في بغداد فقط، رغم استقلالهم التام عن الخليفة والخلافة. إلى أن جاءت دولة المماليك (٦٠٢هـ - ١٢٠٦م - ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م)، على يد قطب الدين أيبك، وفي عهدهم، كانت الخلافة العباسية تلفظ أنفاسها الأخيرة، إلا أن مصر أتيحت لها الفرصة أن تكون على اتصال وثيق بدولة المماليك، في شبه القارة، وذلك بعد أن استوفد الظاهر بيبرس الخليفة المستنصر بالله من بغداد، في عام ٦٥٩هـ - ١٢٦٠م، وبإيعه بالخلافة، وهو أول خليفة في الديار المصرية، وقد توفي عام ٦٨١هـ - ١٢٨٢م.

(١) جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٣٠.

ثم استمرت الخلافة العباسية في مصر، إلى أن استولى العثمانيون على البلاد العربية، عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م^(١)، وقد جلبت هذه الخلافة الإسلامية خيرًا وبركة لمصر؛ فجعلتها مركزًا للثقافة الإسلامية، وكان أهم مظاهرها اتصال سلاطين الهند بمصر.

كانت الأسرة التغلقية، التي أسسها القائد التركي غياث الدين تغلق (٧٢١هـ / ١٣٢١م)، تحكم الهند، وهي الدولة التي وفد إليها الرحالة العربي ابن بطوطة، وكان محمد تغلق قد طلب من الخليفة بمصر إرسال وثيقة اعتراف به، وهو ما أكدته ابن بطوطة في رحلته: "وكان السلطان قد بعث بهدية إلى الخليفة، بديار مصر، أبي العباس، وطلب إليه أن يبعث له أمر التقدم على بلاد الهند والسند، اعتقادًا منه في الخلافة؛ فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه، مع شيخ من الشيوخ، بديار مصر"^(٢).

ومن هنا، وطد السلاطين الهنود علاقاتهم بمصر، وهذه العلاقة ظلت تنمو وتزدهر بمرور الزمن؛ وذلك لأن مصر أصبحت، في ظل الدولة المملوكية، قوة عظيمة في البحر المتوسط، وصاحبة السيطرة على أهم الطرق التجارية بين الشرق والغرب، وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية، في أواخر القرون الوسطى. وازدهر، على يد السلطان ناصر قلاوون، طريق البحر الأحمر وموانئ مصر^(٣).

وبهذا استطاعت مصر أن تتبوأ مكانةً دوليةً، في مجال التجارة العالمية، وبدهى أن يكون للهند نصيب موفور، ودور كبير في هذه التجارة العالمية. ومما يذكر، في ميدان التجارة الهندية - العربية، ميناء الجترات (إحدى مقاطعات الهند

(١) النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٠٩ - ١١٠، نقلًا عن: تاريخ الصلات، محمد إسماعيل الندوي، بيروت، ب. ت، ص ١٤٧.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٤٥٤.

(٣) د/ إبراهيم على طرخان: مصر في عصر دولة المماليك والجراكسة، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٧٢ - ٨٤.

الآن)، على الساحل الغربى؛ حيث كان يتردد عليها التجار العرب، منذ أقدم العصور؛ ولذلك أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً للعرب؛ مما جعلهم يحرصون على أن تكون لهم فيها جاليات عربية، شاهدها معظم الرحالة العرب، أمثال: سليمان التاجر، وأبى زيد السيرافى، والمسعودى.

وكان سلطان الغجرات على صلة وثيقة بالسلطان الغورى فى مصر. وقد حدث، فى هذه الفترة، أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م، فوصل فاسكو داجاما، فى ثلاث سفن، إلى الهند، بعد رحلة استغرقت أربعة أشهر.

وفى عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، هاجم البرتغاليون المراكب التى كانت تحمل الحجاج والمتاجر إلى البحر الأحمر، ثم ازداد نشاط البرتغاليين فى نقل البضائع الشرقية، من الهند إلى البرتغال مباشرة، وأغلق البرتغاليون، عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م، مداخل البحر الأحمر أمام السفن العربية، واستولوا على جزيرة سومطرة (باليمن الآن)، عام ٩١٢هـ / ١٥٠٦م، قرب مدخل البحر الأحمر، عند القرن الأفريقى. وبهذا، تحكموا فى الطويق المباشر بين شبه القارة ومصر^(١).

وقد أدى ميناء "كاليكوت"، الذى استحوذ عليه البرتغاليون، فى جنوب الهند، دوراً كبيراً فى الملاحة الهندية. وقد شاهد ابن بطوطة هذا الميناء الشهير، وسجل مشاهداته. والجدير بالذكر أن هذا الجزء الهندى لم تدخله الجيوش الإسلامية، فى أى عصر من العصور، ولم تمتد إليه الفتوحات الإسلامية، بل انتشر الإسلام فيه على يد التجار العرب، والمتصوفة، وهؤلاء هم الذين شيّدوا المساجد والمدارس، التى شاهدها ابن بطوطة^(٢).

(١) المصدر السابق، ص ٢٩١ - ٢٩٤.

(٢) ابن بطوطة - الرحلة - ص ٥٥٩.

ومن هنا، كان لا بد لمصر أن تطلب من ملوك الهند طرد البرتغاليين؛ وذلك لإنقاذ مكانتها التجارية العالمية. ومن حسن الحظ، أن سلاطين الججرات، وهم من المسلمين، كانوا يكرهون البرتغاليين، ويحبون مصر، بوصفها دولة إسلامية رائدة. وتذكر لنا المصادر أن السلطان الغورى أعد حملة حربية، من جدة إلى الهند، وغادر الأسطول القاهرة، في ٩١١هـ/١٥٠٥م، بقيادة الأمير حسين الكردي، نائب جدة، وظل الأسطول يتقدم حتى هزم البرتغاليين على الشاطئ الغربى للهند، عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م، غير أن البرتغاليين استطاعوا، فى السنة التالية، أن ينتقموا بتحطيم الأسطول المصرى، وبذلك تمكنوا من تعطيل التجارة تمامًا، بين شبه القارة ومصر^(١).

وفى عام ٩٣٢هـ/١٥٢٦م، قامت الدولة المغولية، على يد ظهير الدين بابر؛ أحد أحفاد تيمور لذك، الذى اكتسح البلاد الإسلامية. وفى هذه الفترة، انقطعت الصلات التجارية بين الهند والبلاد العربية؛ وذلك لظهور العثمانيين الأتراك على المسرح السياسى، واستيلائهم على العالم العربى، وسقوط الدولة المملوكية فى مصر. ولم يفكر العثمانيون فى الهند مطلقاً. ومن ثم، ظلت شبه القارة بعيدة كل البعد عن الدولة العثمانية. وفيما يتعلق بالعلاقات التجارية، لم يهتم المغول، فى بداية أمرهم، بتحسين الموانئ الهندية، وتقوية الأساطيل التجارية، (ويعزى هذا إلى أن الججرات والمناطق الساحلية، ظلت دولاً مستقلة، حتى عام ٩٨٠هـ/١٥٧٤م، حيث ضمها السلطان أكبر فى نهاية الأمر).

ولم يكن (بابر) وأحفاده يهتمون بالموانئ الهندية؛ مما شجع البرتغاليين، ثم الفرنسيين والإنجليز، على إنشاء مراكزهم فى سواحل شبه القارة، وتقوية مراكزهم التجارية، لكن (أورنجزيب)، آخر الحكام المغول الفعليين، وجه عناية خاصة إلى هذه الناحية؛ فبنى الأساطيل، وطرد الإنجليز من موانئ "بمباي" و"سورت" (كلاهما

(١) إبراهيم على طرخان: صر فى عصر دولة المماليك والجراكسة - ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

بالهند الآن)، لكن وفاته حالت دون القضاء التام عليهم، فاستفحل أمرهم، فيما بعد، واستولوا على المناطق الساحلية، ثم توغلوا رويدًا رويدًا في شبه القارة، حتى استعمروها، عام ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م.

وفيما يتعلق بهذه الفترة، فإن المنطقة العربية والهندية كليهما، كانت تواجه الاستعباد السياسى، على يد الغرب، والتخلف الاجتماعى، الذى كانت مجتمعاتهم تنن فيه، نتيجة بسط النفوذ السياسى الأوروبى؛ حيث صار هو الوسيلة المضمونة للاستغلال الاقتصادى، والاحتكار التجارى، وظلت بريطانيا صاحبة السيادة المطلقة على المنطقتين.

وما من شك فى أن المصلحين، من أمثال: جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وعرابى، وغاندى، ونهرو، وأبو الكلام آزاد، ومحمد على جناح، وغيرهم؛ قد جمعوا بين الزعامة السياسية والإصلاحية، فعملوا على الانتقال من عقلية العصور الوسطى، إلى عصر النهضة، والتقدم الفكرى.

فلم تعد السياسة، فى كلتا المنطقتين، مقصورة على الزعماء السياسيين، كما كانت عليه فى الماضى، بل انخرطت الجماهير فى الحياة السياسية؛ لإدراكها مدى أهمية الحرية فى حياتها. وفى هذه الفترة، حدثت اتصالات محدودة بين العالم العربى والهندي، سواء كانت على المستوى الفردى أو الجماعى؛ وذلك بسبب القيود التى كانت تفرضها السلطات الاستعمارية على تحركاتهم؛ فالمهاثما غاندى كان يكن الكثير من الاحترام لسعد زغلول، ويتعاطف مع العرب، حول قضية فلسطين.

وظلت العلاقات تنمو وتزدهر، إلى أن دخلت مرحلة جديدة، بعد تقسيم شبه القارة إلى: باكستان والهند، عام ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م؛ حيث استقلت معظم الدول العربية، وبدأ دور جديد من العلاقات الهندية العربية؛ فطبيعة القضايا السياسية والاقتصادية، التى كان يواجهها الشعبان بعد الاستقلال، تختلف عما كانت عليه فى

السابق. فقد كان عليهما أن يواجها قضايا جديدة، مثل: الحفاظ على الحرية السياسية، والسلام العالمى، والأسلحة النووية، وما إلى ذلك. لكن ظلت الروابط الثقافية والفكرية هي حجر الزاوية فى العلاقات العربية الهندية، وذلك عن طريق اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، التى يدرسها الهنود، فى أكثر من أربعين جامعة ومؤسسة علمية؛ فهناك العديد من الإسهامات الهندية فى العلوم العربية، والثقافة الإسلامية.

ومن الأهمية بمكان أنه فى النصف الثانى من القرن العشرين، استطاعت الهند، مع عدد من الدول العربية، أن توجد موقفًا سياسيًا مشتركًا فى حقل السياسة العالمية، وكونوا مع بعض الدول جبهة عدم الانحياز، حول كثير من القضايا الدولية المهمة فى المحافل الدولية، وموقف الهند من العدوان الإسرائيلى على الأردن، وسوريا، ومصر، عام ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ليس سوى مظهر لاستمرار السياسة ذاتها، التى تبنتها الهند تجاه القضايا العربية^(١).

ولا ننسى موقف مصر، فى ١٣٨٢هـ / يناير ١٩٦٢م ، عندما هاجمت القوات الهندية المستعمرة البرتغالية، فى مدينة "جوا"، على الساحل الهندى الغربى — هذه الجزيرة ظلت تُحكم من قبل البرتغاليين، زهاء ٤٥٠ عامًا — وسارعت السفن البرتغالية، قادمة من البرتغال، تحمل القوات والإمدادات، عن طريق قناة السويس؛ لتشد أزر حاميتها هناك، فما كان من مصر إلا أن رفضت السماح للسفن البرتغالية الحربية بالمرور بقناة السويس، فى طريقها إلى "جوا"^(٢)، وتم استيلاء الهند على المقاطعة البرتغالية.

ومن هنا، اتسمت العلاقات الهندية العربية دائمًا بطابع التعاون الوثيق، وهو ما نلاحظه فى طبيعة العلاقات مع مصر، باعتبارها أكبر الدول العربية أهمية، ثم

(١) د / مقبول أحمد: العلاقات العربية الهندية، تعريب: نقولا زيادة، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٢٢٦ — ٢٢٧.

(٢) أحمد عبد المنصف محمود: فى بلاد البقرة المقدسة، دار الكتاب العربى، القاهرة، ب. ت، ص ١٢٧.

مع دول الخليج. فالعلاقات مع مصر تميزت بالربط بين حركات الاستقلال الوطنى فى الهند ومصر، ممثلة فى العلاقة الحميمة بين جمال عبد الناصر، وجواهر لآل نهرو؛ حيث قادت الدولتان حركة عدم الانحياز، فى عصر الحرب الباردة، وجمعت بينهما أوجه التشابه، فى السياسة الداخلية والخارجية.

أما العلاقات مع دول الخليج، فقد اتسمت دائماً بالطابع التعاونى؛ حيث تعد هذه الدول شريكاً تجارياً مهماً للهند، وأكبر سوق لها فى الشرق الأوسط، فضلاً عن التعاون العسكرى بين الهند وهذه البلاد، ناهيك عن العمالة من أبناء الهند فى دول الخليج، واعتمادها على هذه المنطقة فى سد احتياجاتها من النفط والغاز؛ الأمر الذى يجعل أحد أهداف السياسة الخارجية للهند هو المحافظة على علاقة طيبة بالبلاد العربية.

والخلاصة، إن الهند اليوم مدركة تماماً لمصالحها فى العالم العربى، كما أن العالم العربى مدرك لعلاقاته بالهند، خاصة بعد المكانة الدولية التى حصلت عليها الهند، فى نهاية القرن العشرين؛ نتيجة للتقدم الاقتصادى والعلمى والتكنولوجى. ورغم ما يكنه الهنود من احترام للعرب، فإن ثمة عددًا غير قليل من الهنود، لا يعرف عن العرب إلا البترول وأبا الهول والأهرامات، كما لا يعرف العرب عن الهند إلا الغرائب وأسماء بعض نجوم السينما وكشمير.

الباب الأول

الرحالة العرب وبداية العلاقة مع الهند

جزيرة العرب والهند بلاد أمم عظيمة، وأماكن عبادة دينية، وأرض مقدسة طاهرة عند أهلها، ومن المهم في هذا الصدد معرفة أهل البلاد الأصليين في الهند، وثمة اختلاف كبير في هذا الشأن، وربما سمعنا بدعوى الآريين، في هذه القضية، ولكن أسمعنا بدعوى العرب القديمة؟

لقد مضى على قدوم الآريين هذا البلد آلاف السنين؛ حيث حل الآريون البنجاب، من وسط آسيا، وظلوا يتقدمون، حتى انتشروا على ضفتي نهر الجمنا والجنجا^(١). لكن دعوى العرب أن علاقتهم بالهند علاقة قديمة، منذ بدء الخليقة، وأن هذا البلد موطن آبائهم.

وحيثما تذكر قصة آدم، عليه السلام، في الأحاديث والتفاسير، نجد روايات متعددة توضح أن سيدنا آدم، عليه السلام، طُرد من الجنة، ونزل إلى جنة الأرض، وهي الهند، فوضع قدمه الأولى في سرانديب^(٢)، وما زالت آثار أقدامه موجودة في أحد جبالها، حتى الآن.

وقد ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم^(٣)، أن اسم الأرض التي هبط إليها آدم في الهند، هو "دجنا". فهل يمكن أن يقال: إن "دجنا" هي الكلمة الهندية "دكهنا" أو "دكهين"، والتي تطلق على جنوب الهند؟

(١) مما من الأنهار المقدسة لدى طائفة الهندوك.

(٢) سرانديب هي تولة سيرلانكا حاليًا.

(٣) هذا التفسير منشور في كتاب السيوطي - ج الأول - ص ٥٥ ، كما أنه موجود بروايات أخرى بعد ذلك بمصر، كما ينبغي الاطلاع على الباب الأول من كتاب "سيحة المرجان في تاريخ هندوستان". (ورد في كتاب السيوطي، "الوسائل إلى مسامرة الأوائل"، ج ٤: أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: إن أول ما أمبط الله آدم، أمبطه إلى أرض الهند، وفي لفظ (بدجلى بأرض الهند).

وبما أن العرب كانوا يجلبون البخور والبهار، من جنوب الهند؛ ثم أخذت تنتشر في جميع بقاع العالم، لهذا يمكن القول: إن هذه الأشياء إلا ذكرى تلك الرياحين، التي أتى بها آدم من الجنة، ومن بين هذه الهدايا، فضلاً عن التمر، ثمر الليمون والموز.

وثمة رواية أخرى تقول: إن الجوافة فاكهة من فواكه الجنة الموجودة في الهند. ويقال: إن أربعة أنهار نبعث من الجنة، هي: النيل، والفرات، وجيحون، وسيحون، فالنيل نهر في مصر، تقوم عليه الزراعة. وكذلك نهر الفرات، بالنسبة للعراق؛ فهو سبب نضرتة وخضرته. وجيحون نهر في التركستان، وأهميته مثل أهمية النيل لمصر، والفرات للعراق.

أما سيحون، فهو اسم لنهر في الهند، فهل يعتبر الجنجا هو نهر الجنة الرابع؟ وإن كان البعض قد أقر بأنه نهر السند.

لقد أفرد (مير آزاد بلجرامي) صفحات عدة، في كتابه "سبحة المرجان في آثار هندوستان"، فصل فيها القول عن فضائل الهند، فقال: إن آدم أول من هبط أرض الهند، وفيها نزل عليه الوحي، فالهند الأرض التي نزل فيها أول وحي من الله.

وبما أن نور محمد، صلى الله عليه وسلم، كان أمانة في جبين آدم، عليه السلام، فيثبت من هذا أن بداية ظهور محمد، عليه الصلاة والسلام، كان على هذه الأرض، ولهذا قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيما معناه: "تأتي إلى ريح طيبة من الهند".

على أية حال، فإن جميع هذه الروايات، طبقاً لمقاييس تخريج الأحاديث، تعتبر أحاديثاً ضعيفة، إلا أننا نستخلص من هذه الروايات، وهذا هو الاعتقاد

السائد، أن علاقة المسلمين بشبه القارة الهندية تبدأ بغزوات محمود الغزنوي^(١)، حيث جاء المسلمون، واستقروا في الهند. بيد أن هذا اعتقاد خاطئ؛ إذ الحقيقة أن المسلمين لم يعدوا الهند بلادًا مفتوحة، بل اعتبروها وطن آبائهم، ومن اعتقد غير ذلك، فعليه أن يعرف أن المسلمين قد قدموا إلى الهند قبل محمود الغزنوي، بمئات السنين، وقامت لهم مجتمعات عمرانية، في أماكن متفرقة.

وبعد الإسلام، حصلت أسرة السادات (آل البيت) على مكانة مرموقة بين العرب والمسلمين، ويعود نسب الجزء الأكبر من هذه الأسرة إلى الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين، رضى الله عنه، ولم تكن والدته الإمام زين العابدين عربية، ويدعى الفرس أنها فارسية، ومن أسرة ملكية؛ إلا أن بعض المؤرخين أقر أنها من السند^(٢).

ولو سلمنا بصحة هذا الرأي الأخير، فليس ثمة ما يدعو إلى إنكاره، وقبول مشاركة الهند في ميلاد أشرف أسرة للمسلمين والعرب وأطهرها، وسواء كان ثمة مسلمون آخرون لهم علاقة بالهند، أم لم يكن، تبقى أسرة زين العابدين على، على الدوام، ذات عرق هندي.

وقد فتح محمود الغزنوي (لاهور)، عام ٤١٨ هـ، بعدما بدأ قدوم الأفغان والأتراك المسلمين، من ممر خيبر إلى شمال الهند، في القرن الرابع الهجري، وظل الجنوب الهندي، من مليبار وكارومندل حتى الكجرات، خارج سيطرة المسلمين، لمئات السنين.

(١) محمود الغزنوي (٩٧٠ - ١٠٣٠م): هو ثالث سلاطين الدولة الغزنوية، وأشهرهم على الإطلاق، اشتهر بتشجيعه العلوم والفنون والآداب.

(٢) انظر (المعارف) لابن قتيبة، وابن خلكان، تذكرة على بن الحسين زيد العابدين - رضى الله عنه - "يلاحظ أن رقم الصفحة، ومكان الطبع، وسنة الطبع، غير موجودة في الأصل".

وعندما فتح السلطان علاء الدين الخلجي^(١) الكجرات، عام ٦٩٧م، ضمها إلى مقاطعة دهلي. أما في اتجاه مدراس^(٢)، فكل ما حدث أن جيوش علاء الدين عبرت حتى سواحل مليبار وكارومندل^(٣)، ولم يحالفه الحظ في هذا، فظل حصن بيجانكر^(٤) حائلاً أمام تقدم المغول والأفغان، لعدة قرون. كما أن الدولة البهمنية^(٥) باتت في عراك مع بيجانكر، طيلة عمرها، ولكنها لم تتقدم أكثر من منطقة كرشنا. ولم يقض عليها، بصعوبة بالغة، إلا تلك الثورات الخمس، التي خرجت من تحت رماد الدولة البهمنية، عام ١٥٦٥م.

ورغم هذا، ظلت إمارات هندوكية صغيرة قائمة، حتى عهد أورنجزيب عالمجير^(٦). وهكذا وضع المسلمون أقدامهم في مناطق أركات، وميسور، ومدراس، لفترة وجيزة جداً، وإن لم يستطع أحد منهم أن يثبت أقدامه لمدة طويلة. ونود أن نلفت النظر إلى أنه لم تكن الغاية من هذا إلا توضيح، متى وقع أثر الموجات القادمة من ممر خير، مباشراً كان أم غير مباشر؟ وفي أي مناطق شمال الهند كان هذا الأثر؟ فمقالنا إن هو إلا توضيح لهذه العلاقة.

(١) علاء الدين الخلجي: هو أشهر الحكام الخلجيين، جلس على عرش الهند، عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م،

انبرى في فترة حكمه لصد هجمات المغول عن الهند، عام ١٣٠٤هـ، وتوفي عام ٧١٥هـ / ١٣١٦م.

(٢) مدراس: هي ولاية بالهند حالياً، وتسمى بولاية تمل نادو أو ثنائى، في جنوب الهند.

(٣) ماليبار وكارومندل: منطقة بجنوب الهند، وكانت من أوائل المناطق التي دخلها المسلمون.

(٤) حصن بيجانكر: كانت عاصمة إحدى الدويلات الصغيرة، التي انقسمت عن الدولة البهمنية، في جنوب

الهند، في القرن الرابع عشر الميلادي، وكانت عاصمة دولة بيجانكر.

(٥) الدولة البهمنية: هي الدولة التي أسسها علاء الدين بهمن، في الجنوب الهندي، عام ٧٤٢هـ / ١٣٤٧م،

وكانت تدين بالمشهد الشيعي، وقد انقسمت إلى دويلات صغيرة، ولم يفكر سلاطين الدولة المركزية،

في الشمال، في إعادة هذه الدويلات إلى حظيرة دولتهم، إلا في فترة متقدمة، أي في أواخر القرن

السابع عشر الميلادي.

(٦) أورنجزيب: هو آخر السلاطين المغول الأقوياء، جلس على العرش، عام ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م، واتخذ

لنفسه لقب (عالمجير)، هذا وقد أجرى أورنجزيب العديد من الإصلاحات في البلاد، بعد توليه الحكم،

وتوفي ١١١٧هـ / ١٧٠٧م، وبعده بدأت الدولة المغولية في الانهيار، إلى أن سقطت في يد الإنجليز،

عام ١٨٥٧م.

البنجاب، عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م

السند، عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م

دهلي، قنوج، اوده، بنارس، عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م

بهار والبنغال، عام ٩٣ - ٥٩٥ هـ / ٩٥ - ١١٩٩ م

الدكن "ديوجير"، عام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٧ م

مهراشترا ومدراس، عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م

وبهذا يمكننا شرح العلاقات المشتركة بين الهند والعرب، وبيانها فيما يتعلق بكل إقليم من أقاليم الهند، حتى بداية الفتح، على يد القادمين من ممر خيبر.

ويمكننا أن نطلق على بلاد الهند، وشبه الجزيرة العربية، إنها بلاد متجاورة، يجاور بعضها بعضاً؛ إذ لا يحول بينهما إلا البحر. ولو مدت الطرق الطويلة والعريضة؛ على سطحه، لربطت بين الدول بعضها البعض، وكلتاهما تقع على الشاطئ المقابل، فلو أمسكت إحدى يدي هذا البحر، بأرض الحرم، لأمسكت اليد الأخرى، بأرض الآريين.

ومن الطبيعي، أن تكون البلاد الساحلية بلاداً تجارية. إذن، فالتجارة هي العلاقة الأولى التي ربطت إحداهما بالأخرى. فمئذ آلاف السنين، والتجار العرب يتوافدون إلى سواحل الهند؛ لحمل المنتجات الهندية، وتصديرها إلى أوروبا، عن طريق مصر والشام. ليس هذا فحسب، وإنما كانوا يأخذون هذه الأمتعة إلى شمال الهند، وبعض الجزر الهندية، وحتى الصين واليابان.

وكان طريق العرب البحري يبدأ من مدن مصر والشام، إلى شواطئ البحر الأحمر، ومنه إلى الحجاز واليمن. ومن هناك، عن طريق المراكب الشراعية، كان يقصد البعض مناطق أفريقيا والحبشة، والبعض الآخر يتجه صوب شواطئ حضرموت، وعمان، والبحرين، والعراق، مروراً بسواحل إيران، في خليج فارس.

وكانوا إما ينزلون في ميناء بلوجستان، أو يتقدمون صوب ميناء السند، في كراتشي، ثم بعد ذلك، يتجهون إلى ميناء كتهياوار والكجرات، ومنها إلى تهانة وبمباي وكهمبايت، حتى يصلوا إلى كاليكت ورأس كماري. وأحياناً كانوا يقيمون، فترة من الزمن، في شواطئ مدراس، وأحياناً أخرى، كانوا يواصلون سيرهم إلى سرنديب اندمان، ومنها مباشرة، يطوفون كل موانئ مدراس، حتى يدخلوا خليج البنغال. وهناك، يمرون على موانئ البنغال، برهما وسيام، ومنها إلى الصين، ومن هذه الطريق، كانوا يعودون.

وما الغرض من هذه الخريطة البحرية إلا توضيح أن مراكب العرب كانت تطوف مدن الهند، وجزرها بشكل دائم، وكانت رحلاتهم هذه مستمرة، حتى قبل التاريخ.

وكان الفينيقيون هم أول من عرف التجارة البحرية. وفينيس اسم يوناني؛ وهو ما يعرف في العبرية بالكنعاني^(١). ويطلق عليهم الآراميون أيضاً، وأطلق العرب عليهم اسم إرم^(٢)، وهو الاسم الذي جاء ذكره في القرآن الكريم:

(١) كان الإغريق يسمون الكنعانيين بالفينيقيين.. ولم يطلقوا، في بادئ الأمر، هذا الاسم إلا على أهل الشاطئ.. ثم أطلقوه على الجميع بعد ذلك. والظاهر أن هذا اللفظ مشتق من كلمة يونانية الأصل؛ لأن جميع الأمم الأخرى لا تعرف الكنعانيين بهذا الاسم، ولا باسم آخر قريب منه. وكان بنو إسرائيل يسمون القبائل الكنعانية بأسماء مناطقها؛ فيقولون: أهل صور، وأهل صيدا.. كما كانوا يطلقون عليهم اسم الكنعانيين "انظر: تاريخ اللغات السامية، تأليف: إسرائيل ولفنستون - دار القلم، بيروت لبنان - الطبعة الأولى، ١٩٨٠م - ص ٥٦ و ٥٧ .

(٢) إرم: تقول عنها المصادر: إنها اسم لقبيلة عاد بن آدم بن عوص بن سام بن نوح، وهو اسم جد عاد من ولد "إرم" بن سام، العمالة والجابرة.

وهناك من قال بأن "إرم" اسم الجنة التي بناها شداد بن عاد؛ تحدياً منه لسيدنا هود، عليه السلام، عندما سمع منه ذكر الجنة، فقال: لأبين جنة مثل جنة ربك، وقيل إن "إرم" هي دمشق؛ لأنه ليس في البلاد مثلاً، لكثرة خيراتها. لمزيد من التفصيل، انظر: أبو عبد الله القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - ج ٢ - بيروت - ١٩٩٣م - ص ٤٣ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾^(١).

فعن العرب دخل، إلى لغتنا، تعبير "بهشت ارم"؛ أى: جنات الإرم.

وحول من هم الفينيقيون؟ يقول الباحثون: إنهم كانوا عربًا، نزحوا من سواحل البحرين، واستقروا بالشام. وكان البحرين ميناءهم الشرقى، والتائر فى الشام، كان ميناءهم الغربى، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ومنه كانوا يعبرون إلى جزر اليونان، وشواطئ أوروبا وأفريقيا، وفى الشرق، كانوا يطلعون على أحوال إيران والهند، والصين، وعن هؤلاء الأقوام، بدأت الثقافة والحضارة فى اليونان، وتأسست كارتيج (قرطاجنة) سواحل شمال أفريقيا، ولكن تأثيرهم فى البلاد الشرقية، لم تنم إلى علمنا معرفة تامة عنه.

يعلم الجميع أن المخطوطات (المكتوبات) الهندية كلها، بل جميع المكتوبات الآرية، تكتب من الشمال إلى اليمين. لكن الأمر الذى يبعث على الحيرة والتعجب؛ أن بداية مكتوبات الآريين كانت تبدأ من اليمين إلى الشمال، على منوال طريقة اللغات السامية. أضف إلى هذا أن طريقة كتابة الأعداد قد تعلموها من هؤلاء التجار (العرب). وهناك مقالة، فى دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشرة، عن "بداية تاريخ تدوين اللغة السنسكريتية"، وضّح كاتبها هذا الأمر، فى هذه العبارة التالية:

"ما زالت قضية بداية الحروف الهندية تثار حولها الشكوك، حتى الآن. وأقدم نموذج للكتابة الهندية، تلك المخطوطات المحفورة على الصخور، وهى بلغة البالى (وهى البراكرتية، التى كانت تستخدم فى الكتابات الدينية للبوذيين، جنوب

= وخلاصة ما جاء فى كتب التفسير، أن شداد بن عاد، و"إرم" هما ركنان أساسيان لقصة واحدة، وهى قصة مناظرة شداد لسيدنا هود، عليه السلام، الذى أرسله الله لقوم عاد الأولى، وهم أهل "إرم"، الذين كانوا يسكنون الأحقاف، بين عمان وحضرموت، وقد عرفوا بأن الله لم يخلق مثلهم؛ فى قوتهم، وشدتهم، وضخامة أجسامهم. محمد على الصابوني - صفوة التفاسير - ج ٣، بيروت - ١٩٨١م - ص ٥٥٦

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٦ و ٧.

الهند)، تلك اللغة التي كتبت بها الأحكام الدينية، التي أمر بحفرها ملك الأسرة المورية، أشوكا، عام ٢٥٣ ق.م. وكانت مملكته تضم ضواحي بشاور، على الحدود الشمالية الغربية، شمال الهند، ومن كرنا، في الكجرات، حتى سواحل مدينة كاوه ودهولي، في إقليم كتك، على السواحل الشرقية.

أما المكتوبات التي ظهرت في أقصى الغرب، بالقرب من مناطق كبوردا جدهي، أو شبهاز جدهي، بجوار المنصورة^(١)، فقد كتبت بحروف هجائية مختلفة تمامًا عن المكتوبات الأخرى، فهي تقرأ من اليمين إلى الشمال، وهي ما يطلق عليها عمومًا "اللغة البالية الآرية"، وهي نفسها الحروف التي استعملت في عملات "نقود" حكام اليونان، وإيرينا بالهند.

أما الحروف التي كانت تقرأ من الشمال إلى اليمين، فكان يطلق عليها "البالية الهندية"، وكان يطلق على النوع الأول من الحروف، سافة الذكر، اسم الخط الكهروشي، أو "الخروش"، أو الكندهارا، والذي يبدو أنه مأخوذ من لغة سامية، أو لغة آرامية، ولم يبق له أي أثر، فيما بعد، في كتابات الهند.

أما النوع الثاني فهو الخط البالي الهندي، أو الخط البراهمي، ومنه خرجت الحروف الهندية، وهو مشكوك في أصله، مع أنه قد وصل إلى مرحلة كبرى من التطور، في عهد الملك أشوكا، وبدأ استخدامه في أغراض علمية، بشكل يبعث على الحيرة، إلا أن بعض حروفه كانت مأخوذة من الحروف الفينيقية، التي هي بدورها قد تكون مأخوذة من الحروف الهيروغليفية المصرية. وقد نتج عن هذا التشابه الاعتقاد بأنه ربما يكون في الأصل خط سامي. وقد لا يعرف الهنود أبدًا، كيف وصل إليهم هذا الخط؟ وصفوة القول: إن البروفيسور بوهرلر (Buhler) قدم نظرية في هذا الشأن، تقول: "ربما يكون التجار العراقيون هم أول من عرف الهنود بهذه الحروف، في القرن الثامن قبل الميلاد، وبما أن هذه الحروف كانت قد

(١) المنصورة: هي إحدى المدن التي أسسها المسلمون، في إقليم السند، عندما فتحها محمد بن القاسم.

اتخذت شكلها النهائي في مكتوبات أسرة الموريا واندھرا، وانتشرت بشكل كبير، فإن هذا يجعلنا نسلم، ولا ريب، أن فن الكتابة كان رائجاً، ومستعملاً لمختلف الأغراض، قبل عصر أشوكا بفترة طويلة في الهند. وإن كان لا ذكر له في أدب ذلك العهد، فقد يرجع ذلك إلى أن البراهمة كانوا راغبين عن كتابة مؤلفاتهم المقدسة".

بقى لنا سؤال عن الأعداد الهندية، وطريقة كتابتها؛ وما وجد في مكتوبات خروشي، بداية التقويم الميلادي، يوضح لنا هذه الطريقة؛ إذ كانت الأعداد الثلاثة الأولى تكتب من خلال خطوط، أما رقم ٤، فكان كالصليب المعقوف (المائل)، وكانت الأعداد من خمسة إلى تسعة تكتب هكذا: ١+٤، إلى آخره، حتى رقم ٩، الذي كان يكتب: ١+٤+٤، وكان للأعداد ١٠، ٢٠، ١٠٠ رموز خاصة.

أما الأعداد الأخرى، مثل: ٥٠، مثلاً، فكانت تكتب: ١٠+٢٠+٢٠ = ٥٠. وربما كانت هذه الطريقة محاكاة لطريقة سامية أو آرامية. وفي المخطوطات البراهمية (حتى القرن السادس الميلادي)، كانت تستعمل أعداد من نوع آخر؛ فكان العدد من واحد إلى ثلاثة يكتب بخطوط مائلة. ومن العدد ٤ إلى ٩ وكان للأحاد، والعشرات، والمئات، والألوف (١٠، ٩٠، ١٠٠، ١٠٠٠) علامات خاصة، وقد تكون هذه الطريقة مأخوذة عن المصريين.

أما الطريقة التي كانت تستخدم في الكسور العشرية، والتي وجدت، أولاً، في مخطوطات منطقة الكجرات، فلربما تكون من اختراع المنجمين والرياضيين، من أهل هذه البقعة.

ولكن مما يثير الدهشة والعجب، أن العديد من أهل الهند، في عصر المهابهارت^(١)، كان على معرفة باللغة العربية، وبما أن هذا أمر صعب تصديقه، فإن اعتراف أحد الكهنة الكبار به، لا يجعله محلاً للإنكار أو الشك، من جانبى.

إن سوامى ديا نندجى، مؤلف كتاب (سينهارتهـ برকাশ)، كتب فى الباب ١٤٧، من الجزء الأول: "فى عصر المهابهارت، وعندما أرادت أسرة الكورو أن تبنى مكاناً؛ لكى تحرق فيه أسرة الباندو؛ حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، كلم ودرجى يدهشتر باللغة العربية، فأجابه أيضاً باللغة العربية". فلو صح هذا القول، لتبين لنا مدى قدم العلاقات العربية الهندية!

وثمة صورة من صور الاتصال بين العرب والهنود، عن طريق ملك فارس، الذى كانت منطقة بلوجستان والسند خاضعة لسلطانه. وعن طريق هذه السيطرة، دخل بعض قبائل السند المحاربة فى جيش الفرس. وقد ذكر العرب اثنين من هذه القبائل، وهما: الجات (الزط)، والميد (الميد)، وهما من أشهر قبائل السند.

ففى حديث، رواه عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: "إنه رأى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أناساً لهم صورٌ، وأشكالٌ خاصة". وكل ما ذكره عنهم يماثل وجوه الجات^(٢).

ويفهم من هذا الحديث، أن العرب كانوا على دراية (بالزط)، فى القرن السادس الميلادى. وعندما انهزم الفرس، رأى الزط البواسل أن يستفيدوا من هذا، فدخلوا فى زمرة جيش المسلمين، بعدة شروط. وقد احترم القادة المسلمون الزط، وأدخلوهم فى قبائلهم، فولأهم الإمام على - كرم الله وجهه - فى موقعة الجمل،

(١) المهابهارت: الملحمة القومية للهنداكة، ينيف عدد أشعارها على المئتى ألف، فيها وصف حروب أبناء العمومة، كورف وبانديف، ألقت فى القرن السادس، أو الخامس قبل الميلاد.

(٢) الترمذى، أبواب الأمثال. لم أجد هذا الحديث فى المصدر المذكور، ولا أعرف من أين أتى به المؤلف!

بيت المال، في البصرة^(١)، ووطنهم الخليفة معاوية - رضى الله عنه - سواحل الشام، في مواجهة الروم، وعمر بهم الوليد بن عبد الملك، في عهده، مدينة إنطاكية^(٢).

لفظ هند:

قبل قدوم المسلمين، لم يكن ثمة اسم للبلاد؛ إذ كان لكل إقليم من الأقاليم اسمه الخاص به، وكانت كل إمارة تعرف بعاصمتها. وعندما سيطر أهل فارس على أحد أقاليم هذه البلاد، سمّوه "هند هو"، نسبة إلى النهر الذى يعرف باسم "نهر السند"، وقد عرفه العرب باسم "مهران"، وفي اللغة الفهلوية (الإيرانية القديمة)، كانت السين السنسكريتية تقلب هاء؛ ولهذا نطقه أهل فارس "هندو"، وهكذا أطلق على البلاد: بلاد الهند.

أما المدن التى كان العرب على معرفة بها، غير السند، فقد أطلقوا عليها اسم "الهند"، وبهذه الطريقة، انتشر الاسم فى جميع بقاع العالم، بصوره المختلفة، فقلب الإفرنج حرف الهاء ألفاً، وأطلقوا عليها: إندو، وبعدها صارت إنديا India، وهو ما اشتهرت به فى العالم.

أما القادمون من ممر خيبر، فقد أطلقوا عليها: الهندوستان، طبقاً للنطق الفارسي، أى: أرض الهنود. والأمر الأكثر عجباً، أن هذا الاسم (لفظ هند) كان محبباً عند العرب؛ فسموا بناتهم به؛ فزاع صيته فى الشعر العربى، مثل ليلى وشيرين، فى الشعر الفارسي.

(١) تاريخ الطبري.

(٢) بلاذرى - ذكر أساوه "الإمام أبو الحسن البلاذرى - البلدان، راجعه وعلق عليه: رضوان محمد رضوان - دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان - ١٩٩١م - ص ٣٦٩.

فتوحات العرب فى شمال الهند:

كانت العلاقات بين العرب والهند على هذا النحو، الذى ذكرناه، وبعد ظهور الإسلام، اتجه العرب صوب الهند، بعد فتح فارس؛ إذ اعتبر العرب أن فتح كل المناطق العمرانية الجديدة، التى كانت تحت سيطرتهم، أمرًا ضروريًا؛ إذ بعد فتح مكران وبلوچستان، وجد العرب حدود السند أمامهم، وهم فى حاجة إلى تأمين تجارتهم البحرية، فى إحدى موانئ الهند.

وفى عهد الخليفة الثانى، عمر بن الخطاب، تم إرسال أسطول بحرى عربى؛ للسيطرة على أحد الموانئ المناسبة هناك. وبالفعل، سيطر البحارة العرب على مرسى صغير، يسمى "تانه"، بالقرب من "جهان آباد"، إحدى مدن "ممباى"، ولا يزال هذا المرسى موجودًا حتى الآن.

وكان أول هجوم قاده العرب، عام ١٥ هـ / ٦٣٦م، على هذا الميناء، بأمر من حاكم "البحرين"، وبعدها واصل الجيش الهجوم على بهروج (بروص). وتزامن مع هذه الحملة، هجوم قام به أحد القادة العرب، يدعى "المغيرة"، على مدينة "الديبل" التى كانت ميناء لإقليم "السند"، والتى هى بالقرب من "كراتشى" اليوم.

وبعد هذا الهجوم ببضعة أعوام، وبالتحديد فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أرسلت كتيبة بحرية للإشراف على هذه الموانئ مرة أخرى. وفى عهد الخليفة الرابع على - رضى الله عنه (من ٣٩ هـ / ٦٦٠م)، بدأ القادة العرب الإشراف على هذه المناطق، وبعدها، أصبح هذا المنصب مستقلًا، ومعمولًا به من قبل الحكومات العربية التالية بعد ذلك.

وعندما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة، عام ٨٦ هـ / ٦٠٥م، كان الحجاج واليًا له على مناطق الشرق المفتوحة: مناطق العراق، وإيران، ومكران، وبلوچستان؛ فسعى الحجاج إلى توطيد علاقاته بالهند وجزرها. وكان التجار العرب يقدون إلى هذه المناطق دائمًا، إلا أن سفنهم كانت تتعرض لعمليات القرصنة

والسلب والنهب، في معظم سواحل الهند. وحتى عهد البيروني، ٤٢٤هـ، كانت مدينة "سومناٲ" ^(١)، وغيرها من المناطق، ملاذًا لهؤلاء اللصوص ^(٢). (البيروني، كتاب الهند، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ١٠٩، ٢٠٠٣م).

على كل حال، فإن بعض التجار العرب، الذين كانوا في سريلانكا، قد وافتهم المنية فيها؛ فما كان من أمير سريلانكا، إلا أن أرسل أبناءهم وزوجاتهم إلى العراق، في مركب بحري. وبالقرب من ميناء "ديبل" بالسند، تعرضت سفينتهم لهجمات اللصوص، وتم اختطاف النساء. فاستغاثت النساء بالحجاج، فما إن علم الحجاج، حتى كتب إلى "داهر" أمير السند، يطلب منه إطلاق سراح هؤلاء النسوة؛ فاعتذر "داهر" عن تلبية هذا الأمر، باعتبار أنه خارج حدوده، وقد تم من قبل لصوص (قراصنة) البحر. فلم يقتنع والى العراق بهذه الحجة، خاصة أن أمرًا آخر قد حدث في هذه الفترة نفسها، وهو أن بعض المتمردين من العرب قد هربوا من مدينة "مكران"، ولجأوا إلى السند، وكونوا جبهة تحت رعاية الأمير داهر؛ فأجج هذا الأمر النار، وجعل الحجاج يرسل ابن أخيه الشاب، محمد بن القاسم ^(٣)، على رأس جيش، قوامه ستة آلاف من الجند، من "شيراز" إلى السند، ويدعمه ببعض الجيوش والمعدات، عن طريق البحر، ويعضده بجيوش أخرى، عن طريق البر من إيران.

وصل محمد بن القاسم، عام ٩٣هـ، ولم تمض ثلاث سنوات، حتى دانت له وخضعت المناطق الممتدة من "الملتان"، المجاورة لكشمير الصغيرة (كان العرب يطلقون على البنجاب اسم كشمير الصغيرة)، حتى حدود "مالوه"، وأقام حكمه على العدل والإنصاف في السند.

(١) سومناٲ: هي المدينة التي بها المعبد الذي حطمه محمود الغزنوي، في الكجرات، ولهذا المعبد قداسة عظيمة عند الهنالك، لدرجة أنهم بادروا بتجديده، عند قيام جمهورية الهند.

(٢) البيروني - كتاب الهند - ١٠٢.

(٣) محمد بن القاسم (٩٨هـ / ٧١٧م): فاتح السند، وواليها في عهد الوليد بن عبد الملك، قُتل على يد الحجاج بن يوسف الثقفي.

أما الجنود الهنود، الذين قاوموا العرب في جيش "داهر"، فأطلق عليهم البلاذري (٢٥٥هـ/٨٥٥م) اسم التكاكرة، والتي هي جمع تكاكر العربية.

وعندما توفي الوليد، عام ٩٦هـ، وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك من بعده، كان بينه وبين الحجاج وأسرته وعماله عداوة شخصية؛ فعزل محمد بن القاسم، واستدعاه، مع غيره من قواد الحجاج، مقيداً إلى الشام، فعذب وقتل. ولا داعي هنا لذكر أسباب قتله، كما ذكرها أولاد "داهر"؛ فقد تم نفيها أكثر من مرة. لكن مما تجدر الإشارة إليه، أنه عندما رحل محمد بن القاسم من السند، بكى عليه أهل السند، وصوروه بالكيرج^(١).

وقد تعاقب على هذه المنطقة العديد من القواد، منهم الجنيد، وكان ذا همّة عالية، فهاجم السند، من مدينة كجه، عام ١٠٧هـ، بدءاً من مرمد، ومنها إلى ماندل، حتى وصل دهنج، ومنها إلى ميناء بهروج. وكان أحد قواده قد وصل إلى مدينة آجين (مالوه)، ومنها إلى الكجرات، فاتحاً مدينة سميد وبهيل مال، ثم عاد إلى السند، لكن كل هذه الفتوحات إن هي إلا عاصفة سرعان ما خمدت.

وفي عام ١٣٣هـ/٧٥١م، تولى العباسيون الخلافة، وزالت دولة الأمويين، وأصبحت العراق عاصمة للخلافة، بدلاً من الشام. فقرّب هذا الهند من مركز الخلافة الإسلامية. وفي عام ١٤٠هـ/٧٥٩م، عين هشام والياً على السند؛ فأرسل أحد قواده، وهو عمر بن جمل، بأسطول بحري إلى الكجرات، لكن القائد لم يوفق في حملته هذه.

وفي النهاية، قاد هشام الأسطول بنفسه، وسيطر على مدينة قندهار، بالقرب من بهروج. وهناك، شيد مسجداً رمزاً لانتصاراته. وكان هذا أول أثر إسلامي في بلاد الكجرات، والمسجد الأول في الهند، بالإضافة إلى السند.

(١) البلاذري - فتوح البلدان - باب فتح السند - ص ٤٢٦.

وبعد أن تولى المهدي الخلافة، بعد المنصور، قام عبدالملك، بأمر من الخليفة، بمهاجمة الكجرات. وفي عام ١٦٠هـ/٧٧٨م، فتح مدينة باريد، التي تعرف في الهندية باسم "بهاريهوت"، والتي هي أيضاً بالقرب من بهروج. والمثير للدهشة أن الوباء انتشر في صفوف الجيش؛ فمات به ألف جندي، فاضطر قائد الجند أن يذلف راجعاً مرة أخرى.

وظلت بغداد قوية، وفي عنفوانها، حتى عهد الخليفة المعتصم بالله العباسي، الذي توفي عام ٢٢٧هـ، حتى دبَّ فيها الضعف والوهن يوماً بعد يوم؛ فانفصلت السند والهند، واستقلتا عنها، كما استقل الأمراء العرب بإماراتهم لعدة أيام، لكن الهنود سلبوها منهم مرة أخرى. ولم تقم هناك إلا إمارتان عربيتان شهيرتان؛ إحداهما الملتان، والأخرى إمارة المنصورة بالسند. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمراء الهنود قد أحسنوا معاملة الرعايا المسلمين، وحافظوا على مقدساتهم الدينية^(١).

سر هزيمة أهل السند:

قبل الخوض في الحديث عن هذا الأمر، يجب أن نعرف ما سر أن بضعة آلاف من الجند المسلمين، الذين قدموا من أماكن بعيدة، قد تمت لهم السيطرة على هذه البلاد، في هجمة واحدة، وسرعة فائقة؟ وسبب هزيمة السنديين عندي، هو ذلك السبب الذي عن طريقه تمت سيطرة قوم على أقوام أخرى في العالم. وهذا ما يؤكد كلام العرب، بشكل قاطع، ففي أواخر القرن الأول الهجري، وأوائل الثامن الميلادي، كان المذهب البوذي يروج في السند. وقد أطلق عليهم العرب (السنية)، وسنفصل القول عن هذا اللفظ، فيما بعد. وذكر جميع الجغرافيين أن ثمة منطقة للبوذيين^(٢). وكان اسمها الصحيح، كما ورد في كتاب "جج نامه"، شش نامه -

(١) كل هذه الأحداث جاءت في كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري.

(٢) البشاري المقدسي، وابن حوقل - ذكر السند.

بودهـ بور^(١)، وثم ذكر لمعبد باسم "تو ويهار"، وهو معبد للبوذيين، وكان كاهنه يدعى "سنيه"، وقد كان مناوئاً للبراهمة. ويؤيدنا في هذا الرأي المؤرخ "اليت"، حيث يرى أن المذهب البوذي كان المذهب السائد في ذلك الوقت، فكتب يقول: "وحيث إن البوذية كانت رائجة في السند، حين احتك المسلمون بالهنود الوطنيين، فحتمًا تكون كلمة "بد"، مأخوذة من "بدهـ"، وليس من "بت" الفارسية، التي هي تحريف لكلمة "بودهـ" غالبًا" وهناك دلائل كثيرة تؤيد أن البوذية كانت منتشرة في وادي السند، وإن كان هذا لم يذكره الرحالة الصينيون بصفة خاصة، وتؤيده أقوال ابن خرداذبه. وليس ثمة ذكر، فيما ورد من إشارات وتلميحات، فيما عرف عن العرب من كتابات، يؤيد وجود عداوة بين البراهمة والبوذيين، وأنه كان يناوئ بعضها بعضًا؛ إذ إن الحكايات الدينية المشتركة بينهما (خاصة طريقة العبادة والجزاء) دقيقة جدًا، ولا تسترعى انتباه أى أجنبي. وعندما يُذكر الكهنة، كان يطلق عليهم عمومًا "سنى"، وكان فيل الإمارة أبيضًا، وهذا له مغزى مهم عندهم.

وحفلات الكتب العربية بذكر ألف من الكهنة البراهمة يسمون بهذا الاسم، وكانوا يحيون معتقداتهم، وعاداتهم الدينية، كلما أرادوا، وكان محمد بن القاسم قد سمح لهم، بإذن من الخليفة، أن يحملوا قعابهم (سلطانية)، ويطوفون على الأبواب؛ من أجل الحصول على الطعام، وهذه عادة دينية خاصة بالكهنة البوذيين إلى اليوم، وآخر هذه العادات أنهم كانوا يخلدون ذكرى الفاتحين، بإقامة تماثيل لهم.

تشير هذه الأمور جميعًا، وبشكل طبيعي، إلى البوذيين، لا البراهمة. وفضلاً عن هذه الدلائل الإيجابية، فثمة دلائل سلبية، تفيد في هذا الأمر؛ حيث لا يوجد أى ذكر لأعمال الساتى (عادة حرق الزوجة مع زوجها)، أو عبادة البقر، أو الاستحمام في الأنهار المقدسة. ولا توجد ثمة إشارة إلى سيطرة الكهنة، والمشعوذين، والسحرة، وغير ذلك من الأعمال، والعادات الأخرى^(٢).

(١) الليت - المجلد الأول - ص ١٣٨.

(٢) تاريخ الليت - المجلد الأول - ص ١٠.

ويتضح من مطالعة أول كتاب فى التاريخ الإسلامى القديم، يتعلق بالسند، وهو كتاب "جج نامه" (واسمه الآخر هو: تاريخ السند و الهند ومنهاج السالكين)، أن الخلاف كان قائما فى السند بين البراهمة والبوذيين، وأن كلتا العقيدتين كانتا تنتشران فى بعض البيوت بهذه الطريقة، كأن يكون أحد الأخوة برهميا، والآخر بوذيا.

وبناءً على هذا، وبعد الاطلاع على أحوال أمراء السند، أجدنى مضطرا إلى تقرير هذه الحقيقة، وهى أن الملك (جج) كان هندوكيا برهميا، وقد قضى على الأمراء البوذيين الصغار بإثارة الفتنة بينهم، أو جعلهم من رعاياه^(١).

وقد كان هذا الملك حاكما للسند، أواخر القرن السادس الميلادى، وتولى الملك بعده أخوه جندر، وكان هذا الملك يدين بولائه الشديد للبوذية؛ فأجبر من ترك مذهبه على العودة إلى البوذية مرة أخرى^(٢). فنهض البراهمة الهندوك للتصدي له، لكن النجاح لم يحالفهم فى حربهم معه.

وتولى العرش بعده ابن الملك جج "الأمير داهر"، ويبدو لى أنه كان هندوكيا برهميا. وطبقا للمعايير التاريخية، يتبين أن المسلمين عندما كانوا على حدود السند، كانت المعارك دائرة بين أصحاب العقيدتين، فوجد البوذيون أنفسهم مسلوبي الإرادة فى مواجهة البراهمة، فتقدموا بالصلح مع المسلمين.

لذلك رأينا أنه عندما وصل جيش محمد بن القاسم إلى مدينة (نيرون)، تقدم أهل المدينة هذه، مع كهانهم البوذيين، كما أرسلوا سفراءهم إلى الحجاج بالعراق؛ لطلب الأمان.

وهكذا، استقبل أهالى (نيرون) محمد بن القاسم خير استقبال، وقدموا له المعونات والإمدادات، وأدخلوه مدينتهم، والتزموا بكل شروط الصلح معه. ليس

(١) جج نامه - البيت - المجلد الأول - ص ١٤٢ ، ١٥٢.

(٢) أيضا - ص ١٥٢ ، ١٥٣.

هذا فحسب، وإنما عبر جيش المسلمين نهر السند، ووصل إلى مدينة سدوسان، حيث ترك الكهنة البوذيين مليكهم "بج-رائ"، وقبلوا دفع الفدية عنه، وناصروا المسلمين، وصاروا رسلاً للسلام^(١).

وذهب رؤساء قبائل الجات إلى واحد من الساسة المعدودين في السند؛ للتشاور معه: أنقائل جيش المسلمين؟ فأجابهم بقوله: "لو أمكنكم هذا فسيكون خيرًا، لكن ينبغي أن تعلموا أن كهنتنا ونساكنا قد تتبأوا يومًا بأن المسلمين سيفتحون هذا الوطن". لكن الناس لم يؤمنوا بكلامه؛ فخسروا، ثم قال: إنكم تعلمون جيدًا إرادتي وعزمي، لكن هذه النبوءة قد سطرت مسبقًا في صحف البوذية، أن المسلمين سيفتحون الهند، وأنا بدوري أومن بها إيمانًا حقيقيًا، وإن الأمر واقع لا محالة. وبعدها، ذهب الحكيم إلى محمد بن القاسم، وأخبره بعزم طائفة الجات. وحكى له قصة نبوءة كتبهم؛ فأكرمه محمد بن القاسم، وأحسن وفادته، هو وأصحابه، وبهذه الطريقة، جاء كل القادة المعارضين من البوذيين إلى الملك داهر، وقدموا الولاء والطاعة لمحمد بن القاسم^(٢).

يتضح من هذا، أن البوذيين في السند قد وازنوا، أو قارنوا، بين المسلمين من ناحية، وبين البراهمة الهندوك من ناحية أخرى، فرجحت كفة المسلمين على البراهمة، كما أن هناك سببًا آخر، وهو حُسن معاملة المسلمين للبوذيين في مناطق أفغانستان، وتركستان قبل ذلك، وكانت الكثرة الغالبة منهم قد اعتنقت الإسلام؛ مما كان له أكبر الأثر في البوذيين من الهنود.

الرحالة والجغرافيون العرب:

يعد كتاب "المسالك والممالك" لابن خرداذبه، عام ٢٥٠هـ، أول كتاب بالعربية يذكر أحوال الهند الجغرافية آنئذٍ.

(١) البلاذري - ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

(٢) جج نامه - البيت - ص ١٠٦ .

١ - ابن خرداذبه (٢٥٠هـ)

كان ابن خرداذبه صاحب الخبر^(١)، أيام الخليفة المعتمد العباسي، في القرن التاسع الميلادي، لأجل هذا ألف الكتاب، في جغرافية البلدان والأقاليم، ومسالك الذهاب والإياب إليها. وقد فصل فيه القول عن طرق التجارة البرية والبحرية الهندية. وفيه ذكر للطبقات المختلفة هناك، على الرغم من أنه لم يذهب إلى الهند، لكنه استند، في معلوماته، على جغرافية بطليموس. ويضاف إلى هذا المعلومات الخاصة التي يجمعها الإخباريون، كما أن طبيعة عمله جعلته على علاقة دائمة بالتجار، والمسافرين إلى هذه البلاد؛ لهذا تبدو معلوماته، وكأنه أحد الرحالة الهنود، وقد نشر "دي غويه" De Goeje الكتاب، عام ١٨٨٩م، في مطبعة بريل بليدن.

والمدن التي ذكرها ابن خرداذبه، في باب السند، تدلنا على أن العرب كانوا يعتبرون المناطق ما بين الكجرات والبلوجستان، هي حدود السند. وقد حصر لنا مدن السند، كالتالي:

"القيقان - وبه - والميد - والقندهار... قصدار - والبوقان - قندابيل - وقنزبور - وارماويل - والديبل - قنبلي - وكنبايا (كهмбаيت) - وسهبان - سدوسان - والراسك - والرور - ساوندرى - والمولتان - والمندل - والبيلمان - وسرشت - والكيرج - مرمد - قالي (كالي) - دهنج - بروص (بهروج)". ص ٥٥. ثم بعد ذلك، اتبعها بذكر مدن الشمال الهندى المشهورة: "سامل - هورين (اجين) - وقالون - قندهار (كندهارا) - قشمير (كشمير)" ص ٦٨. (ابن خرداذبه - المسالك والممالك - بغداد).

ويذكر ابن خرداذبه طبقات الهند السبعة: "والهند سبعة أجناس، وهم: أشرافهم، فيهم الملك، تسجد الأجناس كلها لهم، ولا يسجدون لأحد. والبراهمة وهم

(١) اشتهر ابن خرداذبه مؤرخاً، وكان يطلق على المؤرخ إخبارياً، ففهم المؤلف أنه من رجال المخابرات في عصره.

لا يشربون الخمر والانبذة. والكسترية، يشربون ثلاثة أقداح فقط لا تزوجهم البراهمة، ويتزوجون فيهم. والشودرية وهم أصحاب زراعة. والبيشه وهم أصحاب صناعات ومهن. والسندالية (جندال)، وهم أصحاب اللهو واللحون، وفي نسائهم جمال، والذنبية (دوم)، وهم أصحاب لهو ومعارف ولعب.

وملأ أهل الهند اثنان وأربعون ملة، منهم من يثبت الخالق - عز وجل - والرسل، ومنهم من ينفي الرسل، ومنهم النافى لكل ذلك، والهند تدرك بالرقى ما أرادوا (ص ٧١).

٢ - سليمان التاجر (٢٣٧ هـ)

هو أول رحالة عربى وصلتنا رحلته، التى طبعت فى باريس، عام ١٨١١م، باسم "سلسلة التواريخ". فقد كان تاجراً، سافر من ميناء العراق، يجوب البلاد، حتى وافى الصين. وقد طوف كل موانئ الهند. فكتب رحلته، وأحواله المختصرة، عام ٢٣٧ هـ. وقد مر عليها أكثر من ألف ومائة عام. وتعد المرجع الأول، الذى ذكر بحر الهند "هركند"؛ ومن ثم، حفظه العرب بهذا الاسم. وهركند هذا يطلق على الجزء الذى يجرى من حدود جنوب الهند. فيقول سليمان:

"يقال إنها ألف وتسع مائة جزيرة... وهذه الجزائر تملكها امرأة، ويقع فى هذه الجزائر عنبر عظيم القدر... وهذه الجزائر، التى تملكها المرأة، عامرة بنخل النارجيل (جوز الهند)، وبعد ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان، وثلاثة، وأربعة... ويقال إن أهل الجزائر لا يكون أصنع منهم، حتى إنهم يعملون القميص، مفروغاً منه نسجاً بالكمين والدخريصين (القميص) والجيب، ويبنون السفن والبيوت". (دائرة المعارف الهندية - أخبار الصين والهند - تأليف: سليمان التاجر - أبو زيد السيرافى - تحقيق وتحليل: إبراهيم الخورى - ط ١ بيروت - ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م - ص ٣١).

ويضيف: "وفى آخر هذه الجزر سرنديب... وهى رأس هذه الجزائر كلها، وهم يدعونها الديينجات... وعليه هبط آدم - عليه السلام... ومن وراء هؤلاء جزيرتان، بينهما بحر، يقال لهما اندمان. وأهلها يأكلون الناس أحياء، وهم سود، مففلو الشعور، مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل، قدم أحدهم مثل الذراع، عراة، ليست لهم قوارب، ولو كانت لهم، لأكلوا كل من مر بهم". (٣١-٣٣)

ويكتب عن بعض شواطئ جنوب الهند، فيقول: "إنهم يرتدون المآزر فقط". كما نقل أمرًا فى غاية الغرابة، يمكننا من خلاله التعرف على وجهة نظر أهل هذا العصر، فيما يتعلق بالعالم: "أهل الهند والصين مجتمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة. فأول من يعدون من الأربعة، ملك العرب. وهو عندهم بالإجماع، لا اختلاف بينهم فى أنه أعظم الملوك، وأكثرهم مالا، وأبهاهم جمالا، وأنه ملك الدين الكبير، الذى ليس فوقه شيء، ثم يعد ملك الصين نفسه، بعد ملك العرب، ثم ملك الروم، ثم بلهرا (ولى عهد الملك رائ، ملك الكجرات) ملك المخرمى الأذان" (ص ٤١).

وقد ذكر لنا سليمان التاجر أسماء أربعة ملوك لسواحل الهند؛ أولهم، الملك بلهرا، ملك الملوك. وقد نظم جيشه طبقا للنظام العربى. وسك النقود، مكتوبًا عليها بداية جلوسه على العرش. فقال: "فأما بلهرا هذا، فإنه أشرف الهند... وماله دراهم... وتاريخه فى سنة من مملكة من كان قبله... وملوكهم يعمرّون، وربما ملك أحدهم خمسين سنة. ويزعم أهل مملكة بلهرا، أنه إنما تطول مدة ملكهم، وأعمارهم فى الملك، لمحبتهم للعرب، وليس فى الملوك أشد حبا للعرب منه. وملك بلهرا وأرضه، أولها ساحل البحر، وهى بلاد تدعى الكمكم، متصلة على الأرض إلى الصين. وحوله ملوك كثير يقاتلونه، غير أنه يظهر عليهم" (ص ٤١-٤٢).

أما أصل كلمة "بلهرا"، فقد كان ثمة خلاف حولها، لكن ثبت بالبحث أن أصلها "ولبها رائ". وكمكم هى التصحيف لكلمة (كوكن). وظلت أسرة هذا الملك تحكم مدة طويلة.

ثم يذكر لنا بعد ذلك، ملك منطقة "جزر"، وأصل جزر هو "كجر"، وملكها هو ملك الكجرات، فيقول عنه: " فمنهم ملك يدعى ملك الجزر، وهو كثير الجيش، ليس لأحد من الهند مثل خيله، وهو عدو العرب، غير أنه مقر أن ملك العرب أعظم الملوك، وليس أحد من الهند أعدى للإسلام منه، وهو على لسان من الأرض... وأموالهم كثيرة، وإبلهم ومواشيهم كثيرة... وليس في بلاد الهند آمن من السرقة منها". (ص ٤٢)

وبعده يأتي ذكر ملك مملكة "طافن" الصغيرة، واصفاً نساءها بالחסان؛ فهن آية في الجمال، فيقول: "وإلى جانبه ملك الطاقى (الطافن)، وهو قليل المملكة، ونساؤهم بيض، أجمل نساء الهند. وهو ملك موادع لمن حوله؛ لقلّة جيشه" (ص ٤٢).

وقد اختلف المحققون الأوروبيون، حول أصل كلمة "طافن". فقد قال بعض المحققين: إنها مدينة "اورنج آباد"، القرية من الدكن. وقال البعض الآخر: إنها بالقرب من "كشمير"، لكنى أعتقد أن " طافن " هي الشكل الممسوخ لكلمة "دكهن".

ثم يذكر ملك مملكة "رهمي"، ويقول: "ويلي هؤلاء ملك، يقال له دهرم (رهمي)... ودهرم هذا أكثر جيشاً من ملك بلهرا... ويقال إنه إذا خرج إلى القتال، يخرج في نحو من خمسين ألف فيل... وفي بلاده، الثياب التي ليس لأحد مثلها". (ص ٤٢ - ٤٣). ويعتقد أنها كانت مملكة الملك رام، بالقرب من دهاكه.

وقد وضع هذا الملك العديد من قوانين الهند، مثل: "فإنه إذا ادعى رجل آخر دعوى يجب فيها القتل، قيل للمدعي: أتحامله النار؟ فيقول: نعم. فتحمي حديدة إحماءً شديداً، حتى تظهر النار فيها. ثم يقال له: ابسط يدك. فتوضع على يده سبع ورقات، من ورق شجر لهم، ثم توضع على يده الحديدة، فوق الورق، ثم يمشى بها، مقبلاً مدبراً، حتى يلقيها عن يده. فيؤتى بكيس من جلود، فتخل يده فيه، ثم يختم بختم السلطان؛ فإذا كان بعد ثلاث (المقصود ثلاث ليالي)، أتى بأرز غير

مقشر، فيقال له: افركه، فإن لم يكن فى يده أثر، فقد فلىح، ولا قتل عليه، ويغرم الذى ادعى عليه مناً من ذهب، يقبضه السلطان لنفسه.

وربما غلوا الماء فى قدر حديد أو نحاس، حتى لا يقدر أحد أن يدنو منه، ثم يطرح فيه خاتم حديد، ويقال: ادخل يدك، فتناول الخاتم. وقد رأيت من أدخل يده، وأخرجها صحيحة". (٥٠ - ٥١)

ويقول أيضاً: "وإذا مات الملك، ببلاد سرنديب... ثم يهيا له الصندل، والكافور، والزعفران، فيحرق به، ثم يرمى رماده فى الريح. والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار... وربما أحرق الملك، فتدخل نساؤه النار، فيحرقن معه، وإن شئن لم يفعلن". (ص ٥١)

كما بين أن السلطان بالوراثه، وله أولياء عهد؛ حيث كانت الوظائف والمهن بالوراثه، على هذا النحو: "وأهل بيت المملكة، فى كل مملكة، أهل بيت واحد، لا يخرج عنهم الملك، ولهم ولاية عهد، وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات، لا تكون الصناعة إلا فيهم... وليس تتقاد ملوك الهند لملك واحد، بل كل واحد ملك ببلاده، وبلهرا ملك الملوك بالهند" (ص ٥١ - ٥٢).

وعن عادات الزواج، يقول: "وأهل الهند... إذا أرادوا التزويج، تهانوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان". (ص ٥٤)

وعن عقوبة الزنا والسرقة، يقول: "وإذا أحضر الرجل امرأة، فبغت، فعليها، وعلى الباغى بها، القتل فى جميع بلاد الهند". (ص ٥٢) أما عقوبة السرقة: "فإذا سرق السارق فلساً، فما فوقه، تؤخذ خشبة طويلة، فيحدد طرفها، ثم يقعد عليها، على إسته، حتى تخرج من خلفه". (ص ٥٣)

والشيء الذى تتعجب له اليوم، أن الناس فى الهند كانوا يطلقون لحاهم. وقد ذكر رحالتنا: "والهند يطولون لحاهم، فربما رأيت لحية أحدهم، ثلاثة أذرع... وأهل

الهند، إذا مات لأحدهم ميت، حلق رأسه ولحيته". (٥٣) ويضيف: "والهند، إذا حبسوا رجلاً أو لازموه، منعوه الطعام والشراب، سبعة أيام". (ص ٥٣)

والقتل عقاب قاطع الطريق: "ويقتل قاطع الطريق... والهند يقتلون ما يريدون أكله، ولا يذبحونه. فيضربون هامته، حتى يموت. ولا يغتسل الهند من جنابة... والهند يغتسلون كل يوم، قبل الغذاء، ثم يأكلون... وأهل الهند يستاكون، ولا يأكل أحدهم حتى يستاك، ويغتسل". (ص ٥٤)

ومما يثير العجب عند العربى، أن هذا البلد فيها تمر، وهو أمر تعجب منه الرحالة العرب. "وللهند نخل... ولهم سائر الشجر، وثمر ليس عندنا، وسائر الفواكه عندهم كثيرة". (ص ٥٤)

وتعدد الزوجات عندهم (أهل الصين والهند) مباح. "وليس الصين، ولا الهند بأصحاب فرش. ويتزوج الرجل من... الهند ما شاء من النساء. وطعام الهند الأرز". (ص ٥٣)

وقد أخذ الصينيون عقيدتهم من الهند. "وليس لأهل الصين علم، وإنما أصل ديانتهم من الهند. وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البدده، وأنهم هم أهل الدين". (ص ٥٤)

ويضيف: "والطب بالهند والفلسفة... ولهم علم بالنجوم... والهند خيل قليلة" (ص ٥٤)

وعن المقارنة بين الصين والهند، يقول: "وأنهار البلدين جميعاً عظام... وأهل الصين أجمل من الهند... وأهل الهند يلبسون فوطتين (المآزر)، ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر، الرجال والنساء". (ص ٥٥)

٣ - أبو زيد السيرافي (٢٦٤هـ)

نشأ أبو زيد في (سيراف) الميناء الشهير، على الخليج الفارسي. ووجد هذا التاريخ (٢٦٤هـ) على كتابه. وقد التقى به الرحالة المسعودي، عام ٣٠٠هـ، في سيراف، وكان من التجار العرب. وقد قرأ رحلة سليمان التاجر، وفيما بين خمسة وعشرين وثلاثين عامًا، كتب تكملة لها. وكان يسافر ما بين سيراف، والهند، والصين، من أجل التجارة البحرية، وقد كتب يقول: "وقد تغير أمر الصين خاصة، وحدثت فيه حوادث انقطع لها الجهاز إليهم، وخرب البلد، وزالت رسومه، وتفرق أمره". (ص ٦٠)

ويضيف: "ومما حدث في زماننا هذا، ولم يعرفه من تقدمنا، أنه لم يكن أحد يقدر أن البحر، الذي عليه بحر الصين والهند، يتصل ببحر الشام (البحر الأبيض المتوسط)". (ص ٦٠)

وكان أول رحلة عربي يذكر اسم (مهراج) ملك (جاوه)، ثم يذكر: "ومن أخبارهم في القديم أن ملكًا من ملوك (القمار)، وهي الأرض التي يجلب منها العمود القماري... وهم رحلة. كلهم يحرمون الزنا، والأنبذة كلها، فلا يكون في بلادهم ومملكتهم شيء منه، وهي مسامتة لمملكة المهراج، والجزيرة المعروفة بالزاج". (ص ٧٢)

"وساير ملوك الهند والصين يقولون بالتناسخ، ويدينون به". (٧٤) والتضحية بالنفس، تعد من الأمور العادية: "في مملكة بلهرا، وغيره من ملوك الهند، من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ. وتمكنه في قلوبهم، وزوال الشك فيه عنهم.

وفي ملوكهم، من إذا قعد الملك، طبخ له أرز، ثم وضع بين يديه، على ورق الموز. وينتدب من أصحابه الثلاثمائة والأربعمائة، باختيارهم لأنفسهم، لا بإكراه من الملك، فيعطهم الملك من ذلك الأرز، بعد أن يأكل منه. ويتقرب رجل رجل

منهم، فيأخذ منه شيئاً يسيراً، فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الأرز، إذا مات الملك أو قتل. أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم، في اليوم الذي مات فيه، لا يتأخرون عنه، حتى لا يبقى منهم عين أو أثر". (ص ٨٢)

وقد ذكر رحالتنا العديد من هذه الأحداث، فيقول: "وأمر اليسارة التي تكون ببلاد الهند، وتفسيرها المطر، فإنه يدوم عليهم ثلاثة أشهر تباعاً، ليلاً ونهاراً". (ص ٨٦).

ثم يذكر بعد ذلك فقراء (نساك) البوذية: "وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجين، عراة، قد عظت شعورهم أبدانهم وفروجهم. وأظفارهم مستطيلة كالحراب؛ إذ كانت لا تُقص إلا ما ينكسر منها. وهم على سبيل سياحة. وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الإنس. فإذا اشتد به الجوع، وقف بباب بعض الهند، فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ، مستبشرين به". (ص ٨٦-٨٧)

ثم يذكر أحوال جوارى جنوب الهند، ثم أحوال صنم (الملتان) الشهير، وبعدها يصف البلد التي تشتهر بجوز الهند، ويذكر أحوال التجارة بها.

وفي النهاية يصف ملوك الهند: "وملوك الهند تلبس الأقراط، من الجواهر النفيس، في آذانها، المركب في الذهب، وتضع في أعناقها القلائد النفيسة، المشتملة على فاخر الجواهر الأحمر والأخضر واللؤلؤ، مما تعظم قيمته، ويجل مقداره. وهو اليوم كنوزهم وزخائرهم، ويلبسه قوادهم ووجوهم، والرئيس منهم يركب على عنق رجل منهم، وعليه فوطة قد استتر بها، وفي يده شيء يعرف بالجترة، وهي مظلة من ريش الطواويس، يأخذها بيده". (٩٣-٩٤)

وقد تعجب الرحالة، حين رأى أن الناس لا يأكلون معاً: "ومنهم صنف، لا يأكل اثنان منهم في غضارة واحدة، ولا على مائدة واحدة، يجدون ذلك عيباً فاحشاً..... وأما ملوكهم، في بلادهم ووجوهم، فإنه يتخذ لهم في كل يوم موائد ويسف خوص النارجيل سفاً، ويعمل منه كهيئة الغضارة والصحاف؛ فإذا أحضر

الغذاء، أكلوا الطعام من ذلك الخوص المسفوف، فإذا فرغوا من غذائهم، رمى بتلك المائدة، والغضار، والمسفوف من الخوص، مع ما بقى من الطعام، إلى الماء". (٩٤)

كما يشهد هذا الرحالة بأن " أكثر ملوكهم يظهرون نساءهم. إذا جلسوا لمن دخل إليهم، من أهل بلادهم وغيرهم. لا يحجبون عن النظر إليهن". (٩٤)

٤ - أبو دلف مسعر بن مهلهل الينبوعى (٣٣١هـ-)

رحالة عربى كبير، تمتد رحلته من عام ٣٣١هـ حتى ٣٧٧هـ. قدم تركستان من بغداد. وقابل ملك بخارى، نصر السامانى (ت- ٣٣١هـ)، ثم رحل إلى الصين، مع أحد سفرائها، وخرج من الصين إلى تركستان، ثم كابل والتبت، مروراً بكشمير، حتى وصل إلى الملتان والسند، ومنها إلى سواحل الهند الجنوبية (كولم). وقد طبع كتابه، فى برلين، عام ١٨٤٥م، مصحوباً بترجمة لاتينية. غير أنى لم أره، وقد ذكر ابن النديم تلخيصاً له فى فهرسه (المذكور فى كتاب الفهرست، لابن النديم هو أبو دلف العجلى لا الينبوعى!)، وياقوت فى (معجم البلدان)، والقزوينى فى (آثار البلاد)، وقد اطلعوا على هذا الكتاب، وقالوا إن به تفصيل معبد الملتان، ومنتجات مدراس ومصنوعاتها. وفى الغالب، هو أول رحالة عربى دخل الهند عن طريق البر.

٥ - بزرگ بن شهريار (٣٠٠هـ-)

بحار فارسى، تقلع سفنه من موانئ العراق إلى سواحل الهند، ومنها إلى الصين واليابان، ثم يعود من حيث أتى. وقد كتب مشاهداته ومشاهدات رفقائه باللغة العربية. وفى كتابه، أحداث متفرقة عن جنوب الهند، ومنطقة الكجرات. ومن الأحداث المهمة التى ذكرها، أن ملكاً هندياً قد ترجم القرآن؛ لكى ينعم النظر فى آياته. ومن بين المدن الهندية، التى ذكرها فى كتابه، مدن: كولم - كله - كشمير السفلى (البنجاب) - ميسور (جيسور) - سوباره - تهته - تهانه - مانكير،

(مهانكير عاصمة الملك ولبهـ رائد) - سيلان. وفيه قصص عن الزهاد والرياضيين، ومن يقتلون ويحرقون أنفسهم، وأعجب ما في الكتاب، أنه يستخدم كلمة "بنيا" للتجار في أماكن متفرقة، وهي كلمة هندية خالصة. وقد أطلق التجار العرب، في آنذ، على المركب الصغير لفظ بارجة، وهي كلمة مأخوذة من الكلمة الهندية "بيرا"، وجمع بارجة بوارج، إلا أن لفظ "بوارج" جاء في الكتاب؛ ليدل على القرصنة البحرية، على الرغم من أن الهنود يستخدمون هذا اللفظ نفسه للدلالة على المحفة (مركب النساء)، أو بمعنى السرير ذي الخمسة أرجل. وفي كتابه أيضاً ذكر للمنبوذين (ص ١١٨). وقد طبع كتابه في (لیدن) عام ١٨٨٦م، مصحوباً بترجمة فرنسية، ولكن الترجمة الإنجليزية نشرت في نفس الشهر الذي طبع فيه الكتاب.

٦ - المسعودي (٣٠٣هـ)

هو أبو الحسن علي، مؤرخ ورحالة، وجغرافي مشهور، ولا يشق له غبار، قضى ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً في الأسفار. بدأ رحلته من بغداد، فطوف بالعراق، والشام، وآرمينيا والروم (آسيا الصغرى)، وأفريقيا والسودان، هذا بالإضافة إلى بلاد الزنج، ثم سافر إلى الصين، والجزيرة العربية، والحبشة، وفارس، وأنهار الروم. وما بقي من كتبه العديدة الضخمة إلا كتابين، هما: (التنبيه والإسراف)، وهو كتاب مختصر، أما كتابه الثاني الضخم، فهو (مروج الذهب ومعادن الجواهر). وفي هذا الكتاب كم كبير من المعلومات، وكأنه تاريخ للإسلام، إلا أن مقدمته تحتوى على مجمل تاريخ الأمم كلها، منذ بدء الخليقة، ومن بين هذه الأمم، الأمة الهندية. وقد أطنب في الحديث عن أحوال البحار.

وقد ذكر أنهار الهند، عدة مرات: نهر براند (الراوي)، ونهر الجنجا، وأنهار البنجاب الخمسة (ص ٣٧٢)، وذكر منابع كل نهر على حدة، كما ذكر مدينة قنوج، وهي مدينة غير قنوج الشهيرة، التي تقع في السند، وكان ملكها يعرف بالملك بؤوره، وحدد موقعها. كما ذكر أنه لم ير أعلى وأشهى من جبال التبت

(صـ٣٨٩). ويتضح من كلامه، أنه يقصد جبال الهمالايا. كما ذكر تعدد اللهجات التي يتحدث بها الناس في الهند (صـ٣٨١). والأكثر عجباً، قوله: "والقندهار تعرف ببلاد الرهبوط (الراجبوت)" صـ٣٧٢. (المسعودي، م ٣٤٦، مروج الذهب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤ مصر ١٩٦٤م، ج ١، ص ١٦٥).

وقد وصل إلى كهنبايت، عام ٣٠٣هـ، وكان يحكمها في ذلك الوقت أحد التجار البراهمة، واليًا من قبل الملك "ولبهـ رائـ"، صـ٢٥٤، وعند وصوله إلى الملتان، عام ٣٠٠هـ، ذكر لنا أسماء الملوك والوزراء العرب هناك (صـ٣٢٦). وكتب المسعودي كتابه "مروج الذهب" بعد أن أنهى رحلته، عام ٣٣٢هـ. وقد نشر هذا الكتاب بباريس، في تسع مجلدات، مصحوبًا بترجمة فرنسية، وطبع في مصر، عدة مرات.

٧ - الإصطخرى (٣٤٠هـ-)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، المنبوذ بالإصطخري، من سكان الكرخ ببغداد. كان رحالة، ومن علماء الجغرافية المشهورين. زار أكثر بلاد آسيا، وله كتابان: أحدهما هو كتاب "صور الأقاليم"، والآخر هو كتاب "الممالك والممالك"، وقد طبع الكتاب الأول في (كوتها) عام ١٨٣٩، والآخر طبع في (ليدن) عام ١٨٧٠م، وفيه ذكر لبلاد الهند والسند، وكابل، وبلاد ما وراء النهر. هذا بالإضافة إلى ذكره لبلاد العرب والفرس. وهناك تفصيل وافٍ عن بحر الهند الذي كان يطلق عليه بحر فارس. وقد قدم الإصطخرى الهند، عام ٣٤٠هـ / ٩٥٠م، وقابل فيها معاصره الرحالة ابن حوقل، وذكر في كتابه مدينة مهانكر اسم مملكة الملك بلهرا "ولبهـ رائـ"، ويبدو من كلامه عنها أن هذه المملكة قد تفرقت إربًا، فأصبحت ولايات صغيرة، ويضيف أن كل ملوك هذه الولايات كانوا يخضعون

لسلطانه (يقصد "وليهـ رائـ"). (الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١١٩، مصر، ٢٠٠٤م).

ثم يحدثنا عن مدن الملتان، والمنصورة، والسند، والور، ونهر السند. وما كان القصد من تأليف كتابه هذا، الحديث عن أحوال البلدان فقط، وإنما الكتابة عن جغرافية العالم، ورسم الخرائط الدالة عليه، ومن بينها خريطة السند أيضاً.

٨ - ابن حوقل (٣٣١هـ/٩٤٣م - ٣٥٨هـ/٩٧٩م)

كان تاجرًا من تجار بغداد، وتركها عام، ٣٣١هـ/٩٤٣م، وسافر إلى أوربا وأفريقيا وآسيا، وطاف أسبانيا وصقلية، حتى وصل إلى الهند. وصور هذه الأقاليم كلها في خرائط غير موجودة، فيما بين أيدينا من نسخ مطبوعة، إلا أن السيد "اليت" قد شاهد نسخة خطية ناقصة، في مكتبة ملك منطقة اوده. فأضاف إلى كتابه خريطة إقليم السند؛ تلك الخريطة التي وجدها في النسخة الخطية لكتاب ابن حوقل.

وهذه الخرائط رغم أنها غير صائبة؛ لأنها خرائط توضيحية فقط، ليست وظيفتها تحديد الموقع على وجه الدقة، إلا أنها تعد أول خريطة جغرافية عن إقليم من أقاليم الهند. ويظهر في هذه الخريطة أماكن العمران، من الكجرات حتى سيستان.

وهو أول جغرافي عربي يخبرنا في كتابه، عن طول الهند وعرضها، فيقول: "يدخل في حدود الهند جزء من كشمير والتبت والسند" ص ٩.

"وأما بلاد السند.... وفي شرقى ذلك كله، بحر فارس، وغربيها، كرمان، ومفازة سجستان وأعمالها، وشماليتها، بلاد الهند، وجنوبيها مفازة ما بين مكران والقُص، ومن ورائها، بحر فارس، وإنما صار بحر فارس يحيط بشرقى هذه البلاد، وجنوبيها من وراء هذه المفازة، من أجل أن البحر يمتد من صيمور، على

الشرقي، إلى تيز مكران، ثم ينعطف على هذه المفازة، إلى أن يتقوس على بلاد كرمان وفارس، وهذه صورة بلاد السند" (ابن حوقل، صورة الأرض، ج ٢، ط ٢، ليدن، ١٩٣٩م، دار صادر بيروت، ب.ت، ص ٣١٧).

"طول أرض الهند يبدأ من مكران، مروراً بالمنصورة وبده، وكل إقليم السند، حتى نهايته عند قنوج، ومنها إلى الأمام، حتى بلاد التبت، التي لا يوصل إليها إلا بعد أربعة أشهر. أما عرضها، فيبدأ من نهر فارس حتى قنوج، التي تأخذ طرقها مسافة ثلاثة أشهر".

ورغم أن هذا الكلام يعد ناقصاً، فإنه يعد المحاولة الأولى لذكر حدود الهند.

٩ - البشاري المقدسي (٣٧٥هـ)

هو شمس الدين محمد بن أحمد البشاري، من بيت المقدس في الشام. أنهى كتابه، عام ٣٧٥هـ، سافر إلى بلدان العالم الإسلامي في عصره، فقط. وجاء إلى الهند، ولكنه لم يتجاوز إقليم السند. وأهم ما يميز كتابه أنه يحتوي على خرائط هذه الدول، ولكنها مازالت مخطوطة، لم تطبع بعد، واسم كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، وآخر أبواب هذا الكتاب عن السند، وأمامنا تلك النسخة التي طبعت للمرة الثانية، عام ١٩٠٦م، في ليدن.

وثمة ميزة أخرى في كتاب المقدسي، ألا وهي تقسيم الممالك إلى أقاليم، والأقاليم إلى مدن؛ ثم ذكر كل مدينة على حدة، وذكر تجارها، ومنتجاتها وصناعاتها، وعقائدها، وعملاتها؛ فحظى كتابه بأهمية كبرى، وشهرة واسعة. وقد ذكر أحوال السند في أربع عشرة صفحة.

١٠ - البيروني (٤٠٠هـ)

الجميع يعرف مؤلف كتاب "تاريخ الهند"، فلا حاجة بنا إلى ذكر حياته، وسوف أكتفى بذكر أن أصل البيروني مدينة "خيوا"، بخوارزم، وعندما قدم الهند،

لم تكن حملات محمود الغزنوي قد بدأت بعد، وقد ألف كتابه بعد محمود الغزنوي بعامين.

وللبيروني من الكتب، فضلاً عن كتاب "تاريخ الهند"، كتب عدة، أهمها: "القانون المسعودي"، وقد ذكر فيه كثيراً من مدن الهند؛ محدداً فيه طول كل بلد من بلادها وعرضه. وكتاب "تاريخ الهند" مكتوب باللغة العربية، ونشرت له ترجمتان بالإنجليزية والهندية، وفيه تفصيل كامل عن جغرافية الهند.

١١ - ابن بطوطة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

ولد في طنجة، واستقر بفاس، في المغرب، قدم الهند، في عصر السلطان محمد تغلق^(١)، وشاهد كل شبر فيها، وذكر مشاهداته بطريقة جميلة، امتازت بالدقة في الملاحظة، والأمانة في الرواية، وذلك في رحلته " تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، " المعروفة برحلة ابن بطوطة.

وأهم ما فيها، بالنسبة لنا، هو الجزء الخاص بأحوال جنوب الهند، عندما لم يكن المسلمون قد فتحوها بعد.

١٢ - المؤرخون والجغرافيون الآخرون.

قد ذكرنا، في الأسطر السابقة، هؤلاء الرحالة، الذين قدموا الهند بذواتهم، ولكن هناك العديد من المؤرخين والجغرافيين العرب، الذين كتبوا عن الهند، منهم: ابن رسته (٢٩٠هـ)، وقدامة بن جعفر (٢٩٦هـ)، ثم البلاذري (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، وكتابه القيم "فتوح البلدان"، وابن النديم البغدادي، صاحب كتاب "الفهرست" (٣٧٠هـ).

(١) محمد تغلق: تحدث الرحالة ابن بطوطة، في رحلته، عن هذا السلطان حديثاً طويلاً، فذكر له كثيراً من الفضل والعلم، ولم ينكر ما عرف عنه من غرائب الأطوار والطباع، توفي عام، ٧٥٢هـ/١٣٥١م.

كان هؤلاء من المتقدمين، أما المتأخرون فمنهم: الصوفي الدمشقي (٧٢٨هـ / ١٣٢٦م)، صاحب كتاب "عجائب البر والبحر"، والجغرافي العربي، الصقلي الإدريسي (٥٦٠هـ / ١١٦٥م)، والفارسي زكريا القزويني (٦٨٢هـ / ١٢٨٣م)، صاحب كتاب "آثار البلاد"، وأبو الفدا (٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، صاحب كتاب "تقويم البلدان"، وياقوت (٧٢٧هـ / ١٢٢٩م)، صاحب كتاب "معجم البلدان" الضخم، والنويري المصري (٧٣٣هـ / ١٣٣١م)، صاحب كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب"، وشهاب الدين العمري (٧٤٨هـ / ١٣٤٦م)، صاحب كتاب "مسالك الأبصار وممالك الأمصار".

وقد تم طبع أجزاء من كتاب الإدريسي، وخمسة مجلدات من كتاب "نهاية الأرب"، وجزء واحد فقط من كتاب "مسالك الأبصار" في مصر، وفي كل هذه الكتب، ذكر لبعض أحوال الهند.

ولو جمعت كل أحوال الهند، من هذه المؤلفات، ستكون تكملة لكتاب البيت الناقص، وستتضح لنا منها معلومات كثيرة حديثة، عن هند القرون الوسطى، وللأسف، فقد أهمل المؤرخون الأوروبيون أحوال الهند القديمة، واعتمدوا فقط على المعلومات اليونانية عن الهند، وحاولوا أن يخرجوا منها كل نقص. وجعلوا الكتب صدقاً على قولهم، واجتهدوا كثيراً في البحث والتنقيب عن كل اسم، ولو أنفقوا جزءاً من جهدهم في معلومات المؤرخين العرب، لكانوا قد أكملوا فراغ تلك القرون، بين التاريخ الفارسي واليوناني.

الباب الثانى

العلاقات التجارية

تحيط المياه شبه الجزيرة العربية من ثلاث جهات، كما أن تربتها تقتصر إلى الخصوبة. وحيث إنها مأهولة بالسكان قدر لها أن تكون منطقة تجارية. ومن يُمن الطالع أن كبرى بلدان العالم تقع على تخومها، فيحدها "العراق"، وبلاد "الشام"، من الشمال، و"مصر" وأفريقيا، من الغرب، أما شبه القارة الهندية، و"إيران"، فمن الشرق.

وكانت هذه الدول جميعًا ذات علاقات مباشرة مع شبه الجزيرة العربية، بيد أن حديثنا هنا سوف يقتصر على شبه القارة الهندية. تقع "البحرين" و"عمان"، و"حضر موت"، و"اليمن"، و"الحجاز" على سواحل البحر الأحمر، والخليج العربى، والمحيط الهندى. فثمة فرصة للتجارة البحرية، وقد استعرضنا سابقًا، خريطة الملاحة البحرية (الرحلات البحرية) بين العرب وشبه القارة الهندية، التى كانت تبحر من السواحل الهندية إلى "اليمن"، ثم تحمل بضائعها على الجمال، فتسلك الطريق البرى المؤدى إلى سواحل البحر الأحمر، فتزد "مصر" و"الشام"، ومنها إلى أوروبا.

ومذ وعينا أحوال التجارة العالمية؛ نجد العرب يشتغلون بالتجارة، قوافلهم تمر ذهابًا وإيابًا، عبر هذا الطريق. ولدينا أقدم الكتب التاريخية فى العالم وهى "التوراة"، التى ورد فيها أن القوافل التجارية كانت تمر عبر هذا الطريق، فى عهد سيدنا يوسف - عليه السلام - أى بعد جيلين من عهد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وعبرته نفس القافلة التى حملت سيدنا يوسف إلى مصر (الميلاد ٣٧ - ٢٥).

هذا وقد ذكر المؤرخون اليونان هذا الطريق، وأن العرب كانوا يسيطرون على التجارة الهندية، منذ عهد سيدنا يوسف - عليه السلام - مروراً بعصر ماركو بولو وفاسكو دي جاما^(١).

وعندما استولى الإغريق على "مصر"، سيطروا على هذه التجارة، حيث كان الطريق من "مصر" إلى الشام آمناً لهم، ففقدت التجارة العربية رونقها، وذهب بريقها، فما عادت كما كانت، وقد كتب محرر مادة "العرب"، في دائرة المعارف البريطانية، يقول: "كان السبب الرئيسي وراء هذا الخير الوفير الذي عم جنوب شبه الجزيرة العربية الغربى (حضر موت واليمن)، مرور البضائع التجارية بين "الهند" و"مصر"، عبر البحر الأحمر أولاً؛ ثم تكمل مسيرتها براً على الساحل الغربى، وقد توقفت هذه التجارة آنذاك، حيث إن ملوك "مصر" البطالمة قد مهدوا طريقاً مباشراً من "الهند" إلى "الإسكندرية"^(٢).

ويبدو أن اليونانيين قد استولوا على جزيرة "سوقطرا"^(٣) من أجل ذلك، وأقاموا بها مستعمرة تراءت آثارها، فيما بعد، للملاحين العرب المسلمين^(٤). ويبدو أن هذه التجارة لم تصبح جميعها فى أيدي الإغريق، حيث يشير (اجاثاركيدس)،

(١) الفنتون - الباب العاشر من كتاب تاريخ الهند (التجارة).

(٢) المجلد الثانى، الطبعة الحادية عشرة، ص ٢٦٤.

(٣) سوقطرا: جزيرة كبيرة، تبعد ميلاً عن رأس فرتك، و ١٥٠ عن رأس التوابل جردافون، وجوردافون: اسم سنسكريتي (دفياسوخاذرا)، معناه: جزيرة النعيم، حرّقه اليونانيون، وجعلوه ديوسكوريدو، واحتفظ العرب بـ "سوخاذرا"، وجعلوه "سقطره" بإملاءات عديدة، ووصفها العديد من الجغرافيين العرب، منهم أبو الفدا والإدريسي، وسأورد ما قاله الإدريسي فى نزهة المشتاق: "... جزيرة سقطرى التى ينسب الصيد إليها، وبينها وبين الساحل مجريان بالريح الطيبة، ويقابلها من بلاد اليمن مدينة مرباط وحاسك.... والجزيرة واسعة القطر، جليلة القدر... وأكثر نباتها شجر الصبر... وهى كما قلنا تتصل من جهة الشمال، والغرب ببلاد اليمن، بل محسوبة منه، ومنسوبة إليه".

(٤) أبو زيد السيرافى - الرحلة، طبعة باريس، ص ١٣٤.

المؤرخ اليوناني، إلى "أن السفن كانت تأتي من الهند إلى سبأ (اليمن)، ثم تصل إلى "مصر"^(١)، وذلك قبل عهد السيد المسيح بقرنين من الزمان".

ويذكر أرتي ميدروس - الذي كان قبل المسيح بمائة عام: "يشترى قوم سبأ (إحدى قبائل اليمن) البضائع التجارية من الدول المحيطة بهم، ثم يبيعونها إلى جيرانهم، وبهذا تصل البضائع، يدًا بيد (مباشرةً)، إلى أهل الشام، وشبه الجزيرة العربية"^(٢).

ويثبت مما نقلناه، ومن مصادر غيره، أن سطوة العرب على التجارة لم تنته في ذلك العصر، بل استمرت جنبًا إلى جنب مع اليونان^(٣).

أما الطريق الآخر بين العرب والهند، فكان عن طريق الخليج العربي، الذي ظل مفتوحًا بين العرب والفرس من سكان السواحل، فيحملون بضائعهم برًا وبحرًا، عبر جميع المدن الهندية الساحلية، وجميع جزر المحيط الهندي، ثم مرورًا بـ "البنغال"، و"آسام"، حتى "الصين"، ثم يعودوا قافلين من هذا الطريق نفسه.

كان الطريق بين أوربا و"الهند" طريقًا بالغ الأهمية، ولا يزال كذلك، وعن طريقه حدثت ثورات كبيرة في التاريخ، وقد مر بنا أن هذا الطريق كان تحت سيطرة العرب، في بادئ الأمر، ثم حين استولى الإغريق على "مصر"، سيطروا عليه، وذلك قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون.

وعندما ظهر الإسلام، في القرن السادس، بلغ العرب ذرى المجد، فسادوا البلاد من مصر حتى الأندلس، من القرن السادس فصاعدًا، وسيطروا على البحر الأبيض المتوسط، ليصبح في حوزتهم: جزر "كريت"، و"سائبرس" (قبرص)،

(١) الفنستون - تاريخ الهند - المجلد الأول، ١٩١٦م، ص ١٨٢.

(٢) Dunker- History of Antiquities الجزء الأول، ص ٣١٠ - ٣١٢.

(٣) للمزيد انظر الفنستون - تاريخ الهند - المجلد الأول، ١٩١٦م، ص ١٨٢.

وغيرها، وأصبح تحت يد العرب أكبر طريق تجارى فى العالم، سيطروا عليه عدة قرون.

وفى القرن الرابع عشر الميلادى، حاول الأوربيون بكل ما أوتوا من قوة إجلاء العرب عن بلاد الروم، فى وقت كانوا يحققون انتصارات فى الأندلس، وشمال أفريقيا، وكادوا يغيرون على الطريق؛ غير أن الأتراك أخذوا يطلون برؤوسهم من آسيا الوسطى. ومن ثم، ظل الطريق البيزنطى تحت سيطرة المسلمين؛ مما اضطر الأوربيين إلى أن يبحثوا عن طريق آخر إلى الهند، فاكتشفوا طريق (رأس الرجاء الصالح) حول "جنوب أفريقيا"؛ حيث تركوا شمال أفريقيا، والبحر الأبيض المتوسط.

وقد سلك هذا الطريق البرتغاليون والألمان، ثم الإنجليز والفرنسيون، فسلبوا التجارة الهندية التى كانت فى حوزة العرب. وقد جرت معركة بحرية كبيرة بين الشرق والغرب، على سواحل الهند، وانتهى هذا الصراع لصالح الغرب، إذ كانت هذه الهزيمة هى بداية هزائم أهل الشرق اللاحقة.

وقد اشترك فى هذه المعركة البحرية أساطيل المصريين، والعرب، وإمارات الدكن الهندية، الإسلامية والهندوكية، ضد أساطيل الأمم الأوربية. وكانت النتيجة أن سيطر الأوربيون على تجارة جميع جزر الهند وسواحلها تقريباً، منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا. وذلك فضلاً عن تدمير كل السفن التابعة للتجار العرب فى "مدراس"، وكان يطلق عليهم اسم "موپلا"، والذين كانوا يسيطرون على التجارة فى المنطقة وجزرها.

فأخذ الحلم يراود الأوربيين فى امتلاك أقرب الطرق إلى البحر الأبيض المتوسط، ففكروا فى حفر قناة السويس بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، ثم الاستيلاء على "مصر" وقناة السويس؛ حتى يظل هذا الطريق التاريخى آمناً فى أيديهم إلى الأبد.

هذا ما نجده فى كافة كتب التاريخ من أحداث بشأن تردد التجار الأوربيين على الهند وجزرها، والتي تحمل فى طياتها جانباً كبيراً من تاريخ العلاقات التجارية بين العرب والهنود، فى أدوارها المختلفة. أما الطريق التجارى الآخر بين العرب والهنود، فكان فى الخليج العربى؛ الذى ظل تحت سيطرة العرب على الدوام، وظل مركز التجارة ينتقل من هذه المدينة إلى تلك، ومن هذا الميناء إلى ذاك، فى ظل تقلبات أنظمة الحكم فى كل من "عمان"، و"حضر موت"، و"العراق".

ميناء "أبله"

كان ميناء "أبله"، الواقع قرب "البصرة"، أكبر موانئ الخليج العربى وأشهرها بالنسبة لشبه القارة الهندية، وذلك فى عهد الفرس، وقبل الفتح العربى للعراق، عام ١٤ هـ. "وكانت "الأبله" عند العرب تسمى أرض الهند" (١) لكثرة التبادل التجارى وتدفقه منه. وكانت السفن القادمة من الهند والصين، ترسو فيه، وتبحر منه أيضاً.

وفى الإجابة البليغة لأحد الرحالة العرب، حين سأله سيدنا عمر - رضى الله عنه - عن رأيه فى الهند؛ وهو الحجاج بن القرية (٢) "قال: أخبرنى عن الهند. قال: بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر" (٣) - جواب شافٍ عن أهمية التجارة مع الهند، ومنتجاتها.

وحين تم فتح العراق، عام ١٤ هـ، أمر سيدنا عمر - رضى الله عنه - بالاستيلاء على هذا الميناء، فكتب: "فليجعلها قيرواناً للمسلمين" (٤) (ياقوت الحموى،

(١) للمزيد من التفصيل حول (أبله)، انظر: "الأخبار الطوال" لأبى حنيفة الدينورى، سنة ٢٢٨ هـ،

ص ١٣٣. ليدن، و"معجم البلدان"، لياقوت الحموى، الجزء الأول، ص ٨٨، والجزء الثانى، ص ١٩٦

(مصر) و"تاريخ البصرة"، لنعمان أعظمي - بغداد، الحاشية، ص ١١.

(٢) هو أيوب بن القرية، كان أحد أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس، عامل الحجاج على البصرة..

(٣) الدينورى - الأخبار الطوال - ص ٣٢١ (ليدن).

(٤) ياقوت - معجم البلدان - المجلد الثانى - ص ١٩٦ - مصر .

معجم البلدان، ج ١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٤٣٢)، ومنذ ذلك الوقت، ظلت هذه المدينة ميناءً بحرياً^(١). حتى دمرتها حرب الزنج، عام ٢٥٦هـ، على الرغم من أن العرب قد أقاموا الميناء العراقي الشهير، ألا وهو ميناء "البصرة"، عام ١٤هـ، فإنه لم يستطع أن يزحزح المكانة التجارية لميناء "أبله"، وسبب ذلك غالباً هو أن "البصرة" كانت مركزاً سياسياً وحربياً، أكثر منها مركزاً تجارياً بحتاً، غير أن التجارة الهندية والصينية والحبشية، ظلت تتدفق تدريجياً إلى ميناء "البصرة"؛ مما أضفى عليه رونقاً خاصاً، رغم الانقلابات السياسية. خاصة بعد أن سيطر العرب على إقليم "السند"، أواخر القرن الأول الهجري؛ حيث أصبح مركزاً لحركة التجارة الهندية، وقد ارتفعت واردات رسوم السفن والمراكب؛ فزادت ميزانية الخلافة في بغداد زيادة مطردة، حتى وصلت، إبان عهد المقتدر بالله (عام ٣٠٦هـ)، إلى ٢٢٥٧٥ ديناراً في العام الواحد.

سيراف

"سيراف" أكبر موانئ الخليج الفارسي أهمية بالنسبة للهند، بعد ميناء "أبله"، وتقع على حدود "فارس"، وتبعد عن "البصرة" مسيرة سبعة أيام. وقد سطع نجم "سيراف"، وازدادت شهرتها، في القرن الثالث الهجري، عندما أصبحت مقراً لكبار البحارين، وكبار رجال التجارة البحرية، كما أن السفن القادمة من "الصين" و"الهند" كانت تأتي إليها محملة بالبضائع التجارية.

ومما كتبه أبو زيد (هنا شيء عجيب، يكتب عن أبي زيد السيرافي، وينقل من ياقوت الحموي) نتعرف على أحوال هذا الميناء، في القرن الثالث الهجري، حيث كتب يقول: "هي مدينة عظيمة، ليس بها سوى الأبنية، حتى يجاوز على نظر عملها، وليس بها شيء من مأكول أو مشروب ولا ملبوس، إلا ما يحمل إليها من البلدان، ولا بها زرع ولا ضرع، ومع ذلك، فهي أغنى بلاد فارس..." "هو أكبر

(١) الأعظمي - تاريخ البصرة - (بغداد) الحاشية ص ١١.

موانئ فارس، ويقع في أكبر مدنها التي لا ترى فيها، على امتداد بصرك، سوى النباتات، فلا يوجد بها أية حقول زراعية، إنما ترد إليها كل حاجاتها عن طريق البحر" (١) (ج ٣ ص ٢٩٥).

وقد رآها البشارى المقدسى، في منتصف القرن الرابع الهجرى، فقال: "وعلى الجملة، ما رأيت فى الإسلام أعجب ولا أحسن من دورها المبنية من خشب الساج والآجر، وإنك لتشتري الدار الشاهقة؛ الواحدة بما يفوق المائة ألف درهم" (٢).

وقريب ذلك، رآها الإصطخرى أيضاً، فكتب: "وهى تقارب (شيراز) فى الكبر، وبنائهم بالساج وخشب يحمل من بلاد الزنج، وأبنيتهم طبقات، وهى على شفير البحر، مشتبكة البناء، كثيرة الأهل، يبالغون فى نفقات الأبنية، حتى أن الرجل من التجار لينفق على داره زيادة عن ثلاثين ألف دينار، وليس حوالىها بساتين وأشجار... وأطيب مياههم من جبل مشرف عليهم" (٣) (الإصطخرى، ص ٧٨).

ويشير البشارى إلى أن هذه المدينة قد خربها الزلزال، وانقلاب دولة الديلم، عام ٣٦٦هـ، وأراد الناس إعمارها بعد ذلك" (٤) (البشارى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط ٢، لبنان، ١٩٠٦م، ص ٤٢٦-٤٢٧).

وقد عمرت المدينة، واستعادت مكانتها ورونقها. وقد رآها ياقوت الحموى، أواخر القرن السادس الهجرى، فكتب: "فمنذ عمر ابن عميرة قيس"، صارت فرضة الهند، وإليها منقلب التجار، وخربت سیراف وغيرها، وقد رأيتها وليس بها قوم إلا صعاليك" (ياقوت، ج ٣، ص ٢٩٥).

(١) ياقوت - معجم البلدان - الجزء الخامس، ص ١٩٣ (مصر).

(٢) أحسن التقاسيم (لندن) ص ٤٢٦.

(٣) نقلاً عن معجم البلدان - ياقوت - المجلد الخامس، ص ١٩٣ (مصر)، والمسالك والممالك للإصطخرى، ص ٧٨.

(٤) أحسن التقاسيم، ص ٤٦٤.

قيس

"قيس" أو كيش: جزيرة إيرانية في الخليج، بالقرب من عمان، احتلت مكان "سيراف"، واستولت على التجارة الهندية والصينية. وكان حاكمها والي "عمان"، وعندما رآها ياقوت، في القرن السادس الهجري، وصفها بأنها جميلة، تكسوها الخضرة، فهي جزيرة صغيرة؛ وذلك كله لما أدركته عليها التجارة الهندية من خير وفير، حيث كانت ترسو فيها كل السفن الهندية، ونتيجة لحركة التجارة، وكثرة السفن بها، كتب عنها ياقوت، فقال: "ولمكها هيبة وقدر عند ملوك الهند؛ لكثرة مراكبه ودوانيجه"^(١) (ياقوت، ص ٤٢٢).

وقد كتب القزويني، عام ٦٨٦هـ: "وهي مرفأ مراكب الهند والفرس، ومنقلب التجارة، ومتجر العرب والعجم،.... يجلب منها كل أعجوبة وقعت في بلاد الهند"^(٢) (آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزويني، دار صادر، بيروت، ص ٢٤٣).

موانئ الهند

لدينا أسماء الموانئ الهندية منذ القرن الأول الهجري، ثم تكثر هذه الأسماء بعد ذلك حتى القرن الثالث الهجري؛ لتظل كما هي حتى النهاية. وأقرب هذه الموانئ إلى العرب، بعد الخليج الفارسي، ميناء "تيز" بـ "بلوچستان"، ثم ميناء "ديبل" في "السند"، ثم موانئ: "تهانه"، و"كهنبايت"، و"سوباره"، و"جيسور"، في "الكجرات"، و"كولم ملي"، و"مليبار"، و"راس كماري" (قماري)، في "مدراس"، ثم بعدها كانوا إما يتجهون إلى الجزر، أو إلى "البنغال"، ومنها إلى القامرون (قامروب أو كامروب)؛ أي "آسام"، ومنها إلى "الصين".

(١) ياقوت - معجم البلدان - الجزء السابع - ص ١٢٦، مصر، و الجزء الخامس ص ١٩٣.

(٢) القزويني - آثار البلدان - طبعة أوربا ص ١٦١.

وقد وردت كل أسماء هذه الموانئ عند الجغرافيين العرب، ومن ذلك ما ذكره ابن حوقل، في القرن العاشر الميلادي، عن ميناء "ديبل" بالسند: "والديبل من شرقي نهر مهران على البحر، وهي متجر عظيم، وتجاريتها من وجوه كثيرة"^(١).
ص ٣٢٣

طرق التجارة البحرية (الملاحية)

يصف سليمان التاجر، في القرن الثالث الهجري، الطرق البحرية التي تمر عبابها السفن في المائة الثالثة للهجرة، فيقول: "والمسافة بين "البصرة" و"سيراف" في الماء مائة وعشرون فرسخاً، فإذا عبى المتاع بـ "سيراف"، استعذبوا منها الماء وخطفوا - هذه لفظة يستعملها أهل البحر، يعني: يقلعون - إلى موضع يقال له "مسقط".... فنستعذب الماء من "مسقط" - فتخطف المراكب منها إلى "الهند"، فنقصد "كولم ملي" شهراً مع اعتدال الرياح. وفي "كولم ملي" مسلحة لبلاد "كولم ملي"، ولهم جباية على السفن الصينية، وغيرها، وبها ماء آبار عذب، فيؤخذ من الصينية ألف درهم، ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير إلى دينار"^(٢). (دائرة المعارف الهندية، أخبار الصين والهند، تأليف: سليمان التاجر - أبو زيد السيرافي، تحقيق وتحليل: إبراهيم الخوري، ط ١، بيروت، ١٩٩١م، ص ٣٥ - ٣٦).

وبعد سليمان التاجر بخمسة وعشرين عاماً، يأتي أبو زيد السيرافي بوصفه، فيقول: "هذا البحر الذي عن يمين "الهند" للخارج من "عمان".... إلى أن تنتهي أرضهم إلى أرض "عدن"، وساحل اليمن، وإلى "جدة"، ومن "جدة" إلى ساحل الشام، ثم تقضى إلى القلزم، وينقطع البحر هناك..... ثم يتعرج البحر من القلزم على أرض البربر، ثم يتصل بالجانب الغربي الذي يقابل أرض "اليمن"، حتى يمر

(١) ابن حوقل - الرحلة - ص ٢٣٠ أوربا.

(٢) سليمان التاجر - الرحلة - ص ١٥-١٦، باريس، ١٨١١م.

بأرض الحبشة... "ومراكب أهل "سيراف" إذا وصلت في هذا البحر المتيا من عن بحر "الهند"، فصارت إلى "جدة"، أقامت بها، ونقل ما فيها من الأمتعة التي تحمل إلى "مصر" في مراكب القلزم. إذ كان لا يتهاى لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر؛ لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه" (ص ٩٠). "وكان أهل "سيراف" أكثر دراية ببحار "الهند" و"الصين" من البحار الأخرى، كما أن العائد الذي تدره التجارة في مياه "الهند" و"الصين" أكثر منه في مياه بحر القلزم" (١).

ويقول ابن خرداذبه، الذي عاش في القرن الثالث الهجرى، يمدح التجارة في جدة: "ومن الشجر إلى عدن مائة فرسخ، وهى من المرافئ العظام، ولا زرع بها ولا ضرع، وبها العنبر والعود والمسك، ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس" (٢).

كما حدد الطرق والمسافات من البصرة إلى الهند:

من البصرة إلى جزيرة خارک ٥٠ فرسخاً.

ومنها إلى جزيرة لاون ٨٠ فرسخاً.

ثم إلى جزيرة ابرون ٧ فراسخ.

ثم إلى جزيرة خين ٧ فراسخ.

ثم إلى جزيرة كيش ٧ فراسخ.

ثم إلى جزيرة ابن كاوان ١٨ فرسخاً.

ثم إلى ارموز (هرمز) ٧ فراسخ.

ثم إلى ثارا مسيرة سبعة أيام.

ويقول: إن ثارا هى الحد الفاصل بين فارس والهند، ومنها تقلع السفن إلى

ديبل.

مسيرة ثمانية أيام

من ثارا إلى الديبل

(١) أبو زيد السيرافى - الرحلة - ص ١٣٦، باريس، ١٨١١م.

(٢) ابن خرداذبه - كتاب المسالك - ص ٦١، ليدن.

ومن الديبل إلى مصب مهران نهر السند
ومن مهران إلى اوتكين، وهى أول أرض الهند
ومنها إلى كولي
ومن كولي إلى سندان
ومن سندان إلى ملي
ومنها إلى بلين
ومن بلين تفترق الطرق فى البحر ممن أخذ مع الساحل.
فمن "بلين" إلى "بابتن"
من بابتن إلى السنجلى وكيشكان
ومنها إلى مصب كردافريد (كوداوري)
ومنها إلى كيلكان واللوا وكنجة
ومنها إلى سمندر
ومن سمندر إلى اورنشين (اورنجين)
أما السفن الأخرى، فتقلع من "بلين" إلى "سرنديب"، ومنها إلى "جاوه"،
والبعض الآخر يقلع مباشرة من "بلين" إلى "الصين"^(١).

الطرق التجارية بين أوروبا والهند مروراً بديار العرب:

لم تتوقف حركة التجارة بين الشرق والغرب بعد أن فتح العرب "مصر" و"سوريا" و"العراق" و"إيران"، وأصبح لهم السيادة على بحر الروم، وبحر القلزم (الأحمر)، والمحيط الهندي. على الرغم من أن تجار المسلمين ما كانوا يذهبون إلى أوروبا، ولا يرد الروم إلى بلادهم، حيث كان اليهود يقومون بدور الوسيط بينهما؛ فهم أهل نمة فى الدولة الإسلامية، وعلى دراية بأوروبا منذ عهد "اليونان". وكانت "طرابزند" - التى تقع على ساحل البحر الأسود، وعلى حدود "روسيا"،

(١) ابن خرداذبه - ص ٦١-٦٤ - ليدن.

وآسيا الوسطى - هي نقطة التقاء التجار المسلمين مع التجار المسيحيين، ولا يستطيع أحد أن يتخطاها^(١). غير أن التجار اليهود كانوا يجوبون البلاد الإسلامية والمسيحية على السواء فى سهولة ويسر.

ويقول ابن خرداذبه:

"مسلك التجار اليهود الراذانية، الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية، وأنهم يسافرون من المشرق، إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، برًا وبحرًا، يجلبون من المغرب الخدم والجواري، والغلمان والديباج وجلود الخز، والفراء والسيمور والسيوف، ويركبون من ميخة، فى البحر الغربي، فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، وبينهما خمسة وعشرون فرسخًا، ثم يركبون البحر الشرقى، من القلزم إلى تجار جدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين السمك والعود والكافور والدارصيني، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي، حتى يرجعوا إلى القلزم، ثم يحملونه إلى الفرما، ثم يركبون فى البحر الغربي. فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية، فباعوها للروم، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة، فيبيعونها هناك، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة، فى البحر الغربي، فيخرجون بإنطاكية، ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية.

ثم يركبون، فى الفرات، إلى بغداد، ثم يركبون، فى دجلة، إلى الأبله، ومن الأبله إلى عمان والسند والهند والصين، كل ذلك متصل بعضه ببعض"^(٢).

(١) صوفى الدمشقى - نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر - ص ١٤٦.

(٢) ابن خرداذبه - ص ١٥٣-١٥٤ - ليدن.

التجار الروس

وقد تحدث ابن خرداذبه أيضًا عن التجار الروس الذين كانوا يسافرون برًا وبحرًا، مدعين النصرانية (أصبحت روسيا دولة مسيحية في القرن العاشر الميلادي)، ويذكر ابن خرداذبه أنهم كانوا من أصل سلافي: "وهم جنس من الصقالبة، فإنهم يحملون جلود الخز، وجلود الثعالب السود، والسيوف، من أقصى صقلية إلى بحر الرومي، فيعشرهم صاحب الروم، وإن صاروا في تنيس نهر الصقالبة، مروا بخليج مدينة الخزر، فيعشرهم صاحبها، ثم يسرون إلى بحر جرجان.... وقطر هذا البحر خمسمائة فرسخ، وربما حملوا تجارتهم من جرجان إلى الأبله، إلى بغداد، ويدعون أنهم نصارى؛ فيؤدون الجزية.

فأما مسلكهم في البر، فإن الخارج منهم يخرج من الأندلس، أو من فرنجة إلى السوس الأقصى، فيصير إلى طنجة، ثم إلى أفريقية، ثم إلى مصر، ثم إلى الرملة، ثم إلى دمشق، ثم إلى الكوفة، ثم إلى بغداد، ثم إلى البصرة، ثم إلى الأهواز، ثم إلى فارس، ثم إلى كرمان، ثم إلى السند، ثم إلى الهند، ثم إلى الصين^(١). (ص ١٥٤ - ١٥٥).

قوافل الهند من خراسان

زار المسعودي الهند، حوالي ٣٠٥هـ، وطاف "بلخ" و"خراسان"، فيقول: "ثمّة طريق برى من "خراسان" إلى "الصين"، حيث تلتقى حدود "الهند" مع "خراسان"، ومع "السند" أيضًا، من جهة "الملتان"، ومع "الملتان" عند "المنصورة"، في الجهة الأخرى، وتمر القافلة من "خراسان" إلى "السند". وهكذا كانت تأتي إلى "الهند" بشكل دائم؛ حيث كانت تلتقى حدود هذه الدولة مع "أفغانستان"^(٢).

(١) ابن خرداذبه - ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) المسعودي - مروج الذهب. (نص عبارة المسعودي: وأرض الهند واسعة في البر والبحر والجبال، وملكهم متصل بملك الزابج، وهي دار مملكة المهرج ملك الجزاير، والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت المسعودي، ج ١، ط ٤، مصر، ١٩٦٤م، ص ٨٢).

ويقول ابن حوقل، الذي يسبق محمود الغزنوي بخمسين عامًا: "إن كابل" و"غزنة" كانتا مركزًا للتجارة الهندية"^(١). (ص ٤٥٠)

"وكان هناك أيضًا تجار مسلمون في "اسيوان" (التي أطلق العرب عليها عسيقان)، وهي إحدى الإمارات الهندوكية بـ "البنجاب"^(٢). (البلاذري، فتوح البلدان، مراجعة: رضوان محمد رضوان، بيروت، ١٩٩١م، ص ٤٣٣).

مواقيت السفر بحرًا إلى الهند:

حدد المسعودي فترات المد والجزر، والهباج والسكون، في المحيط الهندي، وبناء عليه، حدد الشهور المناسبة لإبحار السفن، فيقول: "وليس يكاد يقطع من عمان نحو الهند في انتهائه إلا مركب معزز، وحمولته يسيرة، وتسمى هذه المراكب بعمان، إذا قطعت أرض الهند في هذا الوقت، "التيرماهيّة"، وذلك أن بلاد الهند، وبحر الهند يكون في اليسارة — وهو الشتاء — ودوام الأمطار في كانون، وكانون وشباط عندنا صيف، وعندهم الشتاء، كما يكون عندنا الحر في حزيران وتموز وآب، فشتاؤنا صيفهم، وصيفهم شتاؤنا، وكذلك سائر مدن السند والهند، وما اتصل بذلك إلى أقاصى هذا البحر، ومن شتى، في صيفنا، بأرض الهند، قيل: فلان تستر بأرض الهند: أى شتى هناك، وذلك لقرب الشمس وبعدها"^(٣). (المسعودي — مروج الذهب — م ٣٤٦هـ — ج ١، ص ١٤٨).

وقد ذكر أبو زيد السيرافي أن السفن لا تبحر في فصل المطر، فينشغل الهنود بالزراعة، أو يمارسون أى حرفة، يقضون بها هذا الفصل، وفيه ينبت محصولهم الغذائى الأرض"^(٤). (ص ٨٦)

(١) ابن حوقل — ص ٣٢٨ — أوربا.

(٢) البلاذري — فتوح البلدان — ص ٤٤٦ — ليدن.

(٣) المسعودي — مروج الذهب.

(٤) أبو زيد السيرافي — الرحلة — ص ١٢٦.

المصطلحات الفنية للملاحة الهندية فى اللغة العربية:

أسهمت حركة الملاحة العربية، على سواحل "الهند"، فى أن يتداول الملاحون، من العرب والفرس، بعض الألفاظ الهندية المتعلقة بالملاحة، كالسفن ولوازمها، والتي وردت فى كتب الجغرافيا والرحلات العربية بعد ذلك.

ومن هذه الألفاظ، كلمة "بارجة"، فأصلها اللغوى (حسبما أورده البيرونى) يرجع إلى الكلمة الهندية "بيره"، بمعنى: أسطول؛ ونطقه العربى: بارجة (حيث قلبت الهاء جيماً فى اللغة العربية)، وجمع على: بوارج. ولما كان لصوص (قراصنة) السواحل الهندية يسطون على هذه السفن أيضاً، أطلق عليهم هذا اللفظ نفسه "بوارج"^(١)، مثلما أطلقوا على لصوص البحر المتوسط "قراصنة". هذا، ومازال لفظ البارجة يطلق، فى اللغة العربية، على أسطول السفن الحربية، حتى يومنا هذا.

واللفظ الآخر هو "دونيج"، وجمعه "دوانيج"^(٢)، وهو الصيغة العربية للفظ الهندى "دونكى"، والتي تعنى "زورق".

أما اللفظ الثالث، فهو "هورى"، حيث يطلق على أهالى منطقة "ممبى" إلى اليوم. وهناك ثلاثة ألفاظ أخرى لمنتجات "الهند" وجزرها، لم يتحقق بعد من أصولها: "بليج"، ويقصد به سطح السفينة، و"جوش": حبل (سلة) المركب، وأخيراً، "كنير": وهى حبال لحاء جوز الهند التى تستخدم فى قيد السفن بالشاطئ، وتوثيق الألواح الخشبية فى عملية بناء السفن، وكلها ألفاظ هندية الأصل^(٣).

(١) البيرونى - كتاب الهند - ص ١٠٢، ليدن، وعجائب الهند - بزرک - ص ١١٤ - باريس.

(٢) ياقوت الحموى - معجم البلدان - لفظ قيس - الجزء السابع. وعجائب بزرک - ص ٦٩ - مطبعة بريد - لندن.

(٣) أنظر : د. ارنلد - سواء السبيل فى المولد و الدخيل.

وثمة لفظ آخر هو بمثابة تاريخ مختصر لحركة الملاحة الدولية في الشرق، في تلك الفترة، ألا وهو "ناخوذه" في العربية، وجمعه "تواخذه"، غير أن الهند أكثر معرفة بصيغته الفارسية "ناخدا"، وأصله "ناو خدا"، فالمقطع الأول "ناو"، وهو "السفينة" بالهندية، والثاني "خدا"، وهو "المالك" بالفارسية. فيقول حافظ: [ما خدا داريم ما را نا خدا در كار نيست] والترجمة [لا نحتاج لأحد سوى الله طالما أن الله معنا].

التجارة والمحاصيل الهندية:

قد يتضح ما كان يحمله التجار العرب من "الهند" وجزرها من بضائع فيما حمله أحد الرحالة العرب لسيدنا عمر - رضى الله عنه - عام ١٤هـ؛ حيث قال: "بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر".

يتضح من هذا أن العرب كانوا يحملون اللؤلؤ والمجوهرات والعطور، في القرن السادس الميلادي. وقد أوضح أحد الرحالة العرب، في القرن التاسع الميلادي، السبب في عودة السفن السيرافية من "جدة"، وعدم إتمامها الطريق إلى "مصر"، مروراً بالبحر الأحمر، فيقول:

"ليس هناك بحر كبحر الهند والصين، ففي بطنه اللؤلؤ والعنبر، وفي جباله الجواهر والذهب، وفي أفواه دوابه العاج، وفي منابته الأبنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل، وسائر الأفاويه الطيبة الذكية، وطيور الففاغى؛ يعنى الببغاوات والطواويس، وخرشات أرضه الزباد وظباء المسك، وما لا يحصى ولا يعد؛ لكثرة خيره"^(١). (ص ٩١)

(١) أبو زيد السيرافى ص ١٣٥ باريس ١٨١١م.

وقد رتب ابن خرداذبه قائمة بالبضائع والمحاصيل الهندية التى كانت تأتى إلى "العراق"، وشبه الجزيرة العربية، وذلك عام ٢٥٠هـ، أى بعد القرن الثامن الميلادى بقليل. كما يلى:

"ومن الهند الأعواد والصندلان والكافور والماكفور والجوزبوا والقرنفل والقاقله والكبابه، والنارجيل، والثياب المتخذة من الحشيش، والثياب القطنية المخملة، والفيلة، ومن سرنديب الياقوت، ألوانه كلها وأشباهه، والماس والدر والبلور، والسنبادج الذى يعالج به الجوهر، ومن ملو وسندان الفلفل، ومن كله الرصاص القلعي، ومن ناحية الجنوب البقم والدازي، ومن السند القسط والقنا والخيزران"^(١). (ص ٧٠ - ٧١).

وقد أثنى كل من المسعودى (٣٠٣هـ)، والبشارى (٧٣٠هـ) على نعال "كهمبايت" (كاتهيوار)، التى كانت تصنع فيها، وترسل إلى الخارج^(٢)، كما كانت منسوجات "تهانه" (مومباي) تحظى بشهرة واسعة، سواء أكانت هذه المنسوجات من إنتاج "تهانه" نفسها، أو تجلب من داخل البلاد، وهو ما أكده القزويني: "وينسب إلى تانه" تانشى، ومنه الثياب التانشيه"^(٣). (أبو الفدا، تقويم البلدان، طبعة باريس، ١٨٠٤م، ص ٣٠٩).

كتب مسعر بن المهلهل - الذى جاء إلى "الهند"، عام ٣٣١هـ، وطاف بجنوبها - يصف أحوال "كولم" (التى فى ترانكور بمدراس): "وتعمل بها غضائر"^(٤)، تباع فى بلادنا على أنها صيني، وليست كذلك، لأن طين الصين أصلب

(١) ابن خرداذبة - كتاب المسالك و الممالك - ص٧١ - لندن.

(٢) المسعودى - مروج الذهب - ص٣٥٣ - باريس، وأحسن التقاسيم - البشارى - لندن - ص٤٨٢.

(٣) أبو الفدا - تقويم البلدان - ص٣٠٩.

(٤) مفردا غضارة، ومعناها: الفخار ذو الرائحة الطيبة، ولكنها أطلقت فى الغالب على الأواني الصينية. انظر: معجم البلدان - ياقوت - الجزء الثامن - ص٣٤٨، لفظ هزادن.

من طين كولم، وأصبر على النار، (وغضائر كولم لونها أدكن، وغضائر الصين لونها الأبيض، وغيره من الألوان).

ويضيف القزويني: "بها منابت الساج المفرط الطول، ربما جاوز مائة ذراع وأكثر، وبها البقم والخيزران، والقنا بها كثير جداً، وبها الراوند، وهو قرع ينبت هناك، وورقة الساذج الهندي، العزيز الوجود، لأجل أدوية العين، ويحمل إليها أصناف العود والكافور واللبان...."^(١).

وكانت "الهند" تصدر نوعاً من السموم، أورده القزويني باسم "بيش"؛ وهو الصيغة المحرفة للكلمة الهندية "بس"، والتي تعني: السم^(٢). (آثار البلاد - ص ١٠٧).

حب الهال (الحبهان):

بقدر ما هو محبب إلى القلب، نجد النفس في شوق ولهفة إلى معرفة أصله اللغوي. والحقيقة أنه توجد منطقة بين "كارومندل" و"مليبار" تسمى "راس هيلي"، إليها يرجع "حب الهال"، ويعتقد أن أصله في السنسكريتية "ايل"، وفي الفارسية "هيل"، فاتخذ منها اسمه "راس هيلي"، ثم اشتق اللفظ "اي لائجي"، أو "الائجي" في الأردنية، من اللفظ السنسكريتي "ايل"، مثلما أطلق العرب على العود، الذي يخرج من "مندل" (كارومندل)، اسم مندل، وهذا نص عبارة القزويني: "مدينة بأرض الهند، يكثر فيها العود، حتى يقال للعود المندل...."^(٣). (آثار البلاد ص ١٢٤).

وقد كتب المسعودي، أواخر القرن العاشر الميلادي: "وهذه الجزائر تُعرف جميعها بالديبجات، ومنها يحمل أكثر الزانج، وهو النارجيل، وآخر هذه الجزائر

(١) القزويني - آثار البلدان - كوتجن - ١٨٤٨م - ص ٧٠.

(٢) القزويني - آثار البلدان - ص ٨٥.

(٣) ابن بطوطة - الرحلة - الجزء الثاني، و تقويم البلدان لأبي الفدا - ص ٣٥٤.

سرنديب.... وفيها ملوك ومعادن من ذهب كثيرة، ويحمل من هذه الجزائر خشب البقم، والخيزران، والذهب". (ج ١، ص ١٥٢)

ويصف ثروات جزر المهراج هكذا: "وقد حاز الملك أنواع الطيب والأفاويه، وليس لأحد من الملوك ما له، وما يُحمل من بلاده، ويجهز من أرضه من الكافور، والعود، والقرنفل، والصندل، والجوز، والبسباسة، والقافلة، والكبابة، وغير ذلك ما لم نذكره"^(١). (ص ١٥٤)

ويضيف سليمان التاجر: "وذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة، في زوارق منقورة في خشبة واحدة، ومعهم النارجيل، وقصب السكر والموز، وشراب النارجيل؛ وهو شراب أبيض... فيبيعون ذلك بالحديد"^(٢). (ص ٣٦)

وكتب ابن الفقيه الهمداني، عام ٣٣٠هـ، يقول:

"ولذلك خص الله - جل وعز - بلاد السند والهند بأنواع الطيب والجواهر، كاليواقيت والألماس، وغير ذلك من الحجارة الثمينة. والكركدن والفيل والطاوس والأعواد والعنبر، والقرنفل والسنبل، والخلخان والدارصيني والنارجيل والهيلج، والتوتيا والقنى والخيزران، والبقم والصندل والساج والفلفل، وعجائب كثيرة"^(٣). (ابن الفقيه الهمداني، كتاب البلدان، طبعة ليدن، ص ٢٥١).

الشهادة القديمة للمعجم العربي

هناك بعض الوسائل لمعرفة المنتجات الهندية التي كان العرب يجلبونها من شبه القارة الهندية؛ منها المعاجم العربية، التي تسهم إسهامًا كبيرًا في هذا الشأن. ومن المعروف أن السيوف الهندية كانت تحظى بشهرة واسعة في العالم العربي، فقد عرف العرب السيف الهندي، والهندواني، والمهند. وفيما يلي بعض الألفاظ

(١) المسعودي - مروج الذهب.

(٢) سليمان التاجر - ص ١٨.

(٣) ابن الفقيه الهمداني - كتاب البلدان - ص ٢٥١ (ليدن).

ذات الأصل الهندي، والتي تخبر بنفسها عن موطنها الأصلي، وجلها من التوابل والعطور والأدوية، وقد حاولنا أن نورد لها بصيغتها الهندية؛ حتى يكون ممكناً التعرف عليها الآن:

الاسم العربي	الهندي	الأردني	ملاحظات
صندل	جندن	صندل	
مسك	مشكا	مشك	
تنبول	تامبول	پان (تنبول)	
كافور	كبور	كافور	
قرنفل	كنك - بهل	لونگ	
فلفل	ببلي - ببلا	گول مرچ	ومنة اشتقت الكلمة الإنجليزية paper
فوفل	كوبل	سپاری - تلی	
زنجبيل	زرنجا بيرا	سون ته - - ادرك	
نيلوفر	نيلوبهل	نيلوفر	
هيل	ايل	ايلانچی - الاچی	

الأدوية:

الاسم العربي	الاسم الهندي	الاسم الأردني
جايفل	جائ - بهل	جائے بهل
الاطريفل	تری بهل	اطريفل
الشيخرة	شكه	توتيا
الببلبة (التبغ)	بيرا	بيڑا

الاهليج	هره	هليله
البلاد	بهلاتكه	بهلاده

أما العود الهندي، والغاب الهندي، والساذج الهندي، والقرطم الهندي، والتمر الهندي، فكلها أسماء لتوابل تحمل اسم موطنها الأصلي. وقد أطلق العرب على العود اسم "مندل"؛ لأنهم كانوا يجلبونه من (كارومندل)^(١). (ص ١٢٤)

الأقمشة والمنسوجات:

الاسم العربي	الاسم الهندي	الاسم الأردني
قرفس	كرباس	ململ
شيت	جهينت	_____
فوطه	بت منكي وال	رومال

الألوان:

الاسم العربي	الاسم الهندي	الاسم الأردني
نيلج	نيل	_____
قرمز	كرمج	_____

الفواكه:

الاسم العربي	الاسم الهندي	الاسم الأردني
الموز	موشه	كيلا
النارجيل	ناريل	_____
الانبج	آم	_____
الليمون	ليمو	_____

(١) القزويني - آثار البلاد - جوتجن - ١٨٤٨م - ص ٨٢.

ومنه اللفظ الإنجليزي ليمن lemon.

ولسان حال هذه الألفاظ يدل دلالة قاطعة على موطن نشأتها، وانتقالها إلى موضع آخر، فأخذت صبغة وشكلاً جديداً.

ألفاظ هندية في القرآن الكريم

ما زالت مسألة اشتغال القرآن الكريم على ألفاظ أعجمية، أو (الدخيل)، مثار جدل كبير بين العلماء. ولكنهم أقرّوا اشتغال القرآن الكريم على بعض أنواع الدخيل من الألفاظ الأعجمية، التي كانت متداولة على ألسنة العرب، فأخذت صبغة عربية. وقد قام الحافظ بن حجر العسقلاني، والحافظ السيوطي، بإحصاء هذه الألفاظ القرآنية. وإنه لمن دواعي فخرا - نحن معشر الهنود - أن حالف الحظ بعض ألفاظنا، فتبوأ مكاناً في هذا الكتاب العظيم.

وليس لتلك الألفاظ - التي رأى أوائل العلماء أنها هندية - أي أساس من الصحة. ومن ذلك قولهم في أصل لفظ "ابلعى": إنه يقابل اللفظ الهندي "پينا" (الشرب)، وزعمهم أن لفظ "طوبى" هندي الأصل، حسبما ورد في رواية سعيد بن جبيرة^(١)، فهو غير صحيح أيضاً. ولكن مما لا شك فيه، أنه ورد في وصف الجنة ثلاثة ألفاظ من روائع وأفاديه هذا البلد الشبيه بالجنة، ألا وهي: المسك(*) الزنجبيل(**)، والكافور(***)^(٢).

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، نوع ٣٨.

(٢) (*) المسك: " وختامه مسك وفي ذلك قليتا فاس المتنافسون " (المطففين: ٢٦).

(**) الزنجبيل: " ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً " (الإنسان: ١٧).

(***) الكافور: " إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً " (الإنسان: ٥).

التجارة العربية الهندية

يتعين علينا أن نضع نصب أعيننا التحقيقات اللغوية للبيانات، والألفاظ السابق ذكرها، وأن ننعم النظر في إشارات التوراة المختلفة حول تلك الألفاظ: "وأن التجار العرب، الذين كانوا يفدون "مصر"، قبل ميلاد المسيح بألفى عام، كانت بضائعهم: البلسان، الصنوبر، والأنواع العطرية الأخرى"^(١).

"وكانت الهدايا التي أحضرتها ملكة "اليمن" (سبأ) لسيدنا سليمان - عليه السلام - عام ٩٥٠ ق.م، من العطور، وسبائك كثيرة من الذهب، والدرر الثمينة"^(٢).

وكان العرب أيضًا يحملون الفولاذ والبقول والتوابل، من "اليمن" إلى بلاد الشام، في عهد النبي حزقيال، سنة ٥٢٨ ق.م . يقول النبي حزقيال: "يأتون من "اليمن"؛ لبيع المصقولات، والفولاذ، والبقول، والتوابل، في سوق تبرا"^(٣). (العهد القديم - سفر الإصحاح - حزقيال - لندن - ١٩٦٥ - ١٩٦٦م).

ومن المعروف أن اللبان (نوع من البخور يفرز صمغاً، يوضع على النار؛ فيعطى رائحة طيبة) ومختلف أنواع النباتات العطرية، كانت تنبت في "اليمن". أما الفولاذ المصقول (السيف)، والبقول والتوابل، فموطنها حتى اليوم "الهند". ومن هنا، يتضح جلياً أن تاريخ العلاقات التجارية العربية الهندية ممتد منذ آلاف السنين قبل الميلاد.

منتجات الهند في عيون الرحالة العرب

يعتبر "جوز الهند" من أهم الثمار الهندية، التي استرعت نظر الرحالة العرب، وفي القرن التاسع الميلادي، كتب عنها أبو زيد، يقول:

(١) الميلاد - ٣٧ : ٢٦.

(٢) درم أيام - ٩ : ٩.

(٣) حزقيال - ٢٧ : ١٩. (العهد القديم - سفر الإصحاح - حزقيال - لندن - ١٩٦٦م).

"وبعمان من يقصد هذه الجزائر التي فيها النارجيل، ومعهم آلات التجارة وغيرها. فيقطعون من خشب النارجيل ما أرادوا، فإذا جف قطعوه ألواحًا، ويفتلون من ليف النارجيل ما يخرزون به ذلك الخشب، ويستعملون منه مراكب، وينحتون منه الدواقل، وينسجون من خوصه شراعًا، ومن ليفه خرابات، وهي القلوس عندنا، فإذا فرغوا من جميعه، شحلت المراكب بالنارجيل، قاصدة "عمان"، فيباع، وتعظم بركته ومنفعته" (١). ص ٨٨

ونراهم يتحدثون عن الليمون والمانجو في دهشة بالغة، فيقول ابن حوقل (٣٥٠هـ)، في معرض حديثه عن السند:

"وبأرضهم ثمرة على قدر التفاح، تسمى الليمونة، حامضة، شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ، يسمونها الانبج (هي المانجو)، تقارب طعم الخوخ، وأسعارهم رخيصة" (٢). ص ٣٢٠

هلموا يا عشاق المانجو الهندية؛ لتعرفوا عشق العرب لها.

كتب المسعودي: "إن النارج والليمون من الثمار الهندية الخاصة، والتي اجتلبت من "الهند" إلى البلاد العربية، في القرن الثالث الهجري، فوصلت أولاً عمان، ومنها إلى "العراق" و"سوريا"، وما لبثت أن انتشرت في ربوع "مصر"، وسواحل الشام". غير أن المسعودي يضيف قائلاً: "إن مذاقها ليس هندياً" (٣).

وقد حدث ابن حوقل، عام ٣٥٠هـ، عن أحوال تجارة "السند" و"كشمير" ومنتجاتها، فقال:

(١) أبو زيد - ص ١٣١.

(٢) ابن حوقل - ص ٢٢٨.

(٣) مروج الذهب - الجزء الثاني - ص ٤٣٨ - أوربا.

- "تتوفر في المنصورة"، التي كانت قديمًا تسمى "برهمن آباد"، ثمرة على قدر التفاح، تسمى الليمونة، حامضة شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ، يسمونها الإنبج، تقارب طعم الخوخ... وأسعارهم رخيصة". ص ٣٢٠.
- "آلور، وتقارب "الملتان" في الكبر، وعليها سوران، وهي على شط نهر مهران (نهر السند)، وهي من حد المنصورة، خصبة رفة، كثيرة التجارة" ابن حوقل - ص ٣٢٢.
- تقع مدينة "ديبل" شرقي نهر مهران على البحر، وهي متجر عظيم، وتجارها من وجوه كثيرة، وهي فرضة (ميناء) هذه البلاد وغيرها، وزروعهم مباخس.... وهو بلد قشف، وإنما مقامهم للتجارة. ابن حوقل ص ٣٢٣.
- "قامهل": مدينة من أول حد الهند إلى صيمور، ومن صيمور إلى قامهل فمن بلد الهند، ومن قامهل إلى مكران فللبدهة، وما وراء ذلك إلى حد الملطان، فجميعه من بلد السند، والكفار من بلد السند هم البدهة، وقوم يعرفون بالميز... وهم أهل الإبل، والجما الفالج (ذات السنامين)، الذي يرغب فيه أهل خراسان، وغيرهم. ابن حوقل - ص ٣٢٣.
- "قندابيل": وهي مدينة البدهة (البوذيين) التي يتجرون إليها، ويقصدونها بحوائجهم... والبدهة، كالبادية من البربر، لهم أخصاص وآجام يأوون إليها. ابن حوقل، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.
- وبصيمور (جيسور)، وكنباية (كهنايت، الكجرات، وكاتهاوار)، مساجد وجوامع... والغالب على زروعهم الأرز، ولهم العسل الكثير، ولا نخيل لهم. ابن حوقل - ص ٣٢٤.
- "كلوان": لها مباخس كثيرة، وزروع واسعة، وقرى غزيرة، قليلة الثمر، كثيرة المواشي. ابن حوقل - ص ٣٢٤.

- "كيزكانان": (عاصمة قصدار)، وهى ناحية خصبة، واسعة، رخيصة الأسعار، وبها أعناب ورمّان وفواكه الصرود، وليس بها نخيل. ابن حوقل، ص ٣٢٤.

- الفنجبور (قنجبور): أكبر مدن "مكران"، بها فانيذ كثير، ونخيل وقصب سكر، وعامة الفانيذ الذى يحمل إلى الأفاق منها، إلا شيئاً يحمل من ناحية "ماسكان". ابن حوقل، ص ٣٢٥.

- "قندابيل": مدينة كبيرة، وليس بها نخل.... ولهم غلات، وزروع، وكروم ومواشٍ واسعة، وخصب. ابن حوقل - ص ٣٢٦.

ثم يأتى تقرير البشارى المقدسى (٣٧٥هـ)، وكان تقريره مفصلاً، حيث أوضح فيه أحوال كل مدينة على حدة:

- و"يهند": هى مدينة أكبر من المنصورة، تتميز برخص أسعارها، ونظافتها العالية، وفواكهها الجيدة، وأشجارها الكبيرة، إن ثمن الثلاث منات (المن فى العربية قليل جداً) من العسل بدرهم واحد فقط، ولا تتخيل رخص أسعار الخبز واللبن، وتكثر فيها أشجار اللوز والجوز.

- "قنوج": (بالقرب من الملتان) مدينه كبيرة، بها سور. اللحوم فيها رخيصة للغاية، وتزخر بالبساتين، أسواقها مربحة، الموز بها رخيص جداً. وتقل فيها الحنطة، والأرز هو غذائها الرئيسى.

- "الملتان": تعادل "المنصورة" فى مساحتها، وفواكهها لا تزيد عن "المنصورة"، غير أن أسعارها أقل انخفاضاً من "المنصورة"؛ فالثلاثون مناً من الخبز بدرهم واحد، والثلاثة أمناء من الفانيذ بدرهم واحد أيضاً. ويقول تجارها الصدق، وحال التجارة بها جيد للغاية.

تصدر حلوى الفانيذ من "طوران"، والأرز والأقمشة من "سندان". هذا وتصنع أجود أنواع السجاجيد فى كل أرجاء "السند"، فضلاً عن الأقمشة الخفيفة

وجوز الهند؛ كما تصدر إلى الخارج نعال "كهنبايت" من "المنصورة"، والفيلة، والعاج، والأشياء الثمينة، والأدوية الجيدة، من "السند". وأكثر محاصيلها تميزاً: الليمون والمانجو، وهما لذيذان للغاية.

والجمال البلخية، في كل من "فارس" والشرق، كانت تؤخذ من نسل الجمال السندية، التي كانت تعرف بالفالج، ولها سنامان، وأسعارها غالية؛ لدرجة أنها تصدر إلى الدول الأخرى كمطية للملوك فقط، وهكذا كان لنعال "كهنبايت" نفس القدر والقيمة^(١). (البشارى - ص ٤٨٣).

وقد أثنى المسعودى على الطاووس الهندى، وكتب عنه يقول: "ومع أنه جلب من "الهند" إلى "العراق" وغيرها، وأخذ منه سلاطات، إلا أنها لا تضارع الطاووس الهندى، فى الشكل والقوام واللون"^(٢).

وتحظى أقمشة "الهند" الرقيقة بالقبول والثناء منذ القدم، ويدل ما ورد من تقارير أن "الهند" كانت تنتج أقمشة بالغة الرقة. ومما يذكر أن الأقمشة التي كانوا يلبسونها الموميאות المصرية صناعة هندية.

وعلى أية حال، فإن هذا القول يعتمد على القياس فقط. بيد أن أحد الرحالة العرب، فى القرن الثامن الميلادى، قد كتب عن إحدى المناطق الهندية، فقال:

"وفى بلاده الثياب التى لا مثيل لها، يدخل الثوب منها فى حلقة خاتم، دقة وحسناً، وهو من قطن، وقد رأينا بعضها"^(٣)، "وفى بلاده البشان، وهو الكركدن، له فى مقدمة جبهته قرن واحد... وهو فى سائر بلاد "الهند"، فربما كان فى القرن

(١) البشارى المقدسى - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - ص ٤٧٤ - ٤٨٢ - لندن.

(٢) مروج الذهب - الجزء الثانى - ص ٤٣٨ - ليدن.

(٣) رحلة سليمان التاجر - ص ٣٠ - باريس.

صورة رجل... وسائر الصور. وأهل "الصين" يتخذون منها المناطق (الأحزمة)، وتبلغ المنطقة ببلاد "الصين" ألفى دينار، وثلاثة آلاف، وأكثر^(١). ص ٣٤

و"كان التجار العرب يحملون من "الهند" نوعًا من الحيوانات، يستخلص من عرقه روائح طيبة، ويذهبون به إلى "المغرب"^(٢)، وكان الملح الأسود يصدر من "الهند" إلى الخارج"^(٣).

وممن فصل القول من العرب عن التنبول، المسعودي، قبل ما يقرب من تسعة قرون، فكتب يقول: "التنبول نوع من الأوراق ينبت في "الهند"، فيخلط بنوعين من الأعشاب حين يؤكل، ويحمر الأسنان مثل حبوب الرمان، ويعطر الفم، ويدخل البهجة في القلب، وأهل "الهند" لا يحبون ذوى الأسنان البيضاء، ممن لا يأكلون اللبن".

على كل حال، كان الحديث عن اللبن ضمنيًا؛ حيث لم يكن من الممكن أن يصل مثل هذا الشيء الرقيق سليمًا إلى العرب في ذلك الزمن، ولكن كان السكر النبات يصل بانتظام، فيقول المسعودي، عام ٣٠٥هـ: "في عصرنا هذا بدأ اليمنيون، والحجازيون، والمكيون، يتناولون بكثرة الدلمى"^(٤).

أما اليوم، فأخذ التنبول يصل إلى "عدن" طازجًا وجافًا بكميات وفيرة، إلى "مكة"، وذلك بسبب تأثير العرب بثقافة "الهند"، وظلت البلاد العربية تجلب القات من "الهند"، منذ ذلك الحين.

(١) رحلة سليمان التاجر - ص ٣٠ - باريس.

(٢) أبو حامد الغرناطي - تحفة الأحباب - ص ٤٩ - باريس.

(٣) الخوارزمي - مفاتيح العلوم - ص ٣٥٥ - لندن. (لم ينكر الخوارزمي أن الملح الهندي كان يصدر إلى الخارج، وعبارته: "ومنه الهندي، وهو أسود" ص ٢٥٩ - تحقيق: فان فلوتين - الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤).

(٤) مروج الذهب - الجزء الثاني - ص ٨٤ - باريس.

وقد عرف العرب عود راس كمارى (أى منطقة راس كمارى)^(١)، واشتهر العود باسم العود القماري، وكان المسك يأتى من التبت^(٢). والماس يجلب من نواحى قشمير (كشمير)^(٣). (بزرک - عجائب الهند - ص ١٢١).

واردات الهند البحرية

على كل حال، كانت "الهند" تصدر هذه الأشياء جميعها، ولكن ماذا كانت تستورد من العرب؟ كان أهل الجزر يأخذون حاجياتهم الضرورية، مثل الأقمشة: "وفيهما خلق كثير عراة، الرجال منهم والنساء... فإذا مرت بهم المراكب، جاؤوا إليها بالقوارب الصغار والكبار، وبائعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد، وما يحتاجون إليه من كسوة" (سليمان التاجر - ص ٣٢)، وقد ورد أن أهالى بعض الجزر كانوا عرايا، لا يشترون الملابس، وإنما يشترون الحديد^(٤).

وفى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، كان ثمة إقبال شديد على عملة "السند" الذهبية؛ إذ كان الدينار السندى بثلاثة دنانير هندية. "ويحمل إليهم الزمرد الذى يرد من مصر، مركبًا فى الخواتم، مصونًا فى الحقائق، ويحمل البسذ؛ وهو المرجان، وحجر يقال له: الدهنج"^(٥) (أبو زيد السيرافى ص ٩٤). "إقبالاً منقطع النظير. ويستعملون المزهر؛ نبيذ أهل مصر"^(٦) (ابن حوقل ص ٣٢٤)^(٧)،

(١) سليمان التاجر - الرحلة - ص ٩٣، ص ١٣٠.

(٢) السابق، ص ١١١.

(٣) بزرک - عجائب الهند - ص ١٢٨ - باريس.

(٤) سليمان التاجر - الرحلة - ص ٩.

(٥) سليمان التاجر - الرحلة - ص ١٤٥.

(٦) ابن حوقل - ص ١٥٣ (كيف كان العرب يستوردون الأقمشة والسيوف من الهند؟ والهند تستوردها من بلاد الروم؟ هذا الكلام لا يوجد عند ابن حوقل).

(٧) ابن حوقل - ص ٢٣١.

"والأقمشة الحريرية والفراء والجلود والسيوف من بلاد الروم"^(١). وما يجلب من فارس إلى سائر الأرض، وهو أفضل أجناسه في سائر البلدان فماء الورد^(٢) ابن حوقل ص ٢٩٩. ويجلب إليها التمر من "البصرة" عبر ميناء "ديبل" السند^(٣). أما الخيول فكانت تجلب إليه من البلاد^(٤) العربية في "كارومندل".

أكان الهنود ملاحين؟

فيما يتعلق بتجارة الهند البرية أو البحرية، لم يرد أى ذكر للهنود؛ فلم يعرف هندوكى واحد بين ركاب البحار، وملاحى السفن. وتخلو كتب الجغرافيا والتاريخ، وكتب الرحلات اليونانية والعربية، من ذكر أسماء هندية، وأعلام تجارة الملاحة الهندية، إما يونانية أو رومية أو عربية. وقد وردت أسماء عربية في رحلات ماركوبولو. وبناءً عليه، يعتقد "الفنستون" وغيره أن الهندوك لم يجسروا على ركوب البحار، وعبروا المحيطات؛ فاكتفوا بركوب مراكبهم، وزوارقهم الصغيرة، في مياه نهر "السند" والجنجا، والتحرك من ميناء إلى ميناء، بمحاذاة الساحل.

وحين قدم الإسكندر إلى "الهند"، لم يعثر اليونانيون على أى سفن في نهر السند، أو أى نواخده (ملاح)، وإنما وجدوا بعض الصيادين على متن قواربهم، وزوارقهم الصغيرة. ومما لا شك فيه أن أهل "كارومندل"، هم وحدهم، الذين ركبوا البحر، ومكنتهم جسارتهم من الإبحار إلى جزر "جاوه"^(٥).

لكنى أخالف هؤلاء الرأى، وأعتقد أنه حكم لا يعم الهندوك جميعاً، وينبغى استثناء الكجراتيين والسنديين، على الأقل. ويدعم هذا الرأى ما ورد فى منوجى

(١) ابن حوقل ص ١٥٣ (كيف كان العرب يستوردون الأقمشة والسيوف من الهند؟ والهند تستوردها من بلاد الروم؟ هذا الكلام لا يوجد عند ابن حوقل).

(٢) ابن حوقل - ص ٢١٣.

(٣) أبو الفدا - تقويم البلدان - ص ٣٤٩.

(٤) أبو الفدا - تقويم البلدان - ص ٣٥٥.

(٥) الفنستون - تاريخ الهند (الباب العاشر) - التجارة.

(أحد الكتب الهندوكية القديمة) من أن بعض الهندوك أنثذ كانوا على دراية بالسفر عبر المحيط.

واليكم هذه الفقرة^(١). "إن من يراع في رحلته البحرية أموراً أربعة: الصحة - البلد - الوقت - الهدف، ينل ما يبغي" (الفقرة: ٨ ، ١٥).

ويذكر المؤرخ اليوناني، آرين ARRIAN، أن الإسكندر الأكبر كان يقوم بإعداد سفنه بنفسه في الهند. ولكنه يضيف قائلاً:

"ومن أبناء الطبقة الهندوكية الرابعة من يصنع السفن ويقودها، كما أن منهم الملاحين الذين يجوبون البحار"^(٢).

ويتضح من أحد بيانات اليونانيين، في إحدى جزر البحر الأحمر، (ربما جزيرة سقطرى)، أنه كان ثمة عداوة بين سكانها، من الهندوك والعرب واليونان.

ومما لا يدع مجالاً للشك أن جزر "ملديف"، و"سريلانكا"، و"جاوه"، وسائر الجزر الأخرى المجاورة، كانت تضم عدداً لا بأس به من السكان الهندوك، تفصح عن هويتهم، عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم؛ ولهذا السبب أيقن التجار والرحالة العرب أن هذه الجزر جزء لا يتجزأ من "الهند"، وأخبروا عنها وفق هذا الفهم. وكتب أبو زيد - أحد الرحالة العرب، في القرن التاسع الميلادي - يقول: "قد فتح ملك "جاوه" راس كماري" أيضاً"^(٣).

ومن الجدير بالذكر أن العرب كانوا يلقبون ملوك "جاوه" بالمهراجا، وأطلقوا على هذه الجزر مملكة المهراجا. وفوق هذا، فإن أبا زيد السيرافي (القرن التاسع الميلادي) يقول عن أهل الهند:

(١) منوشاستر - الترجمة الأردنية [لا له سوامي دبال نولكشور].

(٢) الفنستون - الجزء الأول - ص ١٨٢.

(٣) أبو زيد - ص ٩٧.

"ومنهم صنف لا يأكل اثنان منهم فى غضار واحد، ولا يجلسان على مائدة واحدة، فعندهم ذلك عيب فاحش. فإذا حلوا "سيراف"، ودعاهم وجه من وجوه التجار، وكانوا مائة نفس، أو دونها، أو فوقها، فإنه يضع بين يدي كل رجل منهم طبقاً فيه ما يأكله، لا يشاركه فيه سواه"^(١). (ص ٩٤)

ومما سبق يتضح جلياً أن الهنود كانوا يفدون على موانئ "العراق" بأعداد وفيرة، فى العهد العربى على الأقل. وقد ذكر العرب أن الهندوك كانوا على سفر دائم، عبر النهر، من "كشمير" السفلى (البنجاب) إلى السند^(٢). (ص ٧٤)

ومن الحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، ما رواه بزرگ بن شهریار، الناخدا (الملاح)، فى كتابه (عجائب الهند)، وإطلاقه اسم "البانية" على التجار الهندوك، مثل بقية ملاحى السفن الآخرين. (ص ٧٨)

وفى أحد المواضع، استخدم لفظين مختلفين، أى: البانية والتاجر^(٣)؛ ويقصد بالأول: التاجر الهندوكى، وبالثانى: التاجر العربى. ومازال العرب، حتى اليوم، يطلقون لقب "بانية" على التاجر الهندوكى، وجمعه "البانانية". ومازالت تجارتهم أيضاً مستمرة حتى اليوم، فى كل من "العراق" و"البحرين" و"عمان" و"السودان"، و"بورسعيد"، و"القاهرة"، وقد التقيت بأولئك "البانانية" أثناء رحلتى إلى "الحجاز" و"مصر". وهم يتحدثون اللغة العربية (اللهجات العربية) الشائعة ببراعة فائقة، مما جعل علماءنا يملكهم العجب والدهشة، حين يسمعون حديثهم، وأغلب هؤلاء من "السند" و"الملتان" و"الكجرات". والله وحده يعلم متى شرع هؤلاء على هذه البلاد. وهكذا، فقد ظهر الهندوك على متن السفن العربية، عام ٣٠٠هـ، بالقرب من "عدن"^(٤). (ص ١٣٩)

(١) أبو زيد - ص ١٤٦.

(٢) عجائب الهند - ص ١٠٤.

(٣) عجائب الهند - ص ١٦٥.

(٤) عجائب الهند - ص ١٤٧.

سفن المحيط الهندي

فرق بين السفن التي تبحر في المحيط الهندي، وتلك التي تبحر في البحر الأبيض، إذ كانت ألواح سفن البحر الأبيض مثبتة بمسامير من الحديد، بينما كانت سفن المحيط الهندي، تشدها الحبال^(١).

ومن السفن ما هو كبير الحجم، مكون من طابقين، ذوات غرف منفصلة، ناهينا عن الزاد ومزاوده، ومكان خاص لأمتعة المسافرين وبضائعهم، ويبلغ طاقم المركب، من ملاحين وحفظة، ألف شخص^(٢).

ويروى لنا بزرك بن شهریار ناخدا، عام ٣٠٦ هـ، هذه القصة: "خرجت في مركب من "سيراف"، سنة ست وثلاثمائة، نقصد "صيمور"، وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد، ومركب سباء، وكان حجم هذه المراكب الثلاثة كبيراً جداً، ومن المراكب ما ذاع صيته في البحار، لما بها من نواخده ذوى قدر ومنزلة طبقت الآفاق. ومن المراكب ما يسع مائتي رجل وألف، من التجار والنواخده^(٣) و"البانية"^(٤). وغيرهم من صنوف الناس، وفيها من الأموال والأمتعة مالا يعرف مقداره؛ لكثرتة. فلما سرنا أحد عشر يوماً، رأينا آثار الجبال، ولوائح أرض سندان، وتانه (ممباي)، وصيمور^(٥). ص ١٩٦

نستنتج من ذلك أن حجم تلك السفن كان عظيماً، بحيث يسمح لها أن تبحر بتلك البضائع والأمتعة والحراس والملاحين، وعلى متنها أربعمئة راكب آخر. وكانت السفن المتجهة إلى "الصين" ضخمة جداً، ويخدم في المركب منها ألف

(١) سليمان التاجر - الرحلة - ص ٨٨.

(٢) ابن بطوطة - الرحلة - الجزء الثاني - رحلة الصين.

(٣) ناخذه أو نوخذ؛ وجمعها نواخذه، وتعلي: سيد المركب أو صاحبها، وتطلق مجازاً على الربان.

(٤) باناني أو البنيان، وجمعها بنالية، وهي كلمة هندية معناها: تاجر، وشاع استخدامها في العربية أيضاً بمعنى: ملاح صغير.

(٥) عجائب الهند - ص ١٤٧ - ١٦٥.

رجل، منهم البحرية ستمائة، ومنهم أربعمائة من المقاتلة، تكون فيهم الرماة... ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة^(١). (ابن بطوطة، الرحلة، دار بيروت، ١٩٨٠م، ص ٥٦٥).

ثروة التجارة البحرية

يمكننا معرفة مدى أهمية التجارة، في المحيط الهندي، وما كانت تدره على "الهند" والبلاد العربية، من خلال بعض الوقائع التالية: كانت "مهانجر"، عاصمة الملك ولبهر راء، تسمى "مدينة الذهب"، وكان صاحب كتاب عجائب الهند قد دخل الزايچ (جزيرة جاوه)، قسبة المهراج، وقال: "رأيت في البلد الذي فيه مهراجا، الملك بالزايچ، من الأسواق العظيمة، ما لا يحصى، وعددت في سوق الصيارف بهذا البلد ثمانمائة صيرفي، سوى ما في البلد من الصيارف المتفرقين في الأسواق"^(٢). (ص ١٤٦)

ويضيف: "إنه كان بعمان رجل يقال له مسلم بن بشر... وكان ممن يجهز الغواصة في طلب اللؤلؤ... حصل بيده درتان، إحداهما اليتيمة، والأخرى دونها بكثير، فحملهما إلى الرشيد، وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم، والصغرى بثلاثين ألف درهم"^(٣). (ص ١٧٧).

ومن طريف أخبار تجار البحر... ما حدث عن إسحاق بن اليهودي، وكان رجلاً يتصرف مع الدلالين بعمان، فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فهرب من عمان إلى بلاد الهند، ومعه نحو مائتي دينار، لم يكن يملك سواها.

وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة، لا يعرف له خبر، فلما كان في سنة ثلاثمائة ورد عمان، فحدثني غير واحد من إخواننا البحريين، أنه ورد عمان من

(١) رحلة ابن بطوطة - الجزء الثاني - (وصف كالي كت).

(٢) عجائب الهند - ص ١٣٧.

(٣) عجائب الهند - ص ١٣٦.

الصين في مركب لنفسه، وجميع ما فيه له، وأنه قاطع أحمد بن هلال (صاحب عمان) عن المركب؛ لئلا يحصى ما فيه، ويعشر عليه ألف ألف درهم ونيف، وأنه باع على أحمد بن مروان، دفعة واحدة، مائة ألف مثقال من المسك الفائق^(١). (ص ١٤٦).

وحكى أن رجلاً خرج من "عمان"، لا يملك شروى فقير، ثم عاد ومعه مركب محمل بالمسك، قيمته ألف دينار^(٢).

ومن ناحية أخرى، كان التجار العرب يدرون على ملوك السواحل الهندية ربخاً وفيراً؛ ولذا كانوا يحتفون بهم احتفاءً كبيراً^(٣). (ياقوت ص ٤٢٢).

وقد كتب ابن بطوطة، في مواضع مختلفة، إبان رحلته في سواحل الجنوب الهندي، أن سبب إحسان ذلك الملك الهندوكي للملاحين العرب، وعدم الإساءة إليهم، اعتماد دخل دولته، في المقام الأول، على توافدهم. وقد توفرت ثروة لا تحصى لملك "كالي كتا" و"كارومندل"، بفضل هذه التجارة البحرية، ويذكر أن أحد عمال ملك "كارومندل" من المسلمين، قد حمل سبعة آلاف ثور بالذهب والمجوهرات؛ كان قد حصل عليها، إثر وفاة ملك "كارومندل"^(٤).

وحين فتح كافور، أحد قواد علاء الدين الخلجي، "كارومندل"، عثر على ستة وتسعين ألفاً من الذهب^(٥)، وخمسمائة من اللؤلؤ^(٦)، في خزانة الدولة، ناهيناً عن

(١) عجائب الهند - ص ١٠٠ - ١٠٨.

(٢) ياقوت - معجم البلدان - لفظ "قيس".

(٣) السابق - لفظ "قيس".

(٤) جامع التواريخ، نقلاً عن تاريخ اليت - الجزء الأول - ص ٦٩ - ٧٠. وتاريخ وصاف، نقلاً عن اليت - ج ٢ - ص ٣٢، ٥٣.

(٥) تاريخ ضياء برنى - مطبعة كالكتا - ص ٣٣٣.

(٦) أمير خسرو - خزائن الفتوح - طبعة على جره - ص ١٧٨.

المجوهرات واللائي. وإن غضبنا الطرف عن هذه المجوهرات، وغيرها،
أيستهان بستة وتسعين ألف من الذهب؟

وكان المن في عهد علاء الدين يعادل ثلاث عشرة، أو أربع عشرة أوقية؛
أي: ما يعادل ثمانية وعشرين رطلاً، بالحساب الإنجليزي. ومن ثم، فإن وزن هذا
الذهب فقط كان يبلغ مائتي مليون وستمائة وثمانين ألف رطل. وكان جل تجارة
"كارومندل" يرد سواحل العرب و"العراق" و"إيران"، وسنذكر ذلك بالتفصيل فيما
بعد.

العرب واكتشاف طريق آخر إلى الهند:

مر بنا، كيف أن بحارة "البرتغال" قد تركوا البحر الأبيض، واكتشفوا طريقاً
آخر للهند حول أفريقيا. ويعتقد أن الفضل في هذا الاكتشاف يرجع إلى هؤلاء
البحارة، وسوف تعتريك الدهشة حين تعلم أن شرف هذا الاكتشاف يعود إلى التجار
العرب الذين سبقوهم بمئات السنين؛ والذين كانوا يبحرون بسفائنهم في المحيط
الهندي. وقد عرفنا أيضاً الفرق في تصميم السفن بين المحيط الهندي، والبحر
الأبيض، فقد كان الفارق كبيراً؛ إذ إن ألواح سفن البحر الأبيض كانت تثبت
بمسامير من الحديد، على حين تشد ألواح سفن المحيط الهندي بالحبال المتينة،
المفتولة من لحاء النخيل وجوز الهند.

وقد كتب سليمان التاجر، الذي كان موجوداً عام ٢٣٧هـ، وذكر في عدة
مواضع من رحلته ما يلي:

"ومما حدث في زماننا، ولم يعرفه من تقدمنا، أنه لم يكن أحد يقدر أن البحر
الذي عليه بحر الصين يتصل ببحر الشام، ولا يقوم في أنفسهم، حتى كان في
عصرنا هذا، فإنه بلغنا أنه وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخروزة،
التي قد تكسرت بأهلها، فقطعها الموج، وساقطها الرياح بأمواج البحر، فقذفته إلى
بحر الخزر، ثم جرى في خليج الروم، ونفذ منه إلى بحر الروم والشام. فدل هذا

على أن البحر يدور على بلاد الصين والسيلا... ثم يصب في الخليج، ويفضى إلى بلاد الشام، وذلك أن الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة^(١). (أبو زيد - ص ٧٠)

من عرف (أوصل) فاسكو دي جاما الهند

مما لا ريب فيه أن ملاحى "البرتغال"، كانوا يدورون حول أفريقيا؛ ليصلوا إلى المحيط الهندي، وما كانوا على معرفة أو دراية بالهند قط، وهو ما يشهد به البرتغاليون أنفسهم.

بيد أن العرب - لسوء الحظ - يرددون أن بحاراً، يدعى ابن ماجد، قد حمله البرتغاليون معهم، وهو الذى قادهم إلى "الهند". ولقب ابن ماجد هذا (أسد البحار)، وألف كتباً عربية عدة فى فن الملاحة بالمحيط الهندي، وهذه الكتب موجودة فى مكتبة باريس.

ومنذ عدة سنوات، أصدر ناشر الكتب الشرقية (بال كاتهر) بـ "باريس" هذه الكتب، ونشرها فى مجلدين، وقد حوى المجلد الثالث فن الملاحة وأدواتها عند العرب، ومن بين ما حواه إشارة إلى كتاب "البرق اليماني فى الفتح العثماني"، الذى يتعرض لتاريخ اليمن، إبان تلك الفترة. ومما ورد فيه، أن ابن ماجد، أو أسد البحار، قد وقع فى شرك البرتغاليين الثعالبية (الخبثاء)، أثناء بحثهم المضنى عن "الهند"، وهو فى حالة سكر شديد، وفى هذه الرواية تفاصيل عديدة عن جهد ابن ماجد فى وصول البرتغاليين.

أوروبا والفلل الهندى الأسود

من المعروف أن تجار الشرق الأوائل من الأوربيين، قد بدأ توافدهم على "الهند" فى القرن السابع عشر الميلادى، وكان لهم شغف كبير بالفلل الأسود،

(١) سليمان التاجر - الرحلة - ص ٨٨.

فكانوا يحملونه معهم. وفي القرن الثالث عشر الميلادي، ذكر أحد الجغرافيين العرب، وهو زكريا القزويني (٦٨٦هـ-)، أحوال "مليبار"، معتمداً في ذلك على ما كتبه أسلافه، فيقول: "ويحمل الفلفل من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وأكثر الناس انتفاعاً به الفرنج، يحملونه في بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) إلى أقصى الغرب" (١). (آثار البلاد - ص ١٢٣)

وعلى الأرجح أن الأتراك عندما سيطروا على البحر الأبيض، بعد فتح القسطنطينية؛ قد حرموهم من طعم هذا الفلفل الأسود. وفي النهاية، خاطروا بأنفسهم من أجله، وملكوا طريقاً بحرياً آخر إلى "الهند"، حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى هذا الشيء الثمين، بأي صورة كانت.

نشيد وطني لأحد العرب الهنود

ونتهي حديثنا هنا بقصيدة عربية، نظمها هندي عربي عاشق لوطنه، وهي في محاسن "الهند" ومنتجاتها، يقض رأى شاعر آخر (٢). ص ١٢٤

وشاعرنا هو أبو الضلع السندي، الذي عاش قبل عام ٦٨٦هـ. ولا غرو في أن يكون هذا في القرن الثالث، أو الرابع الهجري؛ إذ هو عصر زوال العهد العربي بالسند:

لقد أنكر أصحابي، وما ذلك بالأمثل - إذا ما مدح الهند، وسهم الهند في المقتل.

لعمري إنها أرض، إذا القطر بها ينزل - يصير الدر والياقوت، والدر لمن يعطل.

(١) القزويني - آثار البلاد - ج ٣ - جوتجن - ص ٨٢.

(٢) القزويني - آثار البلاد - ص ٨٥.

فمنها المسك والكافور والعنبر والمندل - وأصناف من الطيب؛ ليستعمل من يتغل.

وأنواع الأفوية، وجوز الطيب والسنبل - ومنها العاج والساج، ومنها العود والصندل.

وأن التوتيا (اسم جبل) فيها كمثل الجبل الأطول - ومنها الببر والنمر، ومنها الفيل والدغفل.

ومنها الكرك والبيغاء والطاووس والجوزل - ومنها شجر الرانج، والساسم والفلفل.

سيوف مالها قد استغنت عن الصيقل - والرماح إذا اهتزت اهتز بها الجحفل
فهل ينكر هذا الفضل إلا الرجل الأخطل؟

الباب الثالث

العلاقات العلمية

المصادر:

إن تبيان العلاقات العلمية بين العرب والهند ليتضح لنا من كتب السند العربية القديمة، ألا وهي:

١ - الجاحظ:

الفيلسوف المتحدث، توفي عام ٢٥٥هـ، وليد سكان البصرة، ومن أئمة كتاب النثر في اللغة العربية، له مؤلفات كثيرة، بين كتب ورسائل، منها: كتاب (البيان والتبيين)، كتاب (الحيوان)، (الرسائل) التي تحتوى على مناظرات علمية، وجميعها مطبوع. كما نشر كتاب (التاج) في مصر حديثاً. وفي كتابه (البيان والتبيين) صحيفة عن "قواعد البلاغة عند الهنود"^(١)، ومن بين رسائله رسالة عن مناقب الهند. وقد طبعت هذه الكتب في مصر.

(١) وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال : وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جِماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعرَ طريقة. وربما كان الإضراب عنها صفاً أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر. قال: وقال مرة: جِماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعانى أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر. ثم قال: وزين ذلك كله، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية. فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطوال الصمت، فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال. أنظر: البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧٥م، ١: ٨٨، ٨٩.

٢- اليعقوبي

هو أحمد بن يعقوب بن جعفر، كان في ديوان الإنشاء (الكتابة)، أيام الدولة العباسية. وقد طوف بالهند وبلاد أخرى، وهو أول مؤرخ مسلم يكتب عن شعوب العالم باللغة العربية، وتوفي عام ٣٨٧هـ، وله كتابان: أحدهما في التاريخ، وهو في مجلدين؛ والثاني في الجغرافية. ومن العجيب أنه لم يذكر الهند في كتاب الجغرافيا، بينما تحدث، في المجلد الأول من كتاب التاريخ، عن الكتب المنقولة إلى العربية عن لغات الهند. وقد طبع الكتابان كلاهما في لندن.

٣- محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم

كان حيًا عام ٣٧٧هـ، من أهل بغداد، جمع أسماء وأحوال الكتب المعروفة في عصره، المكتوبة بالعربية، في شتى الفنون والعلوم، والمنقولة عن اللغات الأخرى. وفي كتابه الموسوم "بالفهرست" جزء عن الهند. وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الألماني فلوجل (fluegal)، مع حاشية، في ليبزج، عام ١٨٧١م.

أبو الريحان البيروني

توفي عام ٤٤٠هـ، ومن مؤلفاته كتاب عن "تاريخ الهند"، ذكر فيه كل علوم الهند وفنونها، وقد طبعه البروفيسور زخاو، في لندن، عام ١٨٨٧م. ونقل إلى الإنجليزية والهندية.

القاضي صاعد الأندلسي

مؤرخ أندلسي، قرطبي الأصل. اشتهر بكتابه "طبقات الأمم"، توفي عام ١٠٧٠م (٤٦٢هـ)، وقد كتب في تاريخ الفنون والعلوم للأجناس والحضارات، حتى عصره، وكل ما وصلت إليه يده عن طريق اللغة العربية. وفي هذا الكتاب أيضًا، باب عن الهند. وقد طبع كتابه هذا في مطبعة الكاثوليك، ببירות، عام

١٩١٢م، كما طبع أيضًا في مصر. وأمام ناظرى الآن، نسخة بيروت، وقد نشرت ترجمته الأردنية دار المصنفين (بأعظم جره).

ابن أبى أصيبعة (موفق الدين)

الطبيب الحكيم، أوجد زمانه، كان جده طبيبًا خاصًا للسلطان صلاح الدين، ويمتد عمره من ٥٩٠هـ / ١١٩٤م حتى ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م، وله كتاب "عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء" ذكر فيه أحوال من اشتهر بين الأطباء فى كل الأمم الراقية، وقد طبع الكتاب بمصر فى مجلدين، وفى المجلد الثانى باب عن الهند.

العلامة شبلى النعماني

ألقى خطبة مطولة فى المؤتمر العلمى الإسلامى، بجامعة على جره، بعنوان "التراجم"، طبعت مع رسائله. وقد ذكر فيها تلك الكتب المنقولة إلى العربية عن اليونانية، والفارسية، والعبرية، والسريانية، وغيرها من اللغات. كما ذكر الكتب المترجمة من السنسكريتية إلى العربية والفارسية. ولما يتم ذلك الجزء من الخطبة حتى هذه الفترة؛ إذ لما تطبع بعض الكتب القديمة، ولم تكتمل بعض الأبحاث العلمية الناقصة.

بداية العلاقات العلمية

البرامكة

قبل الحديث عن العلاقات العلمية العربية الهندية، ينبغى ذكر هذه الأسرة التى نشأت هذه العلاقات بفضل جهودها. وبصفة عامة، اشتهرت هذه الأسرة باسم (البرامكة) فى اللغة العربية. وتلكم هى الأسرة التى تقلدت الوزارة فى عهد الخلافة العباسية، لمدة ٥٠ عامًا (من عام ١٣٦هـ حتى ١٨٦هـ)، وقد اتسم عهدها بالأمن والأمان، وحسن النظام والإدارة، والجود والكرم، حتى إن كثيرًا من الناس يعتقد أن طهارة الدولة العباسية، ونظامها، وشهرتها، وحسن تدبير سياستها، راجع إلى

البرامكة. فبسحائب كرمهم، أينعت دوحات بغداد، منذ "السفاح"، أول الخلفاء العباسيين، حتى الخليفة الخامس "هارون الرشيد". وقد تولى أفراد تلك الأسرة الوزارة، وكانوا هم الحاكم الفعلى للدولة. ويقال إن شمسهم قد بزغت فى عهد "السفاح"، الخليفة العباسى، ثم ازدادت نورًا وبهاءً فى عهد "هارون الرشيد".

وما إن توسطت شمس البرامكة كبد السماء حتى اكفهرت، وانقشعت على يد "هارون الرشيد"، وقد نكب الرشيد هذه الأسرة لأسباب غير واضحة البتة. وإن كان المؤرخون يرجعون السبب إلى استمالة البرامكة الناس بعطفهم، وضمهم أفضل الأراضى إلى إقطاعاتهم. فاستولوا على كل كبيرة وصغيرة فى الدولة، حتى إن الأسرة العباسية نفسها كانت رقابها تحت رحمة كرمهم.

وفى هذه الحالة، كان لابد من القضاء على البرامكة، وإلا حدث انقلاب تاريخى عظيم فى العالم الإسلامى، وانمحت الخلافة العباسية تمامًا؛ فلكى تحمى الأسرة العباسية نفسها، كان من الضرورى أن تزول الأسرة البرمكية، أيا كانت الأسباب.

على أية حال، فمما لاشك فيه أن الرغبة فى المعرفة، ونقل علوم الأمم الأخرى؛ من علم الكلام، والفلسفة، والطب، والمنطق، بزغت فى عهد البرامكة.

من هم البرامكة؟

اشتهر عن البرامكة أنهم كانوا مجوسًا، وهم: عبدة للنار فى إيران. وكانوا سدنة المعبد الذى أقامه "منوجهر"، بمدينة "بلخ"، وعندما فتح المسلمون "بلخ"، عام ١٣٠هـ/٦٥١م، خبت نار هذا المعبد، ثم اشتعلت بعد بضعة أيام. وأخيرًا، عندما ضم قتيبة، القائد الخراسانى المعروف، هذا البلد إلى سدة الحكم الإسلامى، عام ٨٦هـ/٧٠٥م، أسلم سدنة هذا المعبد، الذين كانوا حكامًا على بلخ والبلاد المجاورة لها، منذ عهد الملوك الأوائل. ومنهم من أسلم طوعًا، وسافر إلى دمشق، وانتقل إلى

بغداد عام ٣٣هـ، عندما انتقل مركز الخلافة إليها. وشيئاً فشيئاً، تدرج هؤلاء في المناصب الحكومية، حتى صاروا وزراءً وحكاماً على العالم الإسلامي كله.

هذه هي الأسرة التي لقب كاهنها الأعظم "برمك"، والجمع منه "برامكة"، وعليه، فقد نالت العزة والشهرة. ولكن يبقى السؤال، ما أصل كلمة "برمك"؟ لم يعن المؤرخون القدامى، أو علماء اللغة هذا الأمر. بيد أن المؤرخين، وعلماء اللغة ذكروا أن هذا اللفظ من المصدر "مكيدن"، والذي يعنى امتصاص، وقد تضاف إليه الـ "بر" أحياناً، فيصبح "برمكيدن"، ومن أجل تدعيم هذا الرأي، أقاموا عليه صرحاً من الرمال، وقالوا: إنه عندما حضر أول برمكى مسلم أمام الخليفة، وبخه قائلاً: لا يليق بك أن تأتى بلاط الخليفة، ومعك سم، وأنا معى مثل هذه الأختام التي أعرف بها من معه السم، فتقدم البرمكى، وقال: "هذا ولا ريب خطأ، فتحت خاتمي سم، وإن اضطررت أن أدفع حياتي ثمناً لكرامتي، فسأقوم بمص هذا الخاتم كي أموت".

وبما أن لغته الفارسية؛ فقد قال: "امتصه" بالفارسية، وهي "برمك"، ومنذ ذلك الوقت أطلق عليه "برمك"^(١).

إن هذه القصة محض افتراء، ومن اختلاق الكتاب الفرس؛ فلغة البلاط في دمشق لم تكن الفارسية، بل العربية. فضلاً عن أن فحوى هذه القصة، أن لقب "برمك" قد ظهر عام ٨٦هـ؛ على حين يذكر جميع المؤرخين العرب أن لقب أمير بلخ القديم هو "بجارى".

ويقر بعض علماء اللغة الفارسية أن "برمك" اسم ذلك المكان المنسوب إليه بعض من يطلق عليه "برمكى"^(٢)، وقد فسر أحد الأدباء العرب هذا الأمر بقوله: إن

(١) تاريخ ضياء برنى - روضة الصفا - برهان قاطع .

(٢) برهان قاطع .

معبد بلخ هذا بنى على غرار الكعبة؛ ولهذا كان رئيسها يطلق عليه "برمكه"؛ أى حاكم مكة، ثم اختصرت إلى "برمك"^(١).
وثمة تفسير آخر ورد فى "معجم البلدان"، لياقوت الحموي، وهو أن كلمة "بر" تعنى: الابن، ومعناها ابن مكة (نوبهار).

أما فى اللغة الأردية، فأصل هذه الكلمة - كما يقول مؤلف كتاب التاريخ الشهير باسم هذه الأسرة - هو "برمغ"، وجمعها فى الأردية "برمغان"، ومعناها: عبدة النار. ويطلق عليها فى اليونانية "ماجوس"، وفى العربية "مجوس"، أما "بر"، فمعناها: رئيس، ولهذا فإن معنى "برمغ" هو: رئيس المجوس. ونحن نقبل هذا التفسير، شريطة أن نتأكد من إثبات أن عبدة النار وسدنتها، كانوا يلقبون بلقب "بجارى"، أو "بروهت"، أو "دستور"، فى معابد النار، التى تعد بالآلاف فى إيران، إلى جانب لقب "نوبهار"، أى: ربيع جديد.

وطبق هذا التفسير، كان ينبغى أن يكون هذا اللفظ شائعاً فى الفارسية، وأن يكون استعماله فى الشعر مألوفاً، وأن يكون عند أهل اللغة متداولاً معروفاً. غير أن ما يبعث على الدهشة أنهم لم يعرفوا شيئاً عن هذا اللفظ. فضلاً عن أنه كان يجب أن يكتب فى العربية "برمج"، وليس "برمك"، كما أنه لا يوجد ثمة مثال لكلمة فارسية تحول غينها إلى كاف فى العربية، فإن كلمة "جراغ"، أصبحت "سراج" فى العربية، أما كلمة "هولاكو" التركية، فإن أصلها ليس "هلاغو"، كما فهم البعض، بل هى فى الأصل "هولاكو". وليس من المستغرب أن ينطق اسم هذا السفاح، سافك الدماء، خطأ، حتى يتفق مع الكلمة العربية "هلاك"، بكل ما فيها من تلميح أشد وأنكى من التصريح.

(١) الزمخشري - ربيع الأبرار.

والحقيقة أن تفسير هذا اللفظ يتوقف على إزاحة الستار عن هذا المعبد في بلخ. أو كان في الواقع معبدًا مجوسيًا؟ أو كانت عقيدة هؤلاء القوم هي عبادة النار، قبل الإسلام؟

وبالطبع سنجد الإجابة عند الإيرانيين: إنه كان معبدًا لعبادة النار، وإن عقيدة هؤلاء هي عبادة النار. والواقع أن الانتساب إلى شخص أسطوري هو شعور عام لدى كافة الشعوب. ألم يذكر الإيرانيون أن الإسكندر هو من نسل الملوك الإيرانيين؟ أو لم يعتبر كتاب القصة المسلمون أن ريتشارد قلب الأسد^(١) من أولاد السلطان صلاح الدين؟ وهذا هو حال البرامكة أيضًا، فقد رفع الإيرانيون نسب هؤلاء إلى "جاماسب"، وزير الملك "جستاسب"، وأكدوا أن هذه الأسرة هي أقدم الأسر التي تولت الوزارة في إيران^(٢).

وعلى العكس من ذلك، ادعى العرب أن جعفر البرمكي الأول، الذي يرجع إليه بداية ظهور هذه الأسرة، كان ابن القائد العربي "قتيبة"، في خراسان، وأن أم جعفر وقعت أسيرة في يد قتيبة، أثناء الحرب، وبعد الصلح، حملت وعادت إلى بيتها^(٣).

ونترك الأقوال المتعارضة حول نسب هؤلاء القوم؛ لننعم النظر في أحوال هذا المعبد، أكان يحمل خصائص معبد النار؟ وأول شيء بالنسبة لمعبد النار أن

(١) ريتشارد قلب الأسد؛ ملك إنجلترا، جاء على رأس حملة صليبية ثانية؛ لاسترداد بيت المقدس، ولكنه لم يستطع؛ فعاد إلى بلاده، بعد أن عقد صلحًا مع صلاح الدين الأيوبي (عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢م)، سمي بصلح الرملة.

(٢) حميد الله المستوفى - سياست نامه، ونزهة القلوب.

(٣) الطبري وابن الأثير. وهذا هو نص ابن الأثير: "وقيل إن قتيبة قدم خراسان، سنة ٨٥هـ.... وكان ممن سبى امرأة برمك، أي خالد بن برمك، وكان برمك على النوبهار، فصارت لعبد الله بن مسلم، أخي قتيبة، فوقع عليها، ثم إن بلخ صالحوه، وأمر قتيبة برد السبي، فقالت امرأة برمك لعبد الله: إنني قد علقت منك، وحضرت عبد الله بن مسلم الوفاة، فأوصى أن يلحق بها ما في بطنها، وردت إلى برمك" ابن الأثير - الكامل في التاريخ - م ٦٢٠هـ - دار صادر بيروت - ١٩٧٨م - ج ٤ - ص ٥٢٤.

تكون النار مشتعلة به. وما أشار أحد ممن نسب هذا المعبد إلى بلخ - باستثناء بعض المؤرخين غير الثقات - إلى هذا.

وأقدم مرجع وصل إلينا، فيما يتعلق بهذا الأمر، هو للبلاذري، ولم يذكر لنا أى تفصيل عن هذا، ثم جاء من بعده المسعودي، ٣٣٠هـ، ومعاصره ابن الفقيه الهمداني. ولدينا أيضاً "معجم البلدان"، لياقوت ٦٢٦هـ، و"أثار البلاد"، لزكريا القزويني، ٦٨٦هـ، وتتطابق بيانات ابن الفقيه، وياقوت حول هذا الموضوع تطابقاً حرفياً، وإن كان ياقوت قد استقى معلوماته من عمر بن الأزرقي.

وصف المسعودي

كتب المؤرخ المسعودي عن أحوال "نوبهار": "وكان بنيان هذا البيت من أعلى البنيان تشييداً، وكانت تتصب على أعلاه الرماح، عليها شقاق الحرير الأخضر، طول الشقة مائة ذراع، فما دونها... وكان الحيز المحيط بهذا البنيان أميالاً لم نذكرها؛ إذ كان أمر ذلك مشهوراً من وصف علو السور وعرضه"^(١).
(ج ٢، ص ٢٩٣)

هل قرأت في هذا الاقتباس ذكراً للنار، أو وصفاً لمبنى، أو راية تدل على أنه كان معبداً للنار؟

وصف ابن الفقيه

"وبها النوبهار، وهو من بناء البرامكة، وكانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ، قبل ملوك الطوائف، وكان دينهم عبادة الأوثان، فوصفت لهم مكة، وحال الكعبة بها، وما كانت قريش والعرب تدين به، فاتخذوا عليه بيتاً، يقال له "النوبهار" ببلخ؛ وتفسيره: الجديد، فكانت العجم تعظم ذلك البيت، وتُحج إليه، وتهدي إليه، وتلبسه الحرير، وتتصب الأعلام على القبة، واسمها عندهم الأشبت،

(١) المسعودي - مروج الذهب - الجزء الرابع - ص ٤٨ - باريس.

وكانت القبة مائة ذراع في مثلها، بأروقة مستديرة حولها، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون مقصورة، يسكنها خدامه وقوامه، على كل خادم خدمة يوم، فلا يعود إلى خدمته إلى الحول، فسموا سادنها الأكبر برمكا، وكانت ملوك الصين وكابل شاه تدين بذلك؛ فكانوا إذا حجوا، سجدوا للصنم الأكبر^(١). (ص ٣٢٣).

لقد قرأت هذا الوصف، ولم يتضح لك أى ذكر للنار فيه، بل إن هناك ذكراً للأصنام، التى ليس لها علاقة بمعابد النار، فلا المجوس، ولا الإيرانيون كانوا يعبدون الأصنام. بل ورد فيه "إن هذه كانت عقيدة ملك الصين وكابل"، ومعلوم للجميع أن عبادة النار لم تكن موجودة فى الصين وكابل.

وصف ياقوت

"قال عمر بن الأزرق الكرمانى: كان البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ، قبل ملوك الطوائف، وكان دينهم عبادة الأوثان، فوصفت لهم مكة، وحال الكعبة بها... فاتخذوا بيت النبهار؛ مضاهاة لبيت الله الحرام، ونصبوا حوله الأصنام، وزينوه بالديباج والحريز، وعلقوا عليه الجواهر النفيسة، وتفسير النوبهار: البهار الجديد؛ لأن "نو": الجديد. وكانت سنتهم إذا بنوا بناء حسناً، أو عقدوا باباً جديداً، أو طاقاً شريفاً كلوه بالريحان، وتوخوا لذلك أول ريحان يطلع فى ذلك الوقت. فلما بنوا ذلك البيت، جعلوا أول ما يظهر من الريحان، وكان البهار، فسمى "نوبهار" لذلك. وكانت الفرس تعظمه، وتحج إليه، وتهدى له، وتلبسه أنواع الثياب، وتنصب على أعلى قبته "الاستين"... وكان حول البيت ثلاثمائة وستون مقصورة، يسكنها خدامه وقوامه وسدنته... وكانت ملوك الهند، والصين، وكابل، وغيرهم من الملوك، تدين بذلك الدين، وتحج إلى هذا البيت... وكانت سنتهم، إذا هم وافوه، أن يسجدوا للصنم الأكبر، ويقبلوا يد برمك... ويقال إن الريح

(١) كتاب البلدان - ص ٣٢٣ - لندن.

ربما حملت الحرير من العلم، فوق القبة، فتلقيه بترمز^(١). (ياقوت - معجم البلدان - دار صادر - بيروت - ١٩٧٧م - ص ٣٠٧) فتقديم الأزهار، وغيرها من خصائص "البهار"، ما هو إلا من اختراع الفرس؛ حتى يتطابق مع اللفظ الفارسي "توبهار".

وصف القزويني

يكتب عن أحوال بلخ: "كان بها "النوبهار"، وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام. لما سمع ملوك ذلك الزمان بشرف الكعبة، واحترام العرب إياها، بنوا هذا البيت؛ مضاهاةً للكعبة، وزينوه بالديباج والحرير، والجواهر النفيسة، ونصبوا الأصنام حوله. والفرس والترك تعظمه، وتحج إليه، وتهدى إليه الهدايا. وكان حول البيت مائة ذراع في عرض مائة، وأكثر من مائة ارتفاعاً، وسدائته للبرامكة، وملوك الهند والصين يأتون إليه، وإذا وافوه، سجدوا للصنم...".^(٢) (آثار البلاد - ص ٣٣١).

وهار، بده

ويتضح مما ذكرناه، وبما لا يدع مجالاً للشك، أنه لم يكن ثمة معبد للمجوس، بل معبد لبوذية. وإن كلمة "وهار" هذه تحرفت إلى "بهار"، فكلمة "نوبهار" هي، في الأصل، "توبهار"، وهي تطلق على معابد البوذية بصفة خاصة. وذلك موجود في بلادنا؛ حيث إن مدينة بهار - التي كانت أصلاً معبداً لبوذية - هي "وهار"، وقد حرقها المسلمون، بلهجتهم الفارسية، إلى بهار، وفي فترة الزحف الأول للعرب على السند، كان هناك العديد من هذه "الوهارات". وما ذكره المؤرخون العرب عن أحوالها ينطبق تماماً على ما ورد في وصف "نوبهار"، بمدينة بلخ.

(١) معجم البلدان - الجزء الثامن - ص ٣٢١ - مصر - لفظ "نوبهار".

(٢) القزويني - آثار البلاد - ص ٢٢١ - جوتجن.

والبلاذري (٢٤٧هـ)، وهو من أقدم المؤرخين، كتب عن أحوال فتح السند في كتابه "فتوح البلدان"، فقال: "وكان بالديبل (بد) عظيم، عليه دقل بطويل، وعلى الدقل راية حمراء، إذا هبت الريح أطافت بالمدينة، وكانت تدور، و(البد) فيما ذكروا: منارة عظيمة، يتخذ في بناء فيها صنم لهم، أو صنم يشهر بها، وقد يكون الصنم في داخل المنارة أيضاً. وكل شيء عظموه من طريق العبادة؛ فهو عندهم (بد)، والصنم (بد) أيضاً"^(١).

وبعد هذا، فليس ثمة شك أن "تو بهار"، الموجود في بلخ، ما كان معبدًا مجوسيًا. ومن العجيب أن المؤرخين، خلا القدامى، لم يلتفتوا إلى هذا الأمر. وإن كان (كريم) قد أخبرنا أن البرامكة مزادكة (مزدكي)^(٢). وقد خفيت هذه الحقيقة على البروفيسور (براون)؛ فعد "توبهار" معبدًا للنار، والبرامكة مجوساً^(٣).

ومما أثلج صدرى، أثناء بحثي هذا، أنى وجدت في مقدمة ترجمة "كتاب الهند"، "لرخاو"، ص ٣١، أن أصل "توبهار" هو "تو وهار"، وأنها إحدى خانقاهات البوذية. وأكد ذلك أحد المستشرقين المعاصرين، وهو "بورتولد" W.Barthald، فقد ذكر بضعة سطور عن "البرامكة"، في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص ٩٦٣، فقال: "يبدو أن "توبهار" هي "وهار" البوذية، كما أشار بذلك أحد الرحالة الصينيين، وكما يثبت من الصورة التي نقلها ابن الفقيه. بيد أنه لم يستطع واحد منهم أن يقدم لنا دليلاً على هذا، وظلوا يستمرئون خطأهم هذا، وهو أن البرامكة من المجوس الإيرانيين، وأن الإيرانيين أقاموا لهم معبدًا للنار". أما بالنسبة لى — أى المؤلف — فإن ذلك خطأ كبير، وأظن ظناً أن البرامكة كانوا بوذيين، وأن أصل نسبهم يعود إلى الهند، لا إيران.

(١) الإمام أبو الحسن البلاذري - فتوح البلدان، عنى بمراجعته والتعليق عليه: رضوان محمد رضوان - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - ١٩٩١م/١٤١٢هـ - ص ٤٢٤.

(٢) الترجمة الإنجليزية لصلاح الدين: خدا بخش.

(٣) تاريخ فارس - المجلد الأول - ص ٢٥٩.

والحقيقة أن بعض الشعراء الهجائيين، المعاصرين لهم، قد نسبوهم إلى المجوس؛ ومرد ذلك أن العرب لم يعرفوا أى عقيدة للعجم سوى المجوسية، والأمر الثانى أن مقتضيات العمل السياسى جعلت البرامكة والإيرانيين الأعاجم يناصر بعضهم بعضا، وأن هذا التعاون لم يستمر طويلاً، فكان زوال نجم البرامكة.

على أية حال، فإن هذا الزعم، بأن "نوبهار" كان معبداً للبوذية، وأن البرامكة من البوذيين، يستند إلى الأدلة التالية:

أ - ليس ثمة أى معبد مجوسى باسم (نوبهار)، فى أى مكان. بل العكس، فهو اسم معبد بوذى مشهور، وفى السند، كان معبد بوذى يسمى (نوبهار) آنئذ^(١).

ب - الصورة التى قدمها الجغرافيون العرب، ومؤرخوهم الثقاة، تطابق تماماً صورة المعبد البوذى.

ج - فى القرن السابع الميلادى، ذكر الرحالة الصينى (هوان كنج) هذا المعبد فى بلخ^(٢). وهى نفس الفترة التى وصل فيها العرب الفاتحين إلى بلخ، أو كانوا فى طريقهم إلى هناك.

د - قد كتب المسعودى عن (نوبهار) ما يلى:

"وقد ذكر بعض أهل الرواية والتفسير أنه قرأ على باب" النوبهار" ببلخ كتاباً بالفارسية، ترجمته" قال بوداسف: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال: عقل، وصبر، ومال". وإذا تحته بالعربية: كذب بوداسف، الواجب على الحر، إذا كان معه واحدة من هذه الثلاث، أن لا يلزم باب السلطان"^(٣). ج ٢ - ص ٢٣٩

(١) الترجمة الإنجليزية لشش نامه - البيت - المجلد الأول - ص ١٥٠.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية - الجزء الأول - ص ٦٦٤.

(٣) مروج الذهب - الجزء الرابع - ص ٤٠ - باريس.

وليس عند الباحثين أدنى شك في أن العرب كانوا يطلقون على "بوذا" بوداسف^(١)، وإن لم يكن معبدًا بوذيًا، فماذا عساه يكون؟ أياكون معبدًا للمجوس، وقد كتب على بوابته الرئيسية مقولة لبوذا؟

هـ - إن بلخ إحدى مدن خراسان، ووفق المحققين والمدققين، القدامى منهم والمحدثين؛ فإن عقيدة هذه البلدة كانت البوذية قبل الإسلام. وقد كتب ابن النديم، وهو أحد الثقات، في التاريخ القديم لخراسان:

"وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر، قبل الإسلام، وفي القديم، وذلك أن نبيهم بوداسف"^(٢). (ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص ٤٨٤)

و- وقد كتب المؤرخون عن حال إسلام البرامكة: "إن عقيدة سدنة (نوبهار) كانت هي عقيدة ملك الهند، والصين، والترك"^(٣).

ومعلوم للجميع أن البوذية عقيدة أهل الهند، وكابل، والصين، والترك، ولم تكن المجوسية، أو عبادة النار.

ز- ومن رجع للمؤرخ عمر بن أرزق كرماني (وكرماني هذا سابق على ياقوت بالتأكيد، أي في القرن الثالث أو الرابع؛ لأن تلك العبارة بعينها جاءت عند ابن الفقيه الذي عاش أواسط القرن الرابع) وهي: "...فلم يزل يليها برمك بعد برمك، إلى أن فتحت خراسان، أيام عثمان بن عفان، وقد صارت السدانة إلى برمك؛ أي خالد، فوجه برمك إلى عثمان في الرهائن، فورد المدينة، ورغب في الإسلام، فأسلم، وسمى عبد الله، ورجع إلى ولده، وصارت البرمكة في بعض ولده، فكتب بعض الملوك إلى برمك، يعظم ما أتى من الإسلام، ويدعوه إلى

(١) ابن النديم - الفهرست - ص ٣٤٥، مع حواشي فلوجل.

(٢) ابن النديم - الفهرست - ص ٣٤٤.

(٣) وقد وردت اقتباسات القزويني، وابن الفقيه، وياقوت أعلاه.

الرجوع في دين آبائه، فكتب إليه برمك: إني إنما دخلت فيه اختياراً، وعلماً بفضله، عن غير رهبة ولا رغبة، ولا أرجع إلى دين بادي العوار، متهتك الأستار، فغضب الملك، وزحف إلى برمك بجمع كثيف، فكتب إليه برمك، قد عرفت حبي للسلامة، وإني إن استجذبت عليك الملوك، أنجدوني، فانصرف، وإلا صرت إلى لقائك، فانصرف عنه وأودعه، ثم لم يزل ذلك الملك، واسمه نازك طرخان، يغتر ببرمك ويطلبه حتى بيته، وقتله وعشرة بنين له، فلم يبق لهم برمك سوى برمك أبي خالد، فحملته أمه، وهربت به، وكان صغيراً، إلى بلاد قشмир، فنشأ برمك، وتعلم النجوم والطب وأنواع الحكمة، وبقي على شركه، وأصابهم وباء؛ فتشاءموا بمفارقة دينهم، فكتبوا إلى برمك، فتقدم عليهم، فأجلسوه في موضع أبيه، فتولى أمر النوبهار، فسمى برمكا، وتزوج ابنة ملك الصغانين، فولدت له الحسن، وبه كان يكنى، وخالداً وعمرًا، وأم خالد وسليمان بن برمك من امرأة أخرى وغيرها من أهل بخارا، وكان صاحب بخارا، أهدى إلى برمك جارية، فولدت له كال بن برمك، وأم القاسم، وبناتاً أخرى، ولهم أخبار كثيرة، وإنما أردنا هذا الخبر بعينه بسبب النوبهار". (ابن الفقيه الهمداني - مختصر كتاب البلدان - طبعة لين - ١٣٠٢هـ - ص ٣٢٣ - ٣٢٤).

وهنا يبرز تساؤل، لو أن (نوبهار) معبد للمجوس، والبرامكة مجوس، فلم يغضب عليهم طوخان، ملك الترك البوذي؟ ولم يتعقبه، هو وأسرته؟!

ح - وبعد مقتل (برمك) وأولاده، أخذت زوجة (برمك) طفلها الصغير، وفرت إلى كشمير. وهكذا تلقى هذا الطفل تعليمه وتربيته في كشمير، فقد تعلم الطب والفلك، فضلاً عن العلوم الهندية الأخرى، وظل على دين آبائه وأجداده. وقد ضرب بلخ وباء الطاعون، مصادفة في فترة ما، فاعتقد الناس أن ذلك ابتلاء من الله؛ بسبب ترك دينهم، فاستدعوا البرمكي الشاب، وزينوا (نوبهار) من جديد.

إن هروب الطفل من بلخ إلى كشمير، وتلقيه العلم والتربية فيها لا سبب له، سوى أن الطفل من أسرة لها جذور هندية، وأن عقيدتها هي البوذية، والتي كان مركزها كشمير. وإلا لكان من السهل أن يفر من ظلم الترك، ويذهب إلى أبناء قومه وعقيدته في إيران، أو يستجير بالمسلمين! ثم ما إمكانية تعليم طفل مجوسى، وتربيته في بلد آخر؟ وما التعليم الذى يمكن أن يحصل عليه من تعليمه هنا؟

ط - هذه حكاية علاقة هذه الأسرة بالهند؛ قبل دخولها الإسلام. أما بعد دخولها الإسلام، فقد توطدت العلاقة أكثر من ذى قبل، فقد أصبح لحكام الهند فى بلاط حكام العراق المكانة السامية؛ إذ تم استدعاء علماء البوذية وأطبائها، الذين كانوا من السند غالباً، وتم تعيينهم فى بیمارستانات بغداد، وتم إرسال العلماء للقيام بعمل أبحاث دوائية ودينية. ويذكر ابن النديم، فى كتابه "الفهرست"، الذى ألف عام ٣٧٧هـ:

"الذى عنى بأمر الهند، فى دولة العرب، يحيى بن خالد، وجماعة البرامكة، واهتمامها بأمر الهند، وإحضارها علماء طبها وحكمائها"^(١). (الفهرست، الفن الثالث من المقالة التاسعة، ص ٤٨٤).

لو أن هؤلاء الناس كانوا إيرانيين ومجوساً، لكان مركز اهتمامهم ونشاطهم هو إيران، لا الهند.

ى - وصفوة القول، إن (برمك) الذى كان اسماً للعائلة، ولقباً ذا تقدير كبير سدنة (نوبهار)، هو نفسه اللفظ السنسكريتى (برمك). والدكتور زخاو^(٢) - وهو من العارفين المهرة باللغة السنسكريتية - يقول: إن معنى اللفظ، فى السنسكريتية،

(١) الفهرست - ص ٤٣٥ - سنة ١٨٧١م.

(٢) زخاو: هو مستشرق المانى، اسمه انوارد كارل زخاو (١٨٤٠ - ١٩٣٠)، عمل أستاذاً للغات السامية فى جامعة فيينا، عام ١٨٦٦م، وأستاذاً للغات الشرقية بجامعة برلين، وحقق وترجم كتابين مهمين للبيرونى، هما: "الآثار الباقية" و"تحقيق ما للهند".

هو: صاحب الدرجة الرفيعة، وقد استوضحنا ذلك من علماء السنسكريتية، فأكدوا لنا أن معنى اللفظ هو: صاحب الدرجة، أو المكانة السامية.

ك - فى معبد (نوبهار) قبة عظيمة، مقامة عاليًا، قد كتب اسمها بعدة طرق، تختلف إحداها عن الأخرى؛ إذ ورد اسمها فى النسخة المصرية لياقوت (استن)، أما النسخة الأوربية، فليست فى حوزتى الآن - والكلام للمؤلف - ولكن نسخة ابن الفقيه، المطبوعة فى لندن، أمام ناظرى، وتحت بصري، و قد كتب فى مقتها أن اسمها "اسبت". بيد أن العالم (دى جويه) Degoye أخذ عن مختلف النسخ، فكتب اسمها على النحو التالى: (استن)، (است)، (اسبت). وأعتقد أن اللفظ الصحيح هو (استب)؛ إذ هو النطق العربى والفارسى للفظ البوذى (ستوب). والجميع يعلم أن اللفظ (ستوب) يطلق على ذلك الدير البوذى الخاص الذى يوضع فيه رماد (بوذا). وفى الهند، عدد كبير من هذه المباني، وكشفت الآثار عن طريقتها ووصفها بشكل كامل. وقد خدع الجميع التشابه مع اللفظ الفارسى، إذ فى الفارسية، يطلق لفظ (استن) على السارية، ويوجد مرادفها الآخر (ستون)، فى لغتنا الأردية. لذلك اعتقد الكتاب أن كلمة (استب) كلمة لا معنى لها، فجعلوها فارسية؛ حتى يصبح لها معنى. بيد أن أكثر الأشياء صحة وصوابًا هو أنهم يطلقون اسم (ستون)، أو سارية على أى قبة، أو ما أشبه.

لقد فصلنا القول فى مسألة فرعية، وربما تتفهم إطالة الحديث فى غير موضعه، نظرًا لما تحمله هذه القضية، فهى من الأهمية بمكان فى هذا البحث، وسوف ترفع عنى هذا الاتهام، وهو الإطالة والإسهاب، وسوف تتضح صحة نظريتي، التى تقول: إن جميع الأنشطة العلمية التى تمت فى عصر البرامكة، من نقل علوم الطب، والفلك الهندى إلى العربية، وربما الشعر والأدب، والفنون والعلوم، كل هذا كان للهند فيه النصيب الأوفى، لا إيران. وإن هذا لن يكون عملاً عادياً بالنسبة للهند، وإن أكبر دائرة للمعارف العربية هي كتاب ابن فضل الله

العمرى المصرى "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار"، الذى تم نشر مجلده الأول الآن. وفى هذا الكتاب تاريخ (لنوبهار)، ووصف لها بتلك الكلمات:

"وسابعها بيت النوبهار، بناء منوشهر الهندى، بمدينة بلخ. وكان يأتيه من الصابئة من يتقرب بالقمر. وكان يسمى المتولى لسدائته "برمك"، وكانت ملوك الفرس تعظمه، وتعظم متوليه. وآلت ولايته إلى خالد البرمكى. فلهذا قيل "خالد بن برمك"، ولهذا قيل البرامكة. وكان من أعلى المباني تشييداً، وكان يُلبس بالحريز الأخضر، تنشر عليه شقاق منه. طول كل شقة مائة ذراع... وكان قد كتب على باب النوبهار، بالفارسية: قال سوراشف^(١). "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ)، السفر الأول، تحقيق: عبد الله بن يحيى السريحي، أبو ظبى، المجمع الثقافى، ٢٠٠٣م، ص ٢١٧. (والتحريف الذى حدث فى العبارة السابقة أنه كتب: سوراشف، بدلاً من: بوذاشف).

يتضح من هذا أن الذى بنى هذا المعبد هندي. وهاكم شاهد إثبات يعضد مزاعمى - والكلام للمؤلف - حيث ذكر أن المعبد لعبادة القمر، لا بيتاً لعبادة النار، بأى حال من الأحوال. وكونه لعبادة القمر، فهى إشارة تجعلنا نتجه صوب الهند. وعند البعض أن كلمة (اندو)، هى أصل (هندو)، التى تطلق على القمر، فسميت الدولة باسمه^(٢).

بهذه الأدلة التى أسوقها لإثبات دعواى، تكتمل الحلقة المفقودة فى العلاقات العلمية بين العرب والهند، ويتضح سبب اهتمام البرامكة بعلوم الهند وفنونها، وأسباب الارتباط والالتقاء بحكمائها.

(١) الكتاب المذكور - المجلد الأول - ص ١٢٣ - مصر.

(٢) نوفل أفندى - زبدة الصحائف فى سياحة المعارف - ص ٩٣ (وهو كتاب لأحد فضلاء الشام المسيحيين لتلك الفترة).

ومن خلال هذا التقرير السابق، لن نقول إنه تم تفسير العلاقات التجارية العربية الهندية تفسيرًا كاملاً، وشرحها شرحًا وافياً، لكنه في الواقع إضافة إلى العلاقات التجارية بين العرب والهند.

وتؤكد الأحداث التاريخية أن ثمة علاقات قد بدأت، منذ أواخر القرن الأول الهجري، وهي علاقات ذات أغراض ومآرب أخرى؛ إذ عندما وصل محمد بن القاسم أول بلدة، في حملته على السند، عام ٩٦هـ، علم أن أهالي المنطقة كانوا قد أرسلوا اثنين من أتباع البوذية لحاكم العراق (الحجاج)؛ من أجل الصلح والحصول على ميثاق الأمن والأمان، وعندما زالت الخلافة، وزال مقرها من الشام، وانتقل إلى العراق؛ أي حينما استقر الأمر للعباسيين، بدلاً من الأمويين، فإن القرب الجغرافي بين السند والعراق، أسفر عن ملتقى جديد للوحدة بين القوميتين، في الخليج العربي. وبعد حكم السفاح بعامين أو ثلاثة، كان الخليفة العباسي الثاني، المنصور ١٣٦هـ، قد تولى الخلافة، وكان قد انتهى من بناء عاصمة الخلافة ١٤٦هـ. وبعدها بثمانى سنوات (أى عام ١٥٤هـ)، بدأت العلاقات العلمية بين العرب والهند بشكل منتظم.

بداية الترجمة من السنسكريتية

لقد اكتملت فكرة ترجمة الكتب العلمية من اللغات الأخرى إلى العربية، منذ أواسط القرن الأول الهجري، ولكن لأن مركز الخلافة كان في الشام؛ فقد كانت الغلبة للغات اليونانية والسريانية. بينما حين بسطت الخلافة العباسية سلطانها على العراق، فقد وجدت اللغات الهندية والإيرانية فرصتها في الكشف عن فنونها. وما أن ذاع صيت الخليفة المأمون، وولعه بالعلوم، حتى وصل إلى بغداد وفد هندي، عام ١٥٤هـ/٧٧١م، وبرفقته كتاب بالسنسكريتية، لأحد حكماء الهند، عن الرياضيات والفلك^(١). فأمر الخليفة بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، بمساعدة

(١) البيروني - كتاب الهند - ص ٢٠٨ - لندن.

إبراهيم الفزاري،^(١) أحد علماء الرياضيات ببلاط الخلافة^(٢). وكان هذا هو أول يوم يعرف فيه العرب تفوق الهنود. وقد استدعى هارون الرشيد أحد حكماء الهنود لعلاج، وهو الذي أشاد بعظمة الهنود، وتفوقهم بين العرب. ومن بعده، وتحت رعاية البرامكة، ترجم العديد من الكتب السنسكريتية إلى العربية، في الأدب، والفلك، والطب، والأخلاق. كل هذا ضاعف من شهرة الهنود، وسمعتهم الطبية.

مكانة الهند عند العرب

لكي نرى منزلة الهند، واحترامها عند العرب، أثلوا عليكم آراء غير واحد من المؤلفين العرب القدامى؛ أولهم الجاحظ، البصري، العالم المشهور، والأديب والفيلسوف، صاحب التصانيف. وكانت إقامته بالبصرة سبب اتصاله بالهند^(٣)، توفي عام ٢٥٥هـ، وله رسالة بحث فيها: لمن الغلبة في الدنيا، السود أم البيض؟ رجع فيها السود، أصحاب البشرة السمراء. وفي هذا يقول:

"وأما الهند، فوجدناهم يقدمون في النجوم والحساب، ولهم الخط الهندي خاصة، ويقدمون في الطب، ولهم أسرار الطب، وعاج فاحش الأدوية خاصة، ولهم خراط التماثيل، ونحت الصور بالأصباغ، تتخذ في المحاريب وأشباه ذلك، ولهم الشطرنج؛ وهي أشرف لعبة، وأكثرها تدبيراً وفطنة.

ولهم السيوف القلعية، وهم ألعب الناس بها، وأحذقهم ضرباً بها، ولهم الرقى النافذة في السموم والأوجاع، ولهم غناء معجب، ولهم الكنكة؛ وهي وتر واحد يمد على قرعة، فتقوم مقام أوتار العود والصنج، ولهم ضروب الرقص والخفة، ولهم معرفة المناصفة... ولهم خط جامع لحروف اللغات، وخطوط أيضاً كثيرة، ولهم

(١) إبراهيم الفزاري: هو أول من عمل في الإسلام اصطريلاباً، وله كتاب في تسطيح الكرة، منه أخذ كل الإسلاميين، وكان ميله إلى علم الفلك، وما يتعلق به، وله تصانيف مذكورة، منها كتاب "القصيد في علم النجوم".

(٢) الققطي - أخبار الحكماء - ص ١٧٧ - مصر.

(٣) ابن خلكان - أحوال عمرو بن بحر الجاحظ.

شعر كثير، وخطب طوال، وطب في الفلسفة والأدب، وعنهم أخذ كتاب (كليلة ودمنة)، ولهم رأى ونجدة، وليس لأحد من أهل الصبر ما لهم، ولهم من الرأى الحسن، والأخلاق المحموده، مثل: الأخلة، والسواك، والاجتباء، والفرق، والخضاب، ومنهم جمال، وملح، واعتدال، وطيب عرق، وإلى نسايتهم يضرب الأمثال، ومن عندهم جاءوا الملوك بالعود الهندي؛ الذى لا يعدله عود، ومن عندهم خرج علم الفكر، وما إذا تكلم به على السم، لم يضر، وأصل حساب النجوم من عندهم، أخذه الناس خاصة، وآدم - عليه السلام - إنما هبط من الجنة، فصار ببلادهم.

وخصلة أخرى، أنه لا يوجد فى العبيد أطبخ من السندي، وهو أطبع على طيب الطبخ كله، ومن مفاخرهم، أن الصيارفة لا يؤلون أكيستهم، وبيوت صروفهم إلا السند، وأولاد السند؛ لأنهم وجدوهم أنفذ فى أمور الصرف، وأحفظ وآمن، ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفى ومفاتيحه ابن رومى ولا ابن خراسانى. ولقد بلغ من يترك التجار بهم أن صيارفة البصرة، وبنادرة البربهارت (الأدوية التى تجلب من الهند) لما رأوا ما كسب فرج أبو روح السندى لمولاه من المال والأرضين، اشترى كل امرئ منهم غلامًا سنديًا؛ طمعا فيما كسب أبو روح لمولاه^(١) (رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة، ٢٥٠ - ٢٥٥).

أما الثانى، فهو اليعقوبى، رحالة جغرافى، ومؤرخ بغدادى فاضل، ومدقق يروى أنه وافى الهند، وتوفى عام ٢٧٨هـ تقريبًا، وقد كتب فى تاريخه ما يشبه القصة عن الهند، فيقول:

(١) رسالة فخر السودان على البيضان - مجموعة رسائل الجاحظ - ص ٨١، طبعة مصر - ١٣٢٤هـ - مصر.

"والهند أصحاب حكمة ونظر، وهم يفوقون الناس في كل حكمة؛ فقولهم في النجوم أصبح الأقاويل، وكتابهم فيه كتاب (السند هند)؛ الذي منه اشتق كل علم من علومه، مما تكلم فيه اليونانيون، والفرس، وغيرهم، وقولهم في الطب المقدم، ولهم فيه الكتاب الذي يسمى (سرد)، فيه علامات الأدوية، ومعرفة علاجها وأدويتها، وكتاب (شرك)، وكتاب (ندان).... ولهم غير ذلك من الكتب في الطب، ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة، في أصول العلم"^(١).

أما الثالث: فهو أبو زيد السيرافي، الذي عاش أواخر القرن الثالث الهجري، حيث كتب يقول:

"يطلق على أهل العلم (برهمن) في الهند، ومن بينهم شعراء يعيشون في بلاط الملوك، وفيهم العرافون والفلاسفة، ومن يقرأون الطالع والمشعوذون، وغالبيتهم في قنوج، وهي مدينة كبيرة في بلاد الجوز" ص ١٢٧.

وصفوة القول، فإن حسن رعاية الخليفة المنصور، وهارون الرشيد، وسخاء البرامكة وجودهم - كان سبباً في وصول عشرين من حكماء الهند وعلمائها إلى بغداد. والذين انخرطوا في مؤسسات الدولة العلمية والطبية، وترجموا إلى العربية العديد من كتب الحساب، والنجوم، والفلك، والطب، والأدب، والأخلاق.

ولكن وا أسفاه! فإن أسماء هؤلاء العلماء الهنود قد تبدلت في اللهجة العربية، بحيث أصبح نطقها نطقاً صحيحاً أمراً مستحيلاً، بعد أحد عشر أو اثنا عشر قرناً من الزمان، ونظن ظناً أن السبب وراء ذلك هو اتباع معظم هؤلاء العلماء البوذية، وأن أسماء تلك الفترة تختلف عن الأسماء الوبدية^(٢) الحالية، كما أن بعض هذه

(١) أحمد بن أبي يعقوب، المعروف بابن واضح الإخباري، المتوفى بعد سنة ٢٩٢هـ - تاريخ اليعقوبي -

الجزء الثاني - دار العراق، بيروت - ١٩٥٥م/١٣٧٥هـ - ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) الوبدية: هو التعبير الرئيسي عن الدين؛ وهو تراث شعبي أسبق من التراث الهندوسي.

الأسماء لم تكن إلا ألقابًا، وقد تغيرت هذه الأسماء الهندية في اللغة العربية، وانقلبت رأسًا على عقب؛ مثلما حدث مع الأسماء العربية في اللغات الأوروبية تمامًا.

أسماء الحكماء والأخبار

على أية حال، فإن أسماء الحكماء والأخبار من الهنود، التي وردت في الكتابات العربية، هي: بهله، منكه، بازيكر (بج-كر؟)، قليزفل (كلب رائ-كل)، سندباد. وهي أسماء ذكرها الجاحظ (٢٥٥هـ) في بيان، وقال: إن يحيى بن خالد البرمكي اجتلبهم من الهند إلى بغداد، وكانوا جميعًا من الأطباء والحكماء^(١). (الجاحظ، م ٢٥٥هـ، البيان والتبيين، ط ١، ج ١، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٧٠)

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة من بين هؤلاء الحكماء: (منكه)، وابن (بهله)، الذي قد يكون أسلم، وسمى صالحًا. وذكر ابن النديم اسمًا آخر، هو ابن (دهن)، وكان هؤلاء الثلاثة من مشاهير الحكماء الأطباء في بغداد آنئذٍ. وقد ذكر، في مكان آخر، أسماء العلماء الهنود الذين ترجمت كتبهم إلى العربية، وهم: "باكه"، راجه، منكه، داهر، انكو، زنكل، اريكل، حبه، اندي، جباري^(٢). ابن النديم - الفهرست - فن الثالث من مق السابعة - ص ٣٧٨

منكه أو منكا

كتب ابن أبي أصيبعة، في كتابه (تاريخ الأطباء)، أنه كان بارعًا في الطب، وماهرًا في العلاج. ولما مرض هارون الرشيد مرضًا شديدًا، وعجز أطباء بغداد عن علاجه، ذكر أحدهم (منكه) الطبيب؛ فأرسلوا له نفقات السفر، واجتلبوه، فشفي الخليفة بعلاجه، فأجزل الخليفة له العطاء، وكرمه وقربه، ثم عين في دار الحكمة؛

(١) الجاحظ - كتاب البيان - ١ : ٩٢، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون - مصر .

(٢) ابن النديم - الفهرست - ذكر كتب الطب و النجوم .

لينقل الكتب السنسكريتية إلى العربية^(١). أبقدورنا أن نقول: إن اسم منكه هو مانكـ؟

صالح بن بهله

كان من حكماء الهند المهرة، وعده ابن أبي أصيبعة في زمرة الأطباء الهنود البارعين الذين قدموا إلى بغداد، وحين أصيب بأزمة قلبية ابن عم الخليفة هارون الرشيد، فذكر طبيب البلاط المشهور (جبريل يختشيوخ)، اليوناني المسيحي، أنه هالك لا محالة. عرض جعفر البرمكي اسم هذا الحكيم الهندي، ونصح بالعلاج عنده، فعالجه الحكيم الهندي بصعوبة^(٢).

ابن دهن

كان مديرًا عامًا لبيمارستان البرامكة، وكان أيضًا من نقلة الكتب السنسكريتية إلى العربية^(٣) (ص ٣٧٨)، وقد حاول (زخاو)، في مقدمة كتابه (انديا)، تأصيل اسم (دهن)، فذكر أن دهن من كلمة (دهنيا) أو (دهنن)، وسبب اختياره غالبًا التشابه اللفظي بينه وبين كلمة (دهنوتري)، طبيب الآلهة في كتاب الهندوك المقدس (منوشاستر)^(٤).

هذا، وقد نقل علومًا شتى من السنسكريتية إلى العربية، كالحساب، والنجوم والطب، والفلك، والأخلاق، والقصص، والحكايات الأخلاقية، والسياسية والملك، والمسرحيات.

(١) تاريخ الأطباء - الجزء الثاني - ص ٢٣ - مصر، والفهرست - ابن النديم - ص ٢٤٥.

(٢) تاريخ الأطباء - الجزء الثاني - ص ٣٤ - مصر.

(٣) ابن النديم - الفهرست - ص ٢٤٣.

(٤) الترجمة الإنجليزية - المقدمة - ص ٣.

الحساب

لقد أقر العرب، واعترفوا اعترافاً صحيحاً، بنقلهم طريقة كتابة الأرقام الحسابية، من ١ إلى ٩، عن الهنود^(١). ولهذا أطلقوا عليها الأرقام الهندية، وقد أخذها الأوروبيون عن العرب، وأسموها الأرقام العربية (Arabic Figures). ولا نعرف على وجه اليقين، متى تعلم العرب هذه الطريقة من الهنود؟ ولكن ثمة اعتقاداً جازماً بأنه فى عام ١٥٦هـ، حين قدم الحكيم (سدهانت) إلى بلاط المنصور من السند، وهو الذى علم العرب هذه الطريقة. وفى اعتقادى - والكلام للمؤلف - أن كتاب (سدهانت) - الذى تمت ترجمته - يحتوى، فى بابه الثالث عشر، والرابع والعشرين، على نفس الأرقام الحسابية، التى عن طريقها راجت بين العرب.

وكانت الأعداد العربية تكتب بالفاظها فى البداية، ثم أخذت الأرقام تكتب بالحروف الأبجدية، أو ما يعرف بحساب الجمل، مثل اليهود والإغريق، وذلك قبل أن تروج بشكلها العربى المعهود الآن، وذلك للاختصار، ثم انتشرت قاعدة استخراج التواريخ من الحروف الأبجدية.

هذا، ويعد محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٨٤٩م) أول من صب الأرقام الهندية فى قالبها العربى المعروف. وفى دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشرة، مقال عن هذه الأعداد (المجلد ١٩، ص ٨٦٧)، فيه أشكال الأعداد الهندية القديمة، والأعداد الأوربية، منقولة عن الكتب والمخطوطات. ومنها يتضح كيف أخذت الأشكال الحسابية الهندية طريقها إلى العرب، ثم قوم شكلها العربى وعدله أحد علماء الفلك فى بلاط الخليفة المأمون بن الرشيد (٧٨٠م - ٨٤٠م). وهكذا،

(١) رسائل إخوان الصفا، والتى جمعت فى القرن الرابع - فصل: فى معرفة بداية الحروف، وخلاصة الحساب - بهاء الدين عاملى، طبعة كلكتا - ص ١٦، مع شرحها للمؤلف: عصمت الله. وكشف الظنون - جلبى. ومفتاح السعادة - طه شكرى زاده (علم الحساب). وكتاب الهند - البيرونى - ص ٩٣ - لندن.

وصلت إلى الأندلس، ومنها إلى أوروبا. وهناك أقسام خاصة بالرياضيات، تعرف في أوروبا باسم (Algorlthim-Algoritims-Algorism)، وهي أشكال معدلة لما وضعه الخوارزمي^(١).

وقد أطلق أهل الأندلس على هذه الأرقام الهندية اسم (حساب الغبار)، ولعل السبب الذي جعلهم يطلقون عليها غبارية؛ أن الهندوك كانوا ينثرون الغبار على ألواح الخشب، ويرسمون عليها الأرقام اللازمة لعملية الحساب، كما هو متبع الآن في مدارس القرى الهندية. والأعداد الأوربية مأخوذة من هذه الأعداد الغبارية.

والدليل على أن هذه الأعداد ليست عربية أن طريقة كتابتها تختلف عن الكتابة العربية؛ فهي تكتب من الشمال إلى اليمين، ولكن العرب يقرأونها من اليمين إلى الشمال^(٢). وقد نقل ابن النديم هذه الأرقام الهندية، تحت عنوان: القلم السندي، وأوضح طريقة كتابتها حتى العدد ألف (١٠٠٠). ويبدو أن هذه الطريقة قد راجت بين العرب على يد العلماء الهنود.

وبعد الخوارزمي، والذي كان في بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، يأتي على بن أحمد النسوي (٩٨٠م - ١٠٤٠م)، صاحب كتاب (المقنع في الحساب الهندي)؛ وهو الشخص الثاني من بين المسلمين، الذي أدى دورًا مهمًا في تطوير علم الحساب الهندي، ثم تلاه - أي كتاب النسوي - العديد من الكتب في

(١) دائرة المعارف البريطانية - الجزء التاسع عشر - ص ٨٦٧ - العمود الثاني.

(٢) لقد وريت في الفهرست، لابن النديم، من اليمين إلى الشمال. أنقلها ابن النديم خطأ، أم أن المؤلف يحاول إثبات صحة نظريته، علمًا بأن العرب أقرأوا بذلك؟

(*) ورد في "المنجد في الأعلام" (٥٧٢) أن للنسوي كتاب "المقنع في الحساب الهندي"، وكتاب "تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك" لقدري حافظ طوفان، كما ورد في "الفهرست" لابن النديم، فق ٧، ن ٢، كتاب "البحث في الحساب الهندي" لسان بن الفتح، وآخر للكلوذاتي، وكتاب "الحساب الهندي" لسند بن علي.

هذا الصدد. وعلى الرغم من أنه قد تم نقل الارتباط بين اليوناني قبله بكثير، أى فى عصر الخوارزمي^(١)، فإن هذا لم يغض من شأن الحساب الهندي ومكانته.

ومن العجيب أن الحساب الهندي قد حاز قبولاً لدى العامة، وقد تعلم أبو على بن سينا (٤٢٨هـ / ١٠١٥م)، الحكيم والفيلسوف المسلم، الحساب الهندي، فى طفولته، على يد بقال كان ماهراً فى الحساب: "وأخذ يوجهنى إلى رجل يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند، حتى أتعلمه منه"^(٢). (ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - ج ٣ - ط ٤ - ١٩١٧م - ص ٣).

النجوم والفلك

مر آنفاً أنه فى عام (١٥٤هـ / ٧٧٠م) تقريباً، اصطحب الوفد القادم من السند إلى بغداد^(٣)، أحد الحكماء الهنود معه، وكان مع هذا الحكيم كتاب فى الفلك، يسمى فى اللغة السنسكريتية "برهسبت سدهانت"، واشتهر فى العربية باسم (السند هند)، أما الكتاب السنسكريتى الثانى، المنقول إلى العربية، فكان (ارجهد)، وبالسنسكريتية (آريه بهت)، وأما الكتاب السنسكريتى الثالث، فكان (اركند) أو (اهرqn)، وإن كان الاسم الأول هو الأكثر شهرة وشيوعاً فى العربية، وأصله فى السنسكريتية هو (كهندا كهديك).

(١) فى دائرة المعارف الإسلامية، عدد ٢٢، عام ١٩١٦م، ص ٣١٥، معلومات جيدة عن هذا الموضوع باللغة الإنجليزية، فى مقال H.Suter، تحت عنوان الحساب، وبالعربية، فى كتاب محمد بن أحمد الخوارزمي (٣٨١هـ)، "حساب الهند فى مفاتيح العلوم"، وقد فصل القول فى ثلاث صفحات - ص ١٩٣ - طبعة لندن - ١٨٩٥م.

(٢) عيون الأنباء - الجزء الثانى - ص ٢ - مصر.

(٣) صاعد الأندلسي - طبقات الأمم - ص ٤٩ - بيروت.

وفى عام ١٥٤هـ، تم نقل الكتاب الأول (سدهانت)، بواسطة هذا الحكيم الهندى، الذى تتلمذ له اثنان فى بغداد، هما: إبراهيم الفزارى، ويعقوب بن طارق. وقد نقل هذان الاثنان كتاب (سدهانت) إلى العربية بأسلوبهما الخاص.

وبعلم الفلك الهندى، أمكن تقسيم الزمن، الذى يطلق عليه فى السنسكريتية (كلب)، إذ إنهم - أى الهنود - مثل الشعوب الأخرى، يعتقدون أن الكواكب السبعة السيارة: الشمس، والقمر، وزحل، والمشتري، وغيرها، قد ظهرت فى نقطة اعتدال واحدة، وتحركت فى وقت واحد، كل فى اتجاهه. وهى مستمرة فى مدارها، ثم تجتمع بعد ملايين السنين فى هذه النقطة، وهنا تقوم القيامة (تدمر الدنيا)، ثم تبنى مرة أخرى، وتبدأ الحياة ثانية، بين هاتين النقطتين. فعدد السنين الشمسية يطلق عليه (كلب)، وبحساب (برهمكيت)، فإن (الكلب) يساوى عشرين وثلاثمائة عام وأربعة بلايين عام، وعليه يمكن حساب الأيام. وقد أطلق العرب على هذا (الكلب) "سنى السند هند"؛ أى (سنة سدهانت)، وعلى الأيام (أيام السند هند).

وحيث إن حساب ملايين السنين وبلايينها كان أمرًا شاقًا، فقد أخذ العالم آريه بهت، أواخر القرن الخامس الميلادى، يسهل هذه العملية إلى الأجزاء من الوحدة الزمنية (كلب)، وأسس عليها نظامًا حسابيًا، أطلق عليه كلمة (جك)^(١)، أو (مهاجك)^(٢).

وقد أطلق العرب على كتاب (آريه بهت)، الذى يتحدث عن هذه الأصول، اسم (ارجبهر) أو (ارجبهذ)، وكلمة (جك) تعنى (سنى ارجبهذ)، وقد أخطأ العرب فهم المعنى السنسكريتى الأصلى (السند هند) و(ارجبهذ)؛ حيث فهموا أن معنيهما يتطابق مع الأسس نفسها التى وضعها (آريه بهت)؛ ففهموا، خطأ، أن معنى (السند

(١) ورد ذكرهما فى (فهرست) ابن النديم (من ٧ فن ٢)، ولم يذكر ابن النديم شيئًا عن تلميذتهما لحكيم هندى، أو غيره، وذكر أنهما من علماء الفلك والمنجمين، وغالبًا ما يذكر ابن النديم الأستاذ و تلاميذه، إن كان له تلاميذ، أو لهم شيوخ.

(٢) كلمة "جك" تعنى فى الأوردية: عالم أو دنيا، و"مهاجك" تعنى: العالم العظيم أو الكبير.

هند) (الدهر الداهر) أى (الزمن اللانهائى)، وأن معنى (ارجهبذ) هو الألف جزء. وقد قام أبو الحسن الأهوازى بنقل هذا الكتاب الأخير إلى العربية.

أما يعقوب بن طارق (١٦١هـ-)، فقد تعلم طريقة (اركند) (كهند أو كهنديك) من أحد العلماء الهنود، أو ممن قدموا إلى بغداد آنئذ. وهو أيضاً أحد كتب (برهمكيت)، إلا أن بعض أصوله أو قواعده تختلف عن (سدهانت). وعن هذه الكتب الثلاثة، شاع (سدهانت) بين أوائل علماء الفلك العرب. ويقال إنه ترجم إلى العربية بعد ذلك (كتاب المجسطي)، لبطليموس اليوناني، كما أقيم مرصد فى عهد الخليفة المأمون، وكثرت الأبحاث فى هذا الميدان.

وعلى الرغم من ذلك، ظل الفلكيون العرب، فترة من الزمن، متأثرين بهذا الكتاب الهندى (سدهانت)، من بغداد حتى الأندلس، وربما الأصح: يختصرونه ويشرحونه، ويصححون أخطاءه ويصوبونه. وظل هذا حالهم حتى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، أى حتى عهد (البيرونى).

وفى عهد الخليفة (المأمون بن الرشيد)، أعد (الخوارزمى) تقويمًا جمع فيه الأصول الإيرانية، واليونانية، والهندية، ولهذا أطلق على كتابه اسم (السند هند الصغير)^(١)، أى (السدهانت الصغير)^(٢).

(١) ورد فى (الفهرست) لابن النديم (من ٧، فن ٢)، أن للخوارزمى كتاب (الزيج) الأول والثانى، ويعرفان بالسند هند، لسختان أولى وثالية. وما قال كبيرًا وصغيرًا.

(٢) سدهامند، ارجهبذ، اركند، ورد ذكر كل هذا فى كل من (الفهرست) لابن النديم، والمسعودى، والقفطى، و(كتاب الهند) للبيرونى. وكل هذه الكتب أمانى، وقد ألقى العالم الإيطالى سينيور كراونليانو محاضرات بالعربية، فى الجامعة المصرية، عام ١٩٠٩-١٩١٠م، وذلك عن إسهامات العرب فى علم الفلك، وهذه المعلومات مأخوذة عن المحاضرات: ٢٢، ٢١، ٢٣؛ إضافة إلى كتاب "طبقات الأمم" لصاعد الأندلسى - ص ٥٠. كما أضيفت بعض المعلومات عن البيرونى.

وبهذه الطريقة، قام حسن بن الصباح، وحسن بن الخصيب، وفضل بن حاتم التبريزي، وأحمد بن عبد الله المروزي^(١)، والادمي، وعبد الله، وأبو الريحان البيروني، في القرن الثالث، والرابع، والخامس الهجري، بتصحيح وإكمال (سدهانت)، وبذلوا جهدًا كبيرًا، سواء بأبحاثهم الخاصة، أو بإضافة بعض الأصول اليونانية إليه.

وقد وصلت أصول (سدهانت) إلى الأندلس في القرن الرابع الهجري، ولخص مسلمة بن أحمد المجريطي^(٢) (من سكان مدريد)، المتوفى ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، تقويم الخوارزمي (السند هند الصغير)، ثم أعد أبو القاسم أصبغ، المعروف بابن السمع الأندلسي، المتوفى ٤٢٦هـ/١٠٣٥م، تقويمًا كبيرًا على أصول (السدهانت)، ثم أخذ الناس نتائج جديدة من الأبحاث القائمة على (السدهانت) توسعًا ومحافظةً على الأصل، كما كتب إبراهيم الزرقاني الأندلسي كتابًا باسم (الصفحة الزرقانية)، في الأسطرلاب.

وعن طريق العرب في الأندلس، وصل كتاب (سدهانت) إلى اليهود، ثم إلى أوروبا. وهكذا استعان إبراهيم بن عزرا اليهودي ببعض أصول (السدهانت)، عندما أعد تقويمًا بالعبرية^(٣).

(١) ورد اسمه في (الفهرست) (من ٢٧ فن ٢) حبس بن عبد الله المروزي الحاسب، ولم أجد اسم ابن حاتم التبريزي، وعبد الله، والبيروني؛ لأن زمانهم متأخر عن الفهرست (ربما).

(٢) لا يعرف من النص إذا كان المجريطي قد لخص الأصول الهندية من كتاب "سدهانت"، أم من المنقولة إلى العربية. فكل ما كتب عنه؛ هو أنه حكيم رياضي فلكي، ولد بمجريط، ومن آثاره: الرسالة الجامعة، المعاملات في الحساب، غاية الحكيم، الأحجار، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البناني. لمزيد من التفصيل، انظر: معجم المؤلفين، تراجم مصنفى الكتب العربية، تأليف: عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربى - ج ١١ - لبنان.

(٣) القفطي - ص ١٧٨ - مصر: علمًا بأن ابن عزرا قد ترجم كتاب (الزريج) للتباني أولاً، وهو شرح كتاب "الزريج" للخوارزمي، ثم ألف كتابًا في علم الفلك والتنجيم، متأثرًا بالثقافة العربية الإسلامية.

المصطلحات السنسكريتية واللغة العربية

لقد ارتقى علم الفلك العربى مراقى التقدم والتطور، وبلغ بفضل علماء العربية، وأبحاثهم الذاتية، مبلغ الكمال. بيد أن ثمة مصطلحين سنسكريتيين (هنديين) يفصحان عن أخذ العرب علم الفلك عن الهنود؛ إذ بالإضافة إلى "سدهانت"، وغيره من الأسماء، نجد فى علم الفلك العربى القديم مصطلحاً سنسكريتياً، ألا وهو "كروجه"، وأصله فى السنسكريتية "كرمجيا"، والذى نحت له فى العربية "الوتر المستوي"، فيما بعد.

أما المصطلح الثانى، فمازال مستعملاً فى علم الرياضيات والمثلثات العربيين حتى الآن، وهو "جيب"، وقد فهم خطأ أنه مشتق من الكلمة العربية "جيوب"، غير أنه معرب للفظ السنسكريتي "جيوا"، ثم استحدث منه، فيما بعد، مصطلحات جديدة، مثل: "جيب التمام"، "جيوب منكوسة"، "جيوب مبسوبة"، "ومجيب". وهكذا، أخذ هذا اللفظ القالب العربى، حتى إنه لا يشك شك أنه لفظ غير عربى.

أما آخر الألفاظ فهو كلمة "أوج"، والتى تعنى فى مصطلحات علم الفلك "الأعلى نقطة"؛ فإنها من اللفظ الهندى "أوج"، الذى صار فى العربية "بأوج"، بعد ذلك^(١).

ثم ساح هذا اللفظ فى العربية، والفارسية، والأردية، بمعنى "كمال"، مما لا يدع مجالاً للشك فى أن هذا اللفظ هندى؛ حتى أننا لا نجد له جذراً فى المعاجم العربية الأصيلة. ومثل ذلك تماماً، لفظ "جنس"، وهو من مصطلحات علم المنطق فى العربية، وهو معرب عن اللفظ اليونانى "جينس". ولكنه استعمل فى العربية

(١) يرى البعض أن أصل هذا اللفظ فارسى، من الكلمة "اوک"، كما ذكر الخوارزمى، فى "مفتاح العلوم"، ص ٢٢١، لندن. وهذا اللفظ موجود فى المعجم الفارسى القديم للطوسى، ولكن يُعتقد أن هذا اللفظ فى الفارسية منقول عن السنسكريتية أيضاً.

بمعانٍ متعددة، مثل: "جنس، ومجانسة، وتجنيس"؛ حيث لا نجد له أثرًا في العربية القديمة.

وهناك لفظان آخران جديران بالذكر؛ فقد استطاع العلماء الهنود حساب دائرة نصف النهار، من حركات النجوم التي تمر بمنتصف الكرة الأرضية، وكان منتصف الكرة الأرضية — في اعتقادهم — جزيرة (لنكا)، التي أطلق عليها العرب (سرنديب)، (سريلانكا الآن)، واعتقد الهنود أنها على خط الاستواء. وقد أطلق العرب على النقطة التي يتقاطع فيها خط نصف النهار مع خط الاستواء "قبة الأرض". وشرع جغرافيو الهند يقيسون من خط نصف النهار لهذه الجزيرة طول البلد. وعليه، أطلق جغرافيو العرب الأوائل على "لنكا" "قبة الأرض". وحيث إن الهنود يعتقدون أن خط نصف النهار في "لنكا"، يمر نفسه بمدينة "أجين" في (مالوا)، وذلك وفق طول البلد من هذه المدينة "أجين" في "السدهانت". وقد نطق العرب "أجين" "أزين"، معتقدين أن "أزين" هي "قبة الأرض"، ثم حذفت النقطة من حرف الزاى بعد ذلك، وأصبحت "أرين". ومن هنا، ظهر مصطلح الأرين؛ بمعنى محل الاعتدال، كما أشار الشريف الجرجاني، الفيلسوف المسلم الشهير، في كتابه "التعريفات" (١).

وثمة لفظ آخر استخدمه علماء الفلك الأوائل من العرب، ألا وهو "بذماسه"، وهو في السنسكريتية "اده — ماسه"، ومعناه "الشهور القمرية". ويعتقد بعض الناس، خطأ، أن الرياضيات والأعداد العربية منسوبة إلى الهند. ولا غرو أن يقع العالم الإنجليزي "فريدرك روسن" أيضًا في هذا الخطأ، حين نشر كتاب "الجبر والمقابلة" للخوارزمي، عام ١٨٣١م، في لندن (٢). مع مراعاة أن هذا اللفظ (بذماسه) معرب

(١) انظر: المحاضرة المذكورة، ص ١٥٥ — ١٦٨، مع الهوامش، ثم انظر: "سواء السبيل"، ومستر ارنلد، تحت كلمة "جيب" و"اوج"، و"تعريفات" الجرجاني، ص ٧، طبعة مصر، ١٣٠٦هـ.

(٢) الجبر والمقابلة للخوارزمي — المقدمة الإنجليزية — ص ١٩٦ — ١٩٧، ١٨٣١م — لندن.

عن الكلمة الفارسية "اندازه"، التي أصبحت مصدرًا في العربية "هندزة وهندسة"^(١)، واستخدم بمعنى "الهندسة".

ثم أخطأ المتأخرون من أهل اللغة الفارسية والأردية، ونطقوها "هندسة" بكسر الهاء، وقصدوا بها العدد، أما النطق الصحيح فهو "هندسة" بفتح الهاء، وأطلق اللفظ في العربية على المهندس، لا من يعرف الحساب والأعداد^(٢).

الهنود وبحثن حديثان

لقد نقل العرب مسائل كثيرة في علم الفلك عن الهنود، من بينها أمران يتطابقان تمام المطابقة مع الأبحاث الحالية؛ حيث برهن (برهمكيت) أن السنة ٣٦٥ يومًا، و٦ ساعات، و١٢ دقيقة، و٩ ثوان. وفي العصر الحديث أيضًا: السنة ٣٦٥ يومًا، و٦ ساعات، و٩ دقائق، و٩.١٣ من الثانية. وكذلك مسألة (حركة الأرض)، فقد قال (آريه بهت) ومناصروه بحركة الأرض، وقد أنكر (برهمكيت) صحة هذه النظرية، التي توصل إليها (آريه بهت)، بينما هي نفس النظرية التي تروج بين الناس في العصر الحالى.

(١) محمد الخوارزمي - مفاتيح العلوم - ص ٢٠٢ - لندن. وهذا هو نص عبارة الخوارزمي: "وأما الهندسة فكلمة فارسية معربة، وفي الفارسية اندازة؛ أى المقادير" الخاثر ١١٨ - مفاتيح العلوم - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - ٢٠٠٤م - ص ٢٠٢.

(٢) اعتقد أن السيد (سليمان الندوى) لم يرجع إلى المعاجم العربية؛ ليرى معنى الهندزة والهندسة، وإن كانت كلمة (مهندس) بمعنى الملم بعلم من العلوم الهندسية، فهو تطور لغوي، أما أصل الكلمة، فمن يقدر القنى والأبنية، وينشئها على أساس، والهندسة علم رياضى يبحث فى الخطوط والأبعاد والسطوح والزوايا والكميات والمقادير، إلى غير ذلك. ونظن ظنًا أن المؤلف يحاول إعلاء بنى جلده، ويحتال على ذلك بأى شيء، والله أعلم!

الطب

الفن الثالث الذى أخذه العرب عن الهند هو الطب. وقد نقل عن السريانية واليونانية بعض كتب الطب إلى العربية، فى عصر الدولة الأموية^(١)، ثم تطور هذا الأمر تطوراً كبيراً، فى عصر الدولة العباسية. وكانت البداية - كما ذكرنا آنفاً - حينما استدعى من الهند طبيب، اسمه (منكه) أو (منكا)؛ لعلاج هارون الرشيد، فتحسنت صحة الخليفة على يديه، وهكذا أولت الدولة العباسية اهتماماً كبيراً بالطب الهندي. وقد شارك (البرامكة) فى هذا الاهتمام بشكل كبير، فعينوا أحد الأطباء الهنود مشرفاً أعلى لبيمارستانهم^(٢). كما أحضر يحيى بن خالد البرمكى خبيراً فى الأعشاب الهندية^(٣)، وعين أحد الحكماء الهنود فى (بيت الحكمة)؛ لكى يترجم الكتب الطبية السنسكريتية إلى العربية^(٤). وأرسل الخليفة موفق بن العباس شخصاً إلى الهند؛ للبحث عن الأدوية الهندية^(٥)، فى القرن الثالث الهجري^(٥). وقد ذكر (زخاو) هذه الواقعة، فى مقدمة كتابه (تاريخ الهند)، بيد أننى لم أقع على هذه الواقعة فى أى كتاب من كتب التاريخ العربى، وكل ما رأيته أن ثمة واقعة جاء ذكرها ضمنياً؛ وهى أن الخليفة المعتمد على الله أبو العباس (٢٢٩ - ٢٧٩هـ)،

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - تذكرة ماسرجويه، مختصر الدول، لأبى فرج الملقى - ص ١٩٢ بيروت.

(٢) ابن النديم - الفهرست - ص ٢٤٥.

(٣) أيضاً - ص ٢٤٥.

(٤) أيضاً - ص ٢٤٥.

(٥) هذه القصة ورد ما يماثلها عن كسرى أنوشيروان، وأنه أرسل برزويه المتطبيب للبحث عن دواء أو عشب فى الهند، يهب الحياة للموتى؛ ثم بعد بحث وتمحيص، وجد برزويه أن هذا العشب هو كتاب "كليلة ودمنة"، وقد وردت هذه الرواية فى الترجمة اللاتينية المنقولة عن العبرية، بعنوان "منهج الحياة البشرية" *Directurium Vitae Humanae*.

(٥) مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب "الهند" - زخاو - ص ٤٠.

قد أرسل أحمد بن خفي الديلمي - الذي كان ماهراً في علم الحساب - إلى الهند في بعض الأمور^(١).

ومعلوم أيضاً أن ثمة علاقات كانت بين الخليفة المعتمد على الله، والهيئات العلمية في السند، وعندما وقعت حادثة خسوف القمر والزلازل، في شوال ٢٨٠هـ، بالديبل، عاصمة السند، وراح ضحيتها ١٥٠ ألفاً من المواطنين؛ نقل الكتبة على الفور هذا الخبر إلى بلاط الخلافة^(٢).

ترجمة الكتب الطبية

لقد حظى اثنان من كتب الهند في الطب بشهرة واسعة في لغة العرب؛ ألا وهما:

١- كتاب (ششرت)، الذي فسرّه العرب، وعرف باسم (سسردي)، وهو عشرة مقالات، وفيه تفصيل الأمراض؛ أعراضها وعلاجها، والأدوية الخاصة بها. وقد ترجمه "منكه"؛ تلبية لرغبة يحيى بن خالد البرمكي، حتى يكون قاعدة العمل الطبي في البيمارستان الخاص بالبرامكة.

٢- كتاب (جوك)، كتبه أحد الحكماء الهنود المهرة في الطب، وقد نقل هذا الكتاب أولاً إلى الفارسية، ثم نقله عبد الله بن علي الفارسي إلى العربية^(٣).

(١) سوانح حسين بن منصور حلاج - آز طبقات سن باكويه شيرازي مرتين Louis Massignon - باريس - ١٩١٤م - ص ٤٤.

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص ٣٨٠ - كلكتا. وهذا هو نص عبارة السيوطي: "وفي أيامه، دخل الزنج البصرة وأعمالها وأخربوها... ثم أعقبه هزات وزلازل، فمات تحت الردم آلاف من الناس، واستمر إلى سنة... وذكر الصولي أنه قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف آدمي" السيوطي - ٩١١هـ - تاريخ الخلفاء - تحقيق: عبد القادر عطا - ط ٣، بيروت - ص ٣١٢.

(٣) ابن النديم - ص ٣٠٣.

٣- وثمة كتاب ثالث، اسمه (سند ستاق) - كما ورد عن ابن النديم - وعند اليعقوبى اسمه (سند هشان)، وفي نسخة أخرى من هذا الكتاب (سند هستان)، ولعل أصله السنسكريتى هو (سند هستان) أو (سنديسن)، وذكر ابن النديم أن معناه فى العربية (صفوة النجح)، وقال اليعقوبى (صورة النجح). ونعتقد أن الصحيح ما ورد عند اليعقوبى. وعلى أية حال، فقد ترجمه ابن دهن، المسئول الأول فى بیمارستان بغداد^(١).

٤ - ذكر اليعقوبى أن الكتاب الرابع هو (ندان)، ولم يرد عند ابن النديم شيئاً عنه، وفيه إيضاح أربعمئة مرض، وأربعة أمراض، دون ذكر لعلاجها^(٢). (اليعقوبى - م ٢٩٢هـ - تاريخ اليعقوبى - ج ١ - بيروت - ١٩٥٥م - ص ١٠٨).

٥ - كما ترجم كتاب آخر، فيه ذكر الأسماء المختلفة للأعشاب، وفيه عشرات الأسماء لعشب واحد^(٣). وقد نقله الحكيم (منكه) لسليمان بن إسحاق^(٤).

٦ - وآخر فيه تفصيل لأدوية أطباء الهند واليونان، والتغيرات التى تنشأ نتيجة تقسيم السنة إلى فصول^(٥).

٧- وقد ذكر ابن النديم كتاباً آخر فى الطب الهندى، اسمه (استانكر)، ترجمه ابن دهن.

٨ - وتحت اسم (نوکشنل)، أحد حكماء الهند، يرد كتابان: فى أحدهما ذكر مائة داء، ومائة دواء، وفى الثانى، توهم الأمراض وعللها.

(١) ابن النديم - ص ٣٠٣، واليعقوبى - الجزء الأول - ص ١٠٥.

(٢) اليعقوبى - الجزء الأول - ص ١٠٥.

(*) ورد عند ابن النديم كتاب "أسماء عقافير الهند".

(٣) ابن النديم - ص ٣٠٣، واليعقوبى - الجزء الأول - ص ١٠٥.

(٤) اليعقوبى - الجزء الأول - ص ١٠٥.

٩- ترجمة كتاب حكمة هندية، اسمها (روسا)، فى علاج الأمراض الخاصة بالنساء.

١٠- وكتاب آخر فى علاج الحبالى.

١١- وكتاب مختصر عن الأعشاب، وكتب فى بيان السكر^(١).

وقد كتب المسعودى أحد كتب الطب؛ فقال: لقد كتب (لراجا كورش) كتاباً ضخماً فى الطب، ذكر فيه معرفة أسباب الأمراض، والدواء والعلاج، كما ذكر وصفاً لشكل الأعشاب وصورها^(٢). المسعودى - ج ١ - ص ٨٢

١٢- وقد ذكر ابن النديم اسم كتاب آخر، فى بيان الأشربة^(٣)، وقد نسبته إلى حكيم اسمه (انتري). وعند ابن النديم يرد اسم عالم آخر، هو (ساورى)^(٤)، وقد يكون اسمه الأصلي (سيتاورمن)، الذى ذكر البيرونى كتابه باسم (ستيا)^(٥).

وفضلاً عن هذه الكتب، تم ذكر لبعض الآثار الهندية والسنسكريتية، الموجودة فى الطب العربى حتى الآن. ولكننا لن نذكر تلك الآثار، التى كانت فى ظل الحكم الإسلامى للهند؛ إذ كان لها بحث مستقل. وسيفتصر حديثنا عن الآثار التى وقعت فى الطب العربى، حتى القرن الرابع الهجرى. وسنبداً قولنا بالعقاقير الهندية، التى جلبها العرب؛ إذ أرسل الخلفاء (البرامكة) رجالاً للبحث عنها. والكثير من أسماء هذه العقاقير ليس هندياً من حيث المنشأ فقط، وإنما هو هندي من ناحية اللغة أيضاً؛ إذ على الأقل، هناك عقاران منسوبان إلى الهند، قد راجا بين

(١) الكتب السبعة المذكورة - جاءت فى كتاب ابن النديم - ص ٣٠٣، ملحوظة: ذكر ابن النديم اثني عشر كتاباً، لا سبعة فقط.

(٢) المسعودى - المجلد الأول - ص ١٦٢ - باريس.

(*) الكتاب تحت رقم ١١، عند ابن النديم، وهو كتاب "راى الهندى فى أجناس الحيات وسمومها".

(٣) ابن النديم - ص ٢٠٥.

(٤) مقدمة كتاب زخاو "انديا" - ص ٣٣.

العرب، إبان عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهما: القسط الهندي^(١)، والزنجبيل (زرنجابير). وقد ورد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم. وقد سبق أن أوردنا أسماء بعض هذه العقاقير، في الباب الخاص بالعلاقات التجارية.

وفي العربية لفظان: أحدهما اسم عقار، والآخر اسم غذاء؛ وهذا أمر عجيب جداً، إذ نجد اسم العقار (اطريفل)، الذي طبقت شهرته الآفاق، وراج على لسان كل مريض وطبيب.

وقد كتب محمد الخوارزمي، في القرن الرابع الهجري: "إن هذا اللفظ من الكلمة الهندية ترى ابهل (ترى بهل)، وهو ثلاثة أخلاط: أهليلج، أصفر، بليلج"^(٢). (الخوارزمي، ص ١٧٦).

وهناك نوع آخر من العقاقير، اسمه (ابنجات)، ويقول الخوارزمي: "الآنبه (مانجو) هي ثمرة بالهند، ويعد عن طريق خلط الليمون والهيلة، وغالبًا ما يطلق عليه (كرانبه)؛ أي: مخلول أو مربى المانجو". والأشدّ عجبًا من هذا كله كلمة (بهطه)، التي فسرّها الخوارزمي بقوله: "البهطة، وهي كلمة سنديّة، هي الأرز، يطبخ باللبن والسمن. إنه نوع من غذاء المرضى، يعد عن طريق طهي الأرز باللبن والسمن، والكلمة سنديّة"^(٣) (ص ١٧٧).

والآن، عرفت أن الأرز باللبن، أي المهلبية الهندية، أصبحت عند العرب غذاءً ليناً خفيفاً للمرضى. والآن يعرف على أنه كهير (أرز باللبن) أو (فرنّي).

البيطره: نقل إلى العربية كتاب الحكيم الهندي شاناق (جانك)، في علاج الدواب^(٤).

(١) صحيح البخاري - الجزء الثاني - ص ٨٤٩ - كتاب المرضى.

(٢) الخوارزمي - مفاتيح العلوم - ص ١٨٦.

(٣) الخوارزمي - مفاتيح العلوم - ص ١٨٦.

(٤) الخوارزمي - مفاتيح العلوم - ص ١٧٧.

النجوم والتنجيم - والفأل والزجر

ومما هو معلوم للكافة، ارتباط هذه العلوم بالهند؛ إذ انتشرت هذه العلوم منذ تولى الخلافة (المنصور)، الخليفة العباسي الثاني، عام ١٤٧هـ؛ فقد شغف المنصور بهذه العلوم شغفاً كبيراً، وعندما أنشأ مدينة بغداد، أعدها، وما حوت، وفق حساب المنجمين. وكان المنجمون الإيرانيون يسيطرون على بلاط الخليفة، في البداية، ثم رسخت أقدام المنجمين الهنود، فيما بعد.

وفي عهد (المنصور)، ترجمت الكتب الهندية الخاصة بهذا الفن، وكان (كنكه) من بين المنجمين الهنود المشهورين، وقد كتب ابن أبي أصيبعة: "حكيم بارع من متقدمي حكماء الهند وأكابرهم، وله نظرة في صناعة الطب، وقوى الأدوية. وقال أبو معشر، جعفر بن محمد بن عمر البلخي، في كتاب الألف: إن كنكة هو المقدم في علم النجوم، عند جميع العلماء من الهند في سالف الدهر، وكان من أعلم الناس بهيئة العالم، وتركيب الأفلاك، وحركات النجوم"^(١).

ويرى (زخاو) أن أصل هذا الاسم (كنكنايا)، وهو اسم أحد أطباء الهند المعدودين، وكان مرجعاً في علم العقاقير الهندية^(٢). وقد ذكر له ابن النديم أربعة كتب^(٣):

١- كتاب: النمودار في الأعمار.

٢- كتاب: أسرار المواليد.

٣- كتاب: القرانات الكبير.

٤- كتاب: القرانات الصغير.

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء - الجزء الثاني - ص ٣٣ - مصر .

(٢) مقدمة كتاب "انديا" - ص ٣٢.

(٣) مقدمة كتاب "انديا" - ص ٢٧٠.

وذكر ابن أبي أصيبعة^(١) أنه كتاب في الطب، ولكن ابن النديم ذكره في كتب المنجمين، وقد يكون في الفنين (الطب والتنجيم)؛ إذ إن أحوال النجوم كان لها شأن كبير في الطب، وقد ذكر له ابن أبي أصيبعة كتابين آخرين:
٥- كتاب: التوهم.

٦- كتاب: في أحداث العالم والدور في القران. وهو المؤلف الذي نقل أبو معشر البلخي المنجم (٢٧٢هـ/٨٨٦م)، أنه (كنكا) من أكابر علماء الهند في التنجيم، ومن متقدمي حكمائها. (ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء - ج ٣ - ط ٤ - بيروت ١٩٨٧م - ص ٤٩).

وقد كتب عطار بن محمد المنجم (القرن الثاني الهجري تقريباً) كتاباً في التنجيم الهندي^(٢). كما ذكر ابن النديم - فضلاً عن كنهه - أسماء ثلاثة من المنجمين الهنود^(٣):

١- جودر الهندي، وله كتاب الموالييد.

٢- نهق الهندي (نهك أو ناهك)، وله من الكتب (أسرار المسائل)، وقد نقل إلى العربية كتاباً هندياً عن خطوط الكف، والنظر في اليد^(٤)، ثم كتاباً آخر (زجر الهند)، عن الطالع الهندي^(٥).

٣- صنجهل الهندي (سنكهل)، وله كتاب: الموالييد الكبير، واسم (سنكهل) قد ذكره البيروني أيضاً، في حديثه عن النجوم^(٦).

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء - الجزء الثاني - ص ٣٣ - مصر.

(٢) ابن النديم - ص ٢٢٨ : في إحدى نسخ الفهرست، أنه فسر كتاب الهندي.

(٣) ابن النديم ص ٢٧١.

(٤) ابن النديم ص ٣١٤.

(٥) ابن النديم ص ٣١٤.

(٦) كتاب الهند ص ٧٦.

علم الحيات

إن الهنود مشهورون في معرفة الحيات، وأنواعها، وتعاويذها، وتمائمها، ورقاها، وهي عندهم تعرف باسم (سروب وديا)، أي (علم الحيات). وقد تم ترجمة كتاب السيد (رائ-)، أحد علماء الهند في هذا الفن، وفيه شرح لأنواع الحيات، وسمومها^(١). وقد ورد اسم كتاب آخر للهند في هذا الفن^(٢). ج ٣ - ص ٥٠

علم السموم

لقد نالت الهند في هذا الفن شهرة واسعة، وقد ورد في كتاب (آثار البلاد والباقية)، للقزويني، اسم العشب (بيش)^(*)، وذلك في معرض حديثه عن الهند. كما ذكر قصة عجيبة، عن موت أحد الملوك بواسطة هذا العشب؛ حدثت تحت غطاء الصداقة. وكانت معرفة (علم السمومات) ضرورية للملوك؛ من أجل سلامتهم، والحفاظ على أرواحهم.

وكتاب العالم شاناقي (جانك-)، في تدبير الحرب (بالعربية)، والمذكور آنفاً، آخر أبوابه عن الطعام والسم. ويبدو أن ثمة كتاباً آخر سواه، خاص ببيان أنواع السموم، وكان معروفاً في العربية، حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)؛ إذ إن ابن أبي أصيبعة (٦٦٨هـ/١٢٧٠م)، قد وصف هذا الكتاب وصفاً كاملاً، فقال: "ولشاناقي من الكتب "كتاب السموم"، خمس مقالات، فسرّه من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي (منكة) الهندي، وكان المتولى لنقله بالخط الفارسي رجل يعرف بأبي حاتم البلخي، فسرّه ليحيى بن خالد بن برمك، ثم نقل للمأمون، على يد العباس بن سعيد الجوهري، مولا...^(٣). (ج ٣، ص ١٥١).

(١) ابن النديم ص ٣٠٣.

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ص ٣٣ - مصر.

(*) لفظ (بيش) هذا هو (بش) بالهندية؛ ومعناه (السم).

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ص ٣٣.

وفى كتاب (الفهرست)، لابن النديم، ورد ذكر كتاب آخر فى مجال السموم، مجهول المؤلف، مترجم من الهندية إلى العربية^(١).

الموسيقى

لقد مر بنا آنفاً، إشادة الجاحظ (٢٥٥هـ) بموسيقى الهند، وخاصة (الربابة)، الآلة الهندية ذات الوتر الواحد. وليس فى مؤلفات بغداد أى ذكر لكتاب عن الموسيقى الهندية. لكن العالم، والمؤرخ، والقاضى، صاعد الأندلسى (٤٦٢هـ / ١٠٧٠م)، كتب يقول: "ومما وصل إلينا من علومهم فى الموسيقى الكتاب المسمى بالهندية "نافر"، "وتفسيره: "ثمار الحكمة، فيه أصول اللحن، وجوامع تأليف النغم"^(٢). ص ١٤

وليس مستبعداً أن يكون هذا الاسم من الفارسية (نومبر)، التى تعنى (الثمرة الطازجة)، ثم نقل هذا الكتاب من الفارسية إلى العربية. لكن صديقى الهندوكى، المنسوب إلى (نافر)، يقول: قد يكون من الكلمة السنسكريتية (ناو)، التى تعنى (صوت).

المهابهارتا

هناك كتاب فارسى، فى تاريخ الهند القديم، يعرف بـ (مجل التواريخ)، موجود فى مكتبة باريس، يحتوى على الكثير من قصص (المهابهارت). وقد ورد فى مقدمة الكتاب، أن أبا صالح بن شعيب قد نقله من اللغة الهندية (السنسكريتية) إلى العربية، ثم ترجم مرة أخرى، على يد أبى الحسن على الجبلى، الذى كان أميناً لمكتبة أحد أمراء الديالمة، عام ٤١٧هـ، وقد لخصه (البيت) إلى حد ما^(٣).

(١) ابن النديم - الفهرست - ص ٣١٧.

(٢) الصاعد الأندلسى - طبقات الأمم - ص ١٤ - بيروت.

(٣) البيت - تاريخ الهند - المجلد الأول - ص ١٠٠.

السياسة، الحرب، الإمارة

يوجد، فى هذا المجال، كتابان لعالمين من حكماء الهند، قد تم نقلهما من السنسكريتية أو (البالي)^(*) إلى العربية؛ أحدهما يسمى (شاناق)، والثانى (باكهـ) أو (باجهـ)، وربما كان اسم الأول (جانكـ)، والثانى (وياكهـ). ومضمون الكتاب الأول (جانك): تدبير الحرب، وما ينبغى على الملك أن يتخذ من الرجال، وفى أمر الأساورة، والطعام والسم^(١). أما (باجهر) فهو فى دراسات السيوف، ونعتها وصفاتها، وسومها وعلاماتها^(٢).

كما ترجم كتاب آخر من السنسكريتية إلى العربية، يعرف باسم (آداب الملوك)، ترجمه: أبو صالح بن شعيب، ولم يعرف زمن تأليفه، ولا تتوفر لنا حاليًا إلا ترجمته الفارسية، التى قام بها: أبو الحسن بن جبلى، عام ٤١٧هـ^(٣).

الكيمياء

أصل صناعة الكيمياء القديمة، فثمة ذكر لترجمة أحد كتب علماء الهند فى هذا الفن، عند ابن النديم^(٤). وعنده أيضًا كتاب (إلى خاطف)، المنسوب إلى حكيم هندي^(٥)، وإن كان اسمه محل شك كبير.

(*) البالي: إحدى لهجات اللغة السنسكريتية، التى استخدمت فى العصر البوذي، القرن الخامس قبل الميلاد.

(١) ابن النديم - ص ٣١٥.

(٢) ابن النديم - ص ٣١٥.

(٣) البيت - المجلد الأول - ص ١١٢.

(٤) ابن النديم - ص ٣٥٣. ورد ذكر أحد الفلاسفة الذين تكلموا فى الصنعة (الكيمياء)، باسم: خاطف

الهندي الإفرنجي فى رواية، وفى أخرى: خاطف الهذلي الأمونجي (المقالة العاشرة). كما أننى وجدت من كتب جابر بن حيان، كتاب (إلى خاطف)، لا كتاب (الخاطف).

(٥) ابن النديم - ص ٣٥٩.

حدود المنطق

ورد في كتاب (الفهرست)، لابن النديم، ذكر أحد الكتب الهندية، المنقول إلى العربية، هكذا: (كتاب حدود منطق الهند)^(١).

غير أن اليعقوبي، الذي كان متقدماً على ابن النديم بمائة عام، قد ذكر هذا الكتاب ضمن كتب المنطق والفلسفة، باسم "طوفاني علم حدود المنطق"^(٢).

فما المراد بالمنطق هنا؟ المعنى الاصطلاحي، أم المعنى اللغوي؟ أم أنه كتاب حكايات؟ أم في الأخلاق والأدب؟ أم المقصود الإخبار عن الحدود التي ينبغي على الإنسان اتباعها، أثناء الحديث؟ بمعنى: متى يتحدث؟ ومتى لا يتحدث؟ وكيف يتكلم؟ وقد ذكر ابن النديم هذا الكتاب، تحت عنوان (أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث)، فيتضح من هذا، أن الكتاب ليس من المنطق في شيء.

المعاني والبيان

كتب الجاحظ (٢٥٥هـ)، في كتابه (البيان والتبيين):

"قال معمر أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندي، أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند؛ مثل: منكة، وباريكر، وقلبرقل، وسندباد، وفلان، وفلان: ما البلاغة عند الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكن لا أحسن ترجمتها، ولم أعالج هذه الصناعة، فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها"^(٣).
ج ١ - ص ٧٠. وقد لخص الجاحظ هذه الرسالة في صفحة، وضح فيها: ما أوصاف الخطيب، وما المقام والمقال لخطابته؟

(١) ابن النديم - ص ٣٠٥. إن كتاب "حدود منطق الهند" من كتب الهند في الخرافات (المقالة الثامنة - ١)، لا في علم المنطق المعروف.

(٢) اليعقوبي - ص ١٠٥.

(٣) الجاحظ - البيان والتبيين - الجزء الأول - ص ٤٠ - مصر.

الرقى والشعوذة والسحر

أحد الفنون الهندية القديمة المشهورة. فأينما تولى وجهك شطر الكتب العربية، تجد ذكرًا لخصائص الهند. وسوف تجد، بشكل خاص، ذكرًا للسحرة والمشعوذين. يقول ابن النديم: (وللهند اعتقاد فى ذلك، وأفعال عجيبة)، ثم يقول أيضًا: (وللهند خاصة علم التوهم، ولها فى ذلك كتب، وقد نقل بعضها إلى العربية). ولعل المقصود بالتوهم هنا، ما يعرف اليوم بالتتويم المغناطيسى (أو السحر)^(١). وقد كتب اليعقوبى فى معناه ما يلي: (وأن الطبيعة تنصرف إلى ما تتوهمه، فما توهمت أنه ينفعها نفع، وإن كان ضارًا)^(٢)، وكتب أن مصدر هذا العلم ملك اسمه (كيهن). (ج ١ - ص ١٠٠).

ويذكر ابن النديم واحدًا ممن لعب بالشعوذة، والطلسمات، والتيرنجات، لم يستطع المحرر أن يقرأ اسمه، فسطر خطأ وتركه. ومن الواضح أنه (سلسلة الهندى)، ثم قال: إن مذهبه فى التيرنجات، والشعوذة، والسحر، مذهب الهند، وله كتاب، سلك فيه مسلك أصحاب التوهم^(٣).

الأسمار والخرافات

فى هذا الفن، نقلت بعض الكتب الهندية إلى العربية، ومنها كتابان باسم (كتاب سندباد الحكيم)، وهو نسختان: صغيرة، وكبيرة. ويعتقد البعض أنه من تأليف الفرس، بينما يقول ابن النديم: "والغالب، والأقرب إلى الحق، أن يكون الهند صنعته". وقد يكون هذا الكتاب، مثل غيره من الكتب، ترجم إلى الفارسية أولاً، ثم نقل بعد ذلك إلى العربية من الفارسية، وعليه، يخيل للناس أنه فارسي.

(١) ابن النديم - ص ٣٠٩.

(٢) اليعقوبى - الجزء الأول - ص ١٠٠.

(٣) ابن النديم - الفهرست - ص ٣١٢.

وفى (ألف ليلة وليلة) قصتان لسندباد: سندباد البحري، وسندباد البري، وفيهما تاجر يسمى (سندباد)، يسافر فى البحر، وذكر لوقائع غريبة وعجيبة، فى الرحلة البرية. ومن لفظ سندباد، شك البعض^(١) أن تكون قصته نفس القصة الهندية، لكن ذلك ليس صحيحاً؛ فأولاً: كان سندباد حكيماً^(٢)، بينما فى (ألف ليلة وليلة) تاجراً؛ وثانياً: فإن قصة رحلة السندباد، فى (ألف ليلة وليلة)، لا تتوافق إطلاقاً مع ذكاء السندباد وأحواله. وقد ذكر المسعودى^(٣) أجزاء هذه القصة، هكذا: "سبعة وزراء، وكاهن، وولد، وقصة أميرة"، وهذا لا يتطابق مع سندباد الوارد فى (ألف ليلة وليلة).

وفضلاً عن هذا، فثمة بعض القصص الهندية، نقلها العرب، ومن بينها قصة (ديبى هندی)، فى الرجل والمرأة، وقصة هبوط آدم - عليه السلام^(٤). ونكاد لا نعرف إلى أى أسطورة من الأساطير تشير هذه القصة. وهناك قصة أخرى عن ملك الهند؛ فيها تفصيل عن القتال والسياسة. وأخرى عن هنديين: أحدهما جواد، والآخر بخيل، والاحتجاج بينهما، وقضاء ملك الهند فى ذلك^(٥).

وهناك كتاب آخر باسم (نرياجرتى) "مكر النساء"، وقد ترجم إلى العربية، ومؤلفه راجاكوش^(٦). وكتاب آخر بعنوان (علم الهند) "حكم الهند"، وقد ترجم هذا الكتاب نثراً، ثم نقل إلى الشعر^(٧). حيث نقله أبان اللاحقى نظماً، ثم إننا نجد فى (رسائل إخوان الصفا) العديد من القصص والحكايات الهندية، مبنوثة بين ثناياها.

(١) رسائل شبلى - ص ٢٦٣ - الطبعة الأولى - مقالة التراجم.

(٢) الفهرست - ص ٣٠٥ - سطر ٢ ، ٢٠ ، واليعقوبى - الجزء الأول - ص ١٠٥.

(٣) المسعودى - مروج الذهب - الجزء الأول - ص ١٦٤ - لندن. وهذا هو نص المسعودى: "وكان فى مملكته وعصره سندباد، دون له كتاب الوزراء السبعة، والمعلم، والغلام، وامرأة الملك" ج ١ - ص ٨٢.

(٤) ابن النديم - الفهرست - ص ٣٠٥.

(٥) الفهرست - ابن النديم - ص ٣٠٥. لم يشر ابن النديم إلى أن هاتين القصتين نقلتا إلى العربية.

(٦) تاريخ اليعقوبى - الجزء الأول - ص ١٠٥.

(٧) ابن النديم - ص ١١٩، وغالباً هو كتاب "كليلة ودمنة"، الذى سيرد ذكره.

الآداب والحكم

كان منهج الحكماء الأوائل هو شرح الآداب والحكم والمعارف، فى شكل قصص وحكايات، تجرى على لسان الحيوانات والطيور، وفى السنسكريتية كتاب خاص، نال شهرة واسعة فى هذا المجال، ألا وهو (كليلة ودمنة). ووفقاً لما قاله البيرونى، فإن اسمه فى السنسكريتية (بنج تتر)؛ أى: الأسفار الخمسة.

وقد ترجم هذا الكتاب من السنسكريتية إلى الفارسية قبل الإسلام، فى عصر الساسانيين، ثم نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية، أواسط القرن الثانى الهجري، وكانت ترجمته أهم الترجمات، وواسطة نقله إلى سائر اللغات الحية. وقد ذاع صيتها، فقدرها الحكام والأمراء، وطبقت شهرتها الآفاق، وظل ينقل من العربية إلى الفارسية، ومن الفارسية إلى العربية، ومن النظم إلى النثر، ومن النثر إلى النظم، وحاز النقلة قصب السبق، وأخذوا العطايا من الخلفاء والوزراء؛ إذ فى أواخر القرن الثانى الهجري، وعندما قام الشاعر العربى ابان اللاحقى بنظمه إلى العربية لجعفر البرمكى (وزير هارون الرشيد)، أجازره بمائة ألف درهم^(١). وقد نقل من العربية إلى سائر لغات الدنيا؛ إذ لا توجد لغة من اللغات الحية إلا وترجم إليها. وإن نقل هذا الكتاب، ومعارضته أو محاكاته، ليشكل تاريخاً مستقلاً.

وقد ألقى الدكتور سيد على بلجرامى محاضرة تفصيلية، عام ١٨٩١م، بالأردية، عن هذا الكتاب، فى مؤتمر التعليم الإسلامى، الذى أقيم فى مدينة (على جره). وهناك مقال آخر لكاتب هذه السطور عن هذا الكتاب، منشور فى مجلة (على جره) الشهرية، وربما يكون قد نشر عام ١٩٠٥م، أو قبل هذا التاريخ، أو بعده بعام ونصف.

وواضع هذا الكتاب هو (بيدبا الحكيم)، كتبه للملك (دبشليم)، فيه كل ما يحتاج إليه الناس فى معاملاتهم، عن طريق الحكايات والقصص، والنصح على

(١) جهشيارى - كتاب الوزراء والكتاب - طبعة فيينا (النمسا) - عام ١٩٢٦م - ص ٢٥٩.

السنة الحيوانات. وكما هو معلوم، فإن (دبشليم) الذي ورد اسمه، كان حاكمًا للكجرات. إذ في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، كتب ابن حوقل، الرحالة العربي، عن حاكم الكجرات (ولبهـ رائـ)، فقال: "هو بلهرا، صاحب كتاب الأمثال" (ص ٤٢٠) (١).

كما ذكر اليعقوبى أنه في عهد الملك (دبشليم)، كتب الحكيم (بيدبا) هذا الكتاب (٢). وفي كتاب (تاريخ فرشته)، نجد أن لقب حاكم الكجرات المعزول، أثناء حملة السلطان محمود على الكجرات، هو (دبشليم).

خطأ البروفيسير زخاو

وذكره البروفيسير (زخاو)، في مقدمة كتابه (انديا) (الهند)، باعتباره كتابًا في الحكمة؛ نقلًا عن ابن النديم. ونكر أن (بيدبا) في الأصل هو (ويد وياس)، مؤسس الويدانت (كتاب الهندوك المقدس). وعليه، فإن كتاب (بيدبا) في فن الحكمة هو (الويدانت). ومن ثم، توصل إلى نتيجة أخرى، ألا وهي أن فلسفة (وحدة الوجود) عرفها المسلمون من خلال ترجمة (ويدانت) لويداس (٣). ونحن لا ننكر أثر الويدانت على المسلمين، فيما بعد، وإنما ننكر أن يكون المسلمون والعرب لهم أدنى معرفة بالويدانت، في هذا العهد القديم. وإن الأثر في وحدة الوجود عند المتصوفة المسلمين الأوائل، كان عن طريق الفلسفة الأفلاطونية المحدثة في الإسكندرية، ولا مجال للبحث هنا عن هذه القضية. وغايتنا هي إزالة هذا اللبس، عند هذا المستشرق الفاضل، مما ورد في كتاب ابن النديم. إذ إن اللغة العربية تطلق كلمة (حكمة) على ما يمت إلى أعمال العقل والنصح، عن طريق التمثيل والمعرفة والفتنة، وإن المراد بكتاب (بيدبا)، هو (كليلة ودمنة)، للحكيم (بيدبا)، كما ورد في مقدمة

(١) ابن حوقل - سفرنامه - ص ٢٢٧.

(٢) اليعقوبى - المجلد الأول.

(٣) مقدمة انديا "الهند" - ص ٣٣.

الترجمة الفارسية^(١)، ويدور موضوعه حول تعليم الحكمة والفتنة، عن طريق القصص والحكايات، لهذا أدرجه ابن النديم ضمن كتب الخرافات (القصص والحكايات)، باسم (كتاب الحكمة لبيدبا)، ولم يدرجه ضمن كتب الفلسفة.

على أية حال، فهو أهم كتاب أنتجته العقلية الهندية. وعن طريق الترجمة العربية، تم نشره في جميع أنحاء العالم. ويذكر البيروني أن عبد الله ابن المقفع كان من أتباع المذهب الجوماني (إحدى الفرق المجوسية)، وقد حرف أصل الكتاب؛ طبقاً لمعتقداته وأفكاره. ويضيف: كان بودي أن أتمكن من ترجمة كتاب (بنج تتر) (الأسفار الخمسة)، وهو المعروف بكتاب (كليلة ودمنة). ويبدو أن البيروني لم يتحقق له هذه الأمنية. وهذا الكتاب مشهور في العربية، وصار جزءاً من مناهج تعليم الناشئة هذه الأيام.

أما الكتاب الثاني، فهو (بوداسف وبلوهر)^(٢)، وإن كانت شهرته أقل من كتاب (كليلة ودمنة)، لكنه يفوقه أهمية وعلواً. وقد ذكره ابن النديم، ضمن كتاب

(١) اليعقوبي - المجلد الأول - ص ٩٧.

(٢) عرف هذا الكتاب في العالم الإسلامي باسم "بلوهر وبوداسف". الفهرست، لابن النديم - ٣: ١٨٦، ٤: ١٣٢. (من ٣ من ٢، من ٤ من ٢، من ٨ من ١). وفي العالم المسيحي باسم "برلعام ويوشافاط"، ويشير هذان الاسمان إلى (بوذا) نفسه بودهسته، مستقبلاً بوذا (Bodhistauve - Buddha)، ثم صار في البهلوية (بودساف) Budasaph، وفي العربية (بودساف) Vodasaph، وفي اليونانية يوآسف Uoeasaph (أصف أو يوآصف)، ثم أصبح أخيراً (يوسافاط) Uasaphat، بتأثير الكتاب المقدس.

والاسم الثاني Bagharan (اليد)، أصبح في البهلوية Balhaver، وفي العربية Balauhar "بلوهر"، وفي السريانية Barlaam "برلاها"، ثم أصبح Barlaam، بتأثير الكتاب المقدس: نقلاً عن المقامة بين العربية والعبرية، رسالة دكتوراة: د/ مناع عبد المحسن - كلية اللغات و الترجمة - جامعة الأزهر - ص ١٠٥، ١٠٨.

الحكايات الهندية التي ترجمت إلى العربية^(*). وإن المقصود بـ(بوداسف) هو (بوذا)؛ إذ في الفارسية القديمة، كانت الدال تكتب ذالاً، فصار (بوداسف)، بدلاً من (بوداسف). أما المقطع الأخير (سف)، فهو (ستو)، كما يقول زخاو: فكلمة (بدهي ستو) صارت (بوداسف)، حيث تنطق الواو الأجنبية فاءً في العربية أحياناً^(**).

ويعتقد (زخاو) أن أصل (بلوهر) هو (بروهيتر)، ومعناه (أستاذ أو مرشد). وفي هذا الكتاب، ذكر حياة (بوذا)، وزهده في الدنيا، من خلال حادثة عرضية. وسماع أحد نساك (سريلانكا) بخبره، وإتيانه إليه في زى تاجر، والحوار بين الأستاذ والتلميذ، على هيئة سؤال وجواب، عن طريق الحكاية، وضرب الأمثال حول أسرار الدنيا، والكائنات المعقدة، وقد راج هذا الكتاب، وشاع أمره في لغات الدنيا بأسرها، عن طريق الترجمة، فطبقت شهرته الآفاق، وصار محبوباً ومرغوباً فيه بين رجال الدين، حتى نسبته المسيحيون إلى واحد من القديسين، وجعلت إحدى الفرق الإسلامية جزءاً كبيراً منه من تأليف إمامهم.

أما كتاب "رسائل إخوان الصفا" (الديني والفلسفي)، الذي ظهر في القرن الرابع الهجري، فله أهمية خاصة؛ إذ إنه يمثل مدرسة فكرية سرية، قام أعضاؤها، من هذه الجماعة، بتأليفه سرّاً، ويعد عند إحدى الفرق الإسلامية صحفاً دينية. ويحوى أبواباً مختلفة من كتاب (بوداسف وبلوهر)^(١)، وقد قام مولوى عبد الغنى الوارثي بنقله من العربية إلى الأردية، في لغة سهلة ميسرة، منذ ثلاثين عاماً.

(*) لم يطلق ابن النديم على هذه الكتب تلك التسمية، ألا وهي "كتب الحكمة الهندية"، وإنما "أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث".

(**) الفارسية هي التي تلتقط الواو فاءً، مثل الألمانية، والكلمة منقولة عنها، أما العربية فتتطرق الباء المهموسة فاء (P _ F).

(١) أرجو أن يتمكن الباحثون من بيان الصلة بين "رسائل إخوان الصفاء"، وبين كتاب "بلوهر وبوداسف"، إذ إن إخوان الصفاء قد تأثروا بالفكر اليوناني، وخاصة الفيثاغورثي، إذ جعلوا للحساب دوراً كبيراً فجمعوا بين الفكر الإسلامي و اليوناني. كما أن اعتقادهم بأن العالم صادر عن الله، وقد فاض عنه، وأن الله علة كل فيض، متأثرون فيه بالفكر الهندي، في هذا الكتاب...

وأذكر جيداً حين ظهرت الترجمة الأردنية، وحصل أستاذي العزيز على نسخة منها، وكنت آنذاك أقرأ الكتب العربية العادية، فأعربت له عن رغبتي في الاطلاع على هذا الكتاب، ولكنه رفض إعطائي إياه، قائلاً: لو أنك قرأته، فسوف تزهد في الدنيا، وستترك الدراسة، وقد كان رفضه هذا حافظاً على قراءته، وفي الليل، عندما خلد إلى النوم، تسلفت وأخذت الكتاب من على منضدته، وما إن هلّ الصباح حتى كنت قد فرغت منه، وأعدته مرة أخرى إلى مكانه. ومنذ ذلك اليوم، مازال هذا الكتاب في نظري واحداً من أهم الكتب عن الدنيا، مازال صداه يتردد في قلوب المذنبين؛ ففيه العديد من الحكم المؤثرة، التي نجدها اليوم في كلام السيد المسيح^(١)، ولا تستطيع أن تقول أن هذه اللآلئ قد خرجت من قاع أي البحار أولاً.

وأختتم حديثي باثنين من العلماء المسلمين اللذين وافيا الهند؛ للارتواء من العلوم والفنون (علوم الهند وفنونها)، لا من أجل السياحة والترحال، وقد حالفهما النجاح.

التتوخي^(٢)

وأولهم هو محمد بن إسماعيل التتوخي، والغالب أنه كان في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وهو عالم في علم النجوم والفلك. وقد عاد إلى وطنه، وفي جعبته الكثير من المعلومات النادرة حول هذا الفن^(٣).

(١) هذا أمر طبيعي، لأن الكتاب نقل إلى اليونانية، ثم تم نقله من اليونانية إلى العربية، ولذا نجد فيه آثار المسيحية.

(٢) هو المنجم المعروف، الذي دخل إلى الهند، وصدر عنها بغرائب من علم النجوم، منها "حركات الإقبال والإدبار".

(٣) القاضي صاعد الأندلسي، طبقات الأمم - ص ٥٦ - بيروت، وأخبار الحكماء، للقفطي - ص ٥٨ - مصر.

ومما يؤسف له أننا لا نجد معلومات كافية عن حياة هذا العالم. ولو لم يذكره المؤرخ والقاضى (صاعد الأندلسى)، ما كان أحد ليعرف اسمه تقريبًا. (طبقات الأمم - ص ٦٥).

البيرونى

أما العالم الفاضل الثانى، فهو الحكيم والرياضى، أبو الريحان البيرونى الخوارزمي، فقد كان هذا العالم مولعًا بمعرفة أفكار الأمم الأخرى، وقضاياها ومعتقداتها، لذلك لا يوجد مؤلف من مؤلفاته، إلا وفيه ملامح هذا الولع. ومما لا شك فيه، أنه كان على دراية كاملة بكل ما يتعلق بعلوم الهند، قبل ذهابه إليها، عن طريق المؤلفين الأوائل.

وحتى عصره، كانت العلوم العربية، والأبحاث العلمية للمسلمين، قد بلغت شأواً عظيماً؛ إذ طوروا العلوم التى أخذوها عن الهنود، والإيرانيين، واليونانيين، وصححوا الكثير مما هو مغلوط ومنقوص؛ لذلك لم يكن للبيرونى ثمة سبب آخر فى الاتجاه نحو علوم الهند، سوى البحث عن أشياء أخرى جديدة.

على أية حال، فنحن لا نعرف، على وجه اليقين، متى ورد إلى الهند؟ وكم مكث هناك؟ وإلى أى الأماكن ذهب؟ ومن المعروف نوعاً ما، أنه جاء إلى (غزنة) من (خوارزم)، عام ٤٠٨هـ، وأتم كتابه (تاريخ الهند) فى (غزنة)، عام ٤٢٣هـ. فقد مات السلطان محمود، عام ٤٢٠هـ، قبل تمام هذا الكتاب بثلاث سنوات. وبذلك عرفنا أن فترة إقامته فى الهند، حوالى اثنى عشر عاماً، أو ثلاثة عشر عاماً تقريباً، فيما بين عامي ٤٠٨هـ/٤٢٢هـ؛ إذ يرد فى كتاب (درة الأخبار فى تاريخ الفلاسفة والحكماء) بالفارسية، والمقول عن كتاب (صنوان الحكمة) بالعربية، لعلى بن زيد البيهقى (ت ٥٦٥هـ): (أن البيرونى قضى فى الهند أربعين عاماً)، ولو

صح هذا التاريخ^(١)، لكان البيروني قد وافى الهند، عام ٣٨٣هـ، أى قبل قدوم الغزنويين.

ولكن يبدو أن هذا التاريخ غير صحيح، نظرًا لتواريخ حياة البيروني، وكان رحلته إلى الهند لم تتجاوز السند والبنجاب^(٢). غير أن ما ذكره عن جغرافية الهند، فى كتابه (الهند)، توضح أنه جاب الهند كلها. وفى كتابه الثانى (القانون المسعودي) الذى كتبه بعد هذا الكتاب بعدة سنوات، كتب فيه تفاصيل عن طول جميع المدن الكبرى للهند، وعرضها.

على أية حال، فقد دخل الهند عندما كانت تتعرض لهجمات السلطان محمود. لكن البيروني آنئذ، وهو السلطان الثانى فى العلم والفن، كان قد انشغل بمعاركه العلمية فى الهند وحيداً، وكان قلبه ضجرًا بكل هذه الاضطرابات السياسية^(٣).

وكما قال (زخاو)، فإنه بتصنيف (كتاب الهند)، جعل المسلمين يفتخرون بأن واحدًا منهم قد ألف مثل هذا الكتاب، الذى غرض من معلومات الرحالة الصينيين واليونانيين، عن الهند من ناحية، وأنعم على الهند، حيث جعل حضارتها، وعلومها، وأفكارها القديمة، قائمة ومحفوظة فى العالم، من ناحية ثانية.

وتجدر الإشارة هنا للفقرة التى ذكرها البيروني، عن تكبر الهند وغرورها العلمى آنذاك، فكتب يقول: "على أنهم لا يظنون أن فى الأرض غير بلادهم، وفى الناس غير سكانها، وأن للخلق غيرهم علمًا، حتى إنهم إن حدثوا بعلم أو عالم، فى خراسان وفارس، استجهلوا المخبر، ولم يصدقوه؛ للآفة المذكورة"، ثم أضاف

(١) لقد بدأ نشر هذا الكتاب فى ملحق مجلة (الكلية الشرقية) بـلاهور، عدد فبراير ١٩٢٩ م، وفى الكتاب الأصلى ورد فقط "در بلاد" (فى البلاد)، إلا أن المحرر أخذ من التكملة للكتاب الأصلى، وأضاف إليها بعد ذلك كلمة (هند).

(٢) كتاب الهند - ص ١١ - لندن.

(٣) البيروني - كتاب الهند - المقدمة .

يقول: "على أن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة، فهذا (براهمر)، أحد فضلائهم، حين يأمر بتعظيم البراهمة، يقول: (إن اليونانيين، وهم أنجاس، لما تخرجوا وأنافوا فيها على غيرهم، وجب تعظيمهم). ويضيف قائلاً: (إني كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ؛ لعجمتي فيما بينهم، وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم، فلما اهتديت قليلاً لها، أخذت أوقفهم على العلل، وأشير إلى شيء من البراهين، وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحساب، فأنثالوا على متعجبين، وعلى الاستفادة متهافتين، يسألون: عمن شاهدته من الهند حتى أخذت عنه؟ وأنا أريهم مقدارهم، وأترفع عن جنبتهم مستنكفاً، فكادوا ينسبونني إلى السحر، ولم يضعوني عند أكابرهم بلغتهم إلا بالبحر، والماء يحمض حتى يعوز الخل"^(١).

وأعظم إنجازات البيروني أنه قام بدور السفير العلمي بين المسلمين والهنود، حيث قدم للعرب والفرس العلوم الهندية، وما للهنود من الأبحاث العربية والفارسية. كما ترجم لأصحاب العربية من اللغة السنسكريتية، ولأصحاب السنسكريتية من اللغة العربية.

وهكذا، أدى الدين الذي كان للهند على العلوم والفنون العربية منذ مدة. وقد كتب ثلاثة أنواع من الكتب، فيما يتعلق بالهند؛ واحداً من العربية إلى السنسكريتية، والثاني من السنسكريتية إلى العربية، والثالث بحث وتحقيق في العلوم والمسائل الهندية.

ومن الكتب التي كتبها للهنود ما يلي:

- ١- إجابات أسئلة المنجمين الهنود.
- ٢- إجابات عشرة أسئلة لعلماء كشمير، وحل ما اشتبه عليهم فيها.
- ٣- كتاب عن صنعة الإسطرلاب.
- ٤- كتاب المجسطي، لبطليموس.

(١) البيروني - كتاب الهند - ص ١٢.

٥- أصول إقليدس.

٦- كتاب فى الفلك.

القسم الثانى: الكتب التى ألفت لأصحاب العربية:

١- كتاب الهند، وفيه خلاصة عقائد الهند وعلومها.

٢- خيال الخسوفين.

٣- راشيكات الهند.

٤- ترجمة سانكهيا (فلسفة).

٥- ترجمة كتاب بانتجلى.

٦- شرح للرسوم الهندية فى تعلم الحساب.

٧- ترجمة كتاب لكهوجاتكم لدراه مهر (فى شرح الولادة).

٨- رسالة عن عودة (وسوديو) إلى الحياة مرة أخرى، وغيرها من الرسائل.

٩- ترجمة كتاب (بانج سدهانت) لبرهم كيت.

١٠- ترجمة (برهم سدهانت) لبرهم كيت.

١١- حساب وتعداد الأرقام الهندية.

القسم الثالث من الكتب، وهى:

١- تصحيح الأخطاء التى صدرت من المؤلفين والمترجمين لكتب الفلك

الهندية، والتى نقلت من السنسكريتية إلى العربية، وهذه الكتب هى: كتاب

(سدهانت)، و(آريه بهت)، (كهنديا كهند) (خانداخادىكا).

٢- كتاب جوامع الموجودات لخواطىر الهنود، وهو كتاب فى خمسمائة صفحة،

ويشرح فيه (سدهانت) برهما كيت، العالم الرياضى الهندي.

٣- رسالة يوضح فيها طريقة كتابة الأعداد فى العربية، بوصفها هندية.

٤- كتاب (فى الإرشاد إلى تصحيح البادئ علمى النمودرات). وفى المقالة

الخامسة (لقانون المسعودي)، تحدث البيرونى عن طول المدن الهندية

التالية، وعرضها: لوهاور (لاهور)، اوستان (اوستهان)، والتي هي حاضرة كشمير. ونيبال (ويقول عنها إنها بمثابة مكن بين الهند والتبت)، وويند (وهي إحدى المدن الهندية الخاصة في وادي السند)، وسياالكوت، والملتان، ثم (ميناء بلوجستان) سومنات (سومناث)، ونهلواله (نهرواله)، وكهبايت، وهار (مالوه)، واوزين (اوجين)، وبهروج، في وسط الهند، وماهوره (متهرا)، وقنوج (ويقول إن مملكة قنوج هي جزء في وسط البلاد)، وظلت عاصمة الملوك العظام، وتقع غرب نهر الجنجا، وماري (وهي العاصمة الحالية لمملكة قنوج)، وقلعة كواليار، ولوبراني، والديبل (ميناء السند)، وكهجوارهه، واجوهه (اجوادهيا)، وبنارس (بنارس)، ويقول عنها إنها مدينة مقدسة، وهي مركز علوم الهند، وجزيرة لنكا، وجمكوت، وتجاور، و سنكلديب، ومنكري (مهانكري).

وقدم البيروني إنجازًا عظيمًا في الهند، ألا وهو قياس دوران الأرض. وكان الخليفة المأمون بن الرشيد، أول من اهتم بمساحة الأرض، أوائل القرن الثالث الهجري. ولم يكن قد مر على ذلك عامان، إذ كان البيروني شغفًا ولعًا بالبحث والتحقيق؛ إلا أنه لم يجد الفرصة مهيأة في خوارزم وأفغانستان، فوجدها مصادفة في الهند، وخاصة في هذا المجال، الذي كان أحد أطرافه الجبل، وهكذا، وطبقًا لقاعدته الهندية، استطاع أن يقيس مساحة الأرض^(١).

وقد أدى المسلمون الذين كاملاً لعلم الفلك، وعلم الهيئة الهندي، وذلك في عهد السلطان أكبر^(٢)، والسلطان محمد شاه، عندما أمر السلطان أكبر بترجمة

(١) القانون المسعودي . وقد اطلعت على النسخة المخطوطة، في مكتبة جامعة (على جره).

(٢) السلطان أكبر: هو أبو الفتح جلال الدين أكبر (١٥٤٢ - ١٦٠٥م) سليل تيمور لنك، وابن همايون من زوجته الفارسية، يعتبر أعظم ملوك المسلمين، وأباطرة المغول في الهند، سعى عبثًا إلى التقريب بين المسلمين وغير المسلمين في الهند، بتأسيس دين جديد يوحد بين الأديان كافة، سماه "الدين الإلهي".

(الزيج الغ بيكي) إلى السنسكريتية، وهو عبارة عن مجموعة ملاحظات حديثة للمرصد التيموري، والأبحاث الفلكية الإسلامية بالمراغة^(١).

وفي عهد السلطان (محمد شاه)، قام الملك (جـ سنكهـ) بترجمة أمهات الكتب العربية، في علم الهيئة، إلى اللغة السنسكريتية؛ لإنشاء مرصد بمنطقة جـ بور، ودهلي، وبنارس^(٢).

الألعاب الجادة

أمل ألا يكون القراء قد ملوا سماع الأبحاث العلمية، ومصطلحاتها الفنية الثقيلة، ولهذا فإنني أنهى هذا المقال بفرش بساط اللعب؛ للتسرية عن السامعين والمتحدثين.

إن أشهر لعبتين في العالم هما: الشطرنج والنرد، وكلتاها من إبداع العقل الهندي. وخير من كتب في هذا الموضوع بالعربية، هو اليعقوبي؛ حيث قال: (إنها ليست مجرد لعبة، بل تقوم أساساً على المسائل الفلكية، والحسابية الدقيقة). وقد أفاض في شرح هذه المسائل، قائلاً: "إن رقعة الشطرنج إن هي في الحقيقة إلا خريطة لتطورات الزمن، وخاناتها عبارة عن التقويم الفلكي، ثلاثمائة وستون يوماً، وكل يوم أربعة وعشرون ساعة، وفي اليوم اثنتا عشرة ساعة. وصورة كاملة لليلة مدتها ثلاث عشرة ساعة، ورقعة النرد تكمن في علامات النرد، وطريقة لعبه، وأساس الشطرنج أربع وعشرون خانة، ثم أصبح اثنتين وثلاثين، ثم ثمانين، ثم صار أربع خانات، وناهينا عن هذه الحسابات المعقدة، فلم ينعم النظر أحد ليرى أن اللعبتين، إن هما إلا شرح وبيان لمدرستين ومذهبين في الفلسفة الهندية.

(١) آئين أكبرى .

(٢) آزاد بلجرامى - سبحة المرجان في تاريخ هندوستان.

إذ تؤكد لعبة النرد على أن الإنسان مُسير لا مخير، وأن الإنسان لعبة في يد القدر، يسيره كيفما يشاء، وبغيره لا يستطيع أن يضع قدمه، أو يرفعها في هذه الدنيا.

وعلى العكس منه تمامًا، الشطرنج الذي يؤكد أن كل ما يفعله الإنسان في هذه الدنيا ثمرة جهوده الذاتية؛ ففشله أو نجاحه يتأتى طبقاً لأفكاره وأفعاله.

وصفوة القول، إن هاتين اللعبتين هما الحل العملي للقضايا المستعصية، التي لا حل لها في الدنيا. وكتب اليعقوبى يقول: "إن أحد العلماء اخترع في البداية النرد، وأهداه لأحد الملوك؛ بغية أن يعلمه قضية الجبر، ثم جاء عالم آخر، وقدم الشطرنج، محاولاً إثبات قضية الاختيار".

وصفوة البيان، إن هاتين اللعبتين قد بينتا أن الإنسان، الذي لم يستطع أن يحل قضية الجبر والاختيار، بآرائه ودلائله المنطقية والفلسفية، لن يتمكن من الوصول إلى كنه لعبة القدر.

إن مخترع لعبة الشطرنج، طلب من الملك (باراني) جائزة اختراعه، وكانت هذه الجائزة لعبة حسابية محيرة أيضاً؛ حيث طلب المخترع أن توضع حبة من القمح في أول خانات الشطرنج، على أن يضاعف هذا الرقم في الخانة التالية، حتى تكتمل كل الخانات على هذا النحو، وفي البداية، اعتقد الملك أنها جائزة بسيطة؛ لكن عندما شرع في حساب هذه الخانات، وجد نفسه عاجزاً عن أداء هذا الرقم الكبير؛ الذي حسبه كلاً من المسعودى واليعقوبى^(١).

لكن سرده هنا سيجعلنا نعود إلى العمليات الحسابية مرة أخرى، ونترك بساط اللعب، الذي نحن بصدد الحديث عنه. وقد وصلت كلتا اللعبتين إلى العرب، في القرن الأول الهجرى، عن طريق إيران. وكان النرد سابقاً على الشطرنج؛ إذ

(١) القصة كاملة في اليعقوبى - الجزء الأول - ص ٩٩ - ١٠٥، ثم المسعودى - الجزء الأول - ص ١٦٠ - لندن.

إن ذكره قد ورد فى الأحاديث النبوية، ثم لحقه الشطرنج، فى القرن الثانى الهجرى، وغالبًا فى عهد العباسيين؛ لأن آراء المجتهدين من فقهاء القرن الثانى الهجرى متواترة، فيما يتعلق به من الناحية الشرعية.

وقد زعم الفرس أن أصل لفظ الشطرنج هو فارسى، وهو من الكلمة الفارسية (هشت رنج)^(١) /يعقوبى - ج ١ - ص ١٠٣. بيد أن دعوى الفرس هذه دعوى مكشوفة؛ إذ إن الشطرنج اسم ملك من ملوك الهند، وأصله (جترنك)^(٢)، يعنى: ذو الأعضاء الأربعة. ثم استلحقه الفرس، بعد أن أطلقوا على قطعه أسماء فارسية؛ مثل: شاه (بادشاه)، فرزين (وزير)، بياده (عسكري). ولكن بقى شيئان، هما بمثابة وثيقة رسمية على أحقية الهند، وهما (هاتهي) الفيل، والطابية والرخ (الحصان). فالفيل من سمات الهند المميزة، أما الرخ فهو اسم أحد مطايا الهند، ويطلق عليه فى الهندية (رته-)، ولا وجود له إلا فى الهند.

وقد ذكر أهل التحقيق أن لعبة الشطرنج قد ورد ذكرها فى الملحمة الهندية (الراماينا)^(٣). وقد ادعت أمم أخرى، غير الفرس، ملكية الشطرنج، مثل: المصريين، واليونان، والرومان، والبابليين. وإحقاقًا للحق، لا يمكن قبول أى ادعاء آخر؛ إذ إن الشطرنج اسم أحد ملوك الهند^(٤).

ويجب أن لا ننسى هذه النقطة، وهى أنه سواء كان اسمه فى إيران (هشت رنج)، أو فى الهند باسم (جترنك-)، إلا أن العرب، بعدما عدلوا فى حروفه بما يناسب لغتهم، قد وضعوا له هذا الاسم الذى مازال شائعًا فى كل من الهند وإيران إلى اليوم، ألا وهو لفظ (شطرنج).

(١) اليعقوبى - الجزء الأول - ص ١٠١ - لندن.

(٢) سواء السبيل فى معرفة المولد والدخيل - بروفيسر ارنلد.

(٣) دائرة المعارف البريطانية - المجلد ٦ - ص ١٠٠، تحت كلمة Chess.

(٤) دائرة المعارف البريطانية - المجلد ٦ - ص ١٠٠، تحت كلمة Chess.

الباب الرابع

العلاقات الدينية

المصادر

ونضيف إلى الكتب التي تم ذكرها آنفاً أربعة مراجع أخرى جديدة، بمثابة مصادر لما هو وارد في هذا المقال:

١. التقرير عن ديانات الهند، الذي أعده (يحيى بن خالد البرمكي) في القرن الثاني الهجري، ويضم كتاب (الفهرست) لابن النديم، خلاصة له، لا تزال موجودة حتى يومنا هذا.

٢. كتاب (تاريخ البدو) لمطهر بن طاهر المقدسي (٣٣٥هـ) الفيلسوف والمؤرخ العربي الشهير، وقد نشر هذا الكتاب في ستة مجلدات بباريس عام ١٨٩٩م، ويضم بين صفحاته باباً عن ديانات الهند.

٣. كتاب (الديانات) لأبي العباس إيران شجري، وعلى الرغم من أن النسخة الأصلية لهذا الكتاب غير موجودة، فإن بعض الأجزاء المقتبسة منه في كتاب (الهند) للبيروني، بها العديد من أحوال البوذيين.

٤. أما أهم كتاب فيما ورد، فهو كتاب (الملل والنحل) لعبد الكريم الشهرستاني (٥٤٩/٤٤٩هـ)، وقد طبع أكثر من مرة في أوروبا، ومصر، وبومباي.

كما تمت الاستعانة ببعض المقالات المتفرقة، لعبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، ومنها (الفرق بين الفرق) في تاريخ الفرق الإسلامية، المطبوع في مصر. وهذه المقالات منقولة عن كتاب (المعتزلة) لمرتضى الزبيدي، التي قام بطبعها البروفيسور (ارنلد) بدار المعارف، حيدر آباد.

الفرق بين الفاتحين العرب، والأتراك، والأفغان، والمغول

قبل أن نمضى قدمًا فى استعراض ما يلي، يجب أن نشير إلى نقطة مهمة، ألا وهي أن فاتحى الهند من الترك، والأفغان، والمغول، كانوا من المسلمين؛ لذلك فإن مرد كل أعمالهم وتصرفاتهم إلى الإسلام.

ولهذا صار لزامًا علينا أن نعرف جميعًا تلك الحقيقة، وهى أن الولاة والقادة الأتراك، الذين قدموا إلى الهند، باستثناء بعض القادة وأصحاب الوظائف، لم يكونوا يمثلون الإسلام، ولم يكن نظام حكمهم يمت إلى الإسلام بشيء؛ إذ إن معظم القادة الأتراك كانوا من الموالى، حديثى عهد بالإسلام، وقد لا يفهمون شيئًا فى الأحكام الإسلامية الخاصة بالاتفاقيات أثناء الحرب والسلم.

· وحين قامت الدولة الغزنوية فى هذا البلد، كانت تعد آخر أطراف حدود الخلافة الإسلامية على الإطلاق، وحتى تلك الفترة، لم يكن الإسلام قد وطد أقدامه بـغـد. وكان قوام قوات جيش السلطان محمود الغزنوى خليطًا من مختلف الطوائف الغزنوية والخلجية، والترك، والأفغان. كما كان بينهم هندوك أيضًا^(١). ولم تكن معظم القبائل التركية قد دخلت الإسلام بعد، فهم إما عبيدٌ اشتراهم الأمراء والسلاطين من الأسواق بالآلاف، فأصبحوا عماد الجيش بعد اعتناقهم الإسلام، وإما فارون من بلادهم فى وسط آسيا، من أجل النهب والقتل، فيهبطون على الدول الإسلامية، ويعتقون الإسلام، ثم ينخرطون فى صفوف جيوش مختلف الملوك والأمراء، ثم شيئًا فشيئًا، يصبحون من كبار القادة، مما يرقى بهم إلى سدة الحكم، وقد صاروا ملوكًا. وخير مثال على ذلك، مؤسس الدولة الغزنوية (ألب تكين)-^(٢)

(١) ابن الأثير - الكامل - الجزء ٩ ص ١٣٥ بريد لندن ١٨٦٢م.

(٢) ألب تكين (ت ٩٦٣م) مؤسس الدولة الغزنوية، كان مملوكًا تركيًا خدم السامانيين، أمير غزنة ٩٦٢م

انظر: المنجد فى اللغة والأعلام - ط ٣٣ دار المشرق بيروت ١٩٩٢ ص ٦٢.

(ت ٩٦٣م) وسبكتين^(١)، فقد كانا من الموالى الأتراك، وينتمى إلى تلك الفئة آلمش^(٢)، خليفة السلطان الغورى، وغيره.

أما السلاجقة الأتراك، الذين أسسوا الدولة السلجوقية العظيمة بعد بضع سنوات، فإنهم ينتمون إلى القسم الثانى من الأتراك؛ أى الذين هبطوا على الدولة الإسلامية وصاروا مسلمين. وهذا هو جيش السلطان محمود الغزنوي، الذى كان جيشه، بالإضافة إلى ما سبق يضم متطوعين من تركستان، وبلاد ما وراء النهر^(٣)، وكان معظم هؤلاء مسلمين.

ولم يكن المغول قد دخلوا الإسلام بعد، إذ حتى القرن السابع الهجرى، كانوا لا يزالون كفاراً. والسلطان علاء الدين الخلجي^(٤) (ت ٧١٦هـ) هو أول من جندهم للخدمة فى جيشه بعد إسلامهم، وقد قتل منهم حوالى خمسة عشر ألف جندي دفعة واحدة فى عهد علاء الدين لدهلي^(٥).

وكانت كل المدن الأفغانية الكبرى فى ذلك الوقت تدين بالإسلام، بيد أن الأفغان أهل البلاد الأصليين مازالوا كفاراً، ولم يدخل الإسلام فى قلوبهم^(٦)، وقد أعلن ملك كابل إسلامه، أوائل القرن الثالث الهجرى؛ أى قبل الغزنويين بحوالى

(١) سبكتكين (ت ٣٨٧هـ - ٩٩٧م) قائد ساماني، صهر ألب تكين وخلفه، استقل فى (غزنة) وهو جد الغزنويين. انظر: المنجد فى اللغة والأعلام ص ٢٩٤.

(٢) آلمش: كان أحد قادة دولة المماليك بالهند، توفى عام ١٢٣٥م.

(٣) تاريخ فرشته - الجزء الأول - ص ٢٩ - ٣٢ نولكشور.

(٤) علاء الدين محمد شاه الخلجي (١٢٩٥ - ١٣١٥م): من السلالة الثانية لسلطنة دهلي ١٢٩٠ - ١٣٢٠، والتى أسسها جلال الدين فيروز، من اصل تركي، بلغت الدولة فى عهده أوج عزها. انظر: المنجد فى اللغة والإعلام ص ٢٣٢.

(٥) تاريخ فرشته - الجزء الأول - ص ٢٤.

(٦) تاريخ فرشته - الجزء الأول - ص ١٢٠.

مائة عام كاملة^(١)، ثم أخذت أكثر القبائل الأفغانية تدخل في الإسلام تباعاً، أثناء حكم السلطان محمود الغزنوي^(٢).

أما القبائل الغورية، فلم تكن تعرف الإسلام بعد، في أواسط القرن الرابع الهجري، أي بعد ظهور الغزنويين^(٣)؛ إذ لم يكن يوجد في تلك البقاع أي مدارس لتعليم الدين الإسلامي، أو أي مظاهر للتقاليد الإسلامية، أو تواجد للعلماء المسلمين، حتى مجيء السلطان محمود الغزنوي. ولهذه الأسباب كلها، لم يكن أسلوب حياة هذه القبائل، وقواعد حروبها إسلامية.

أما العرب الفاتحون، فكانوا على النقيض منهم، إذ تمكنوا، خلال قرن واحد، من أن يتخطوا حدود الشام، مروراً بمصر وشمال أفريقيا، حتى وصلوا إلى أسبانيا، ثم توسعوا شرقاً عبر العراق، حتى وصلوا إلى خراسان وإيران وتركستان، لیتجه جزء منهم فاتحاً كاشغر، والجزء الثاني فاتحاً السند؛ فقد أشرب هؤلاء الناس بحق تعاليم الدين الإسلامي، وكانوا على هدى وبصيرة بأحكام الإسلام في السلم والحرب، إذ كان القادة الفاتحون يصحبون بعض الصحابة، الذين تشرفوا بصحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أحياناً، كما نهل الكثير منهم من فيض الصحابة - رضوان الله عليهم؛ لذلك كان أسلوب حياتهم، وطريق إدارتهم لأمر الحكم تختلف تماماً عن أولئك القادمين عبر ممر خيبر (الترك والمغول والأفغان).

وفي عام ٩٣هـ، فتح قتيبة بن مسلم^(٤) سمرقند، وسكان تلك البقاع - في هذه الفترة - من البوذيين، وقد اضطر قتيبة لسبب ما (يبدو أنه ضائقة مالية)، إلى

(١) ابن الأثير - الكامل - المجلد ٩ ص ٢١٨.

(٢) البلاذري - فتوح البلدان - ص ٤٠٢ لندن.

(٣) ابن حوقل - سفر نامه، والكامل، لابن الأثير الجزء ٩ ص ١٥٦، وتاريخ بيهقي مطبوع كلكتا ص ١٢٧.

(٤) قتيبة بن مسلم (ت ٩٦هـ/٧١٥م): من كبار القادة الأمويين، فتح ما وراء النهر، وبخارى، وسمرقند وفرغانة، في عهد عبد الملك بن مروان، قتل في ثورة الجند في (فرغانة) بعد تولي سليمان بن عبد الملك. انظر: المنجد في اللغة والأعلام - ص ٤٣٤.

حرق تماثيل (بوذا)، ليستخرج منها الذهب والفضة؛ حتى يعبر تلك الأزمة، بيد أنه لم يفعل ذلك، لا بالقوة ولا بالحرب، ولكنه لجأ إلى عقد اتفاق شريف مع الطرف الثاني، تكون كافة التماثيل بموجبه تحت تصرف المسلمين، فوافق أهالي سمرقند، وحينما جاء وقت حرق التماثيل، قال له الملك التركي: "أنا أدين لك بالفضل والإحسان؛ لذلك فمن واجبي أن أحذرك ألا تحرق التماثيل؛ لأن من بينها من إذا حرقت، سيكون هلاكك مؤكدًا " فأجابه قتيبة: (لو أن الأمر كذلك، فسأحرق هذه الأصنام بيدي) وقام قتيبة بحرق هذه الأصنام بنفسه، وعندما لم تحل عليه لعنة هذه التماثيل، انصرف كثير من الأتراك عن عبادتها، وأصبحوا مسلمين^(١).

وباستثناء الأحداث العارضة التي حدثت أيام الخلفاء الراشدين، ما نكت العرب شيئاً من معاهدات الصلح التي عقدها مع هؤلاء الشعوب، فتركوا أماكن عبادتهم، لم يمسوها بسوء؛ إذ مازالت معابد النار مضيئة في إيران، ومازالت التماثيل قائمة في كنائس الشام وفلسطين ومصر والعراق، بل مازالت أصوات أجراسها تدق إلى الآن. غير أن الفاتحين الأتراك، وهم حديثو عهد بالإسلام، لم يتبعوا هذه التعاليم، ولم يقتفوا آثار أسلافهم، ويسيروا على نهجهم القويم.

(١) ذكرت هذه الواقعة بالتفصيل في كتاب (تاريخ الطبري) - الجزء ٨ - ص ١٢٤٦ لندن، والكامل لابن الأثير - الجزء ٤ - ص ٤٠٨ لندن. والفقرة الأخيرة ذكرها البلاذري في كتاب (فتوح البلدان) ص ٤٢١ لندن. ونص العبارة عند ابن الأثير: "فلما تم الصلح، وأخلوا المدينة، وبنوا المسجد، دخلها قتيبة في أربعة آلاف انتخبهم، فدخل المسجد فصلى فيه، وخطب وأكل طعاماً، ثم أرسل إلى الصغد: من أراد أن يأخذ متاعه، فليأخذ، فإنني لست خارجاً منها، ولست أخذ منكم إلا ما صالحتكم عليه، غير أن الجند يقيمون فيها، وقيل: إنه شرط عليهم في الصلح مائة ألف فارس، وبيوت النيران وحلية الأصنام، فقبض ذلك، وأتى بالأصنام، فكانت كالقصر العظيم، وأخذ ما عليها وأمر بها فأحرقت، فجاء غوزك فقال: إن شكرك على واجب، لا تتعرض لهذه الأصنام، فإن منها أصلاماً من أحرقتها هلك. فقال قتيبة: أنا أحرقتها بيدي، فدعا النار، فكتب، ثم أشعلها فاحترقت، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مثقال" ج ٤ ص ٥٧٣

وحين كان العرب يأخذون الجزية من غير المسلمين، لم يكونوا يحصلون على أى شيء آخر، سوى ما حددته الشريعة من خراج للمحاصيل، غير أن الترك والأفغان، والمغول، كانت تأخذهم حماية الإيمان، ويحصلون على الجزية مضافاً إليها بعض المكوس، والمحاصيل، والجبايات الأخرى، التى يحصلون عليها من الرعايا المسلمين وغير المسلمين، ولكن أحكام الإسلام التى أقرها العرب فى هذه البلاد، والتى ظل العمل بها قائماً رديحاً من الزمن، تنص (هذه الأحكام) على أن هناك مصدرين لموارد البلاد، هما: الزكاة، وعُشُر المحصول، من المسلمين، والجزية، والخراج، من غير المسلمين.

والأصل فى هذا أن الإسلام قسم أهل العالم جملة إلى أربعة أقسام، هي: (١) المسلمون، (٢) أهل الكتاب (وهم الذين لهم كتاب منزل، ورسول مرسل، قد ورد ذكره فى القرآن الكريم)، (٣) من لهم شبهة كتاب (وهم الذين يدعون نزول تعاليم سماوية عليهم، ولكنها لم تذكر فى القرآن)، ولذلك لا يعدون (أهل كتاب) لعدم معرفة حقيقة أمرهم (٤). الكفار، وهم الذين لم تنزل فيهم آيات سماوية. وقد ساوى الإسلام بين المسلمين جميعاً فى الحقوق والواجبات، بقطع النظر عن القومية والوطنية.

ولهذا، فإن أهل الكتاب لهم ما للمسلمين من الحقوق، وعليهم ما عليهم من الواجبات، بعد أداء الجزية، ويحل للمسلمين أكل ذبائحهم، ومناكحتهم والزواج من بناتهم، وتجب حمايتهم والمحافظة على عبادتهم، ورفع من قصدهم بأذى فى أموالهم وأرواحهم من قبل أولى الأمر، نظير دفع الجزية. أما من لهم شبهة كتاب، فينحى بهم نحو أهل الكتاب، ويتمتعون بكافة الحقوق والواجبات مثلهم، بل والتى يتمتع بها المسلمون أنفسهم، إلا أنه لا يجوز أكل ذبائحهم، ولا الزواج من بناتهم^(١).

(١) قبل أن أوضح ما جاء فى كتب الفقه حول البراهم (الهنادكة) يجب أن نعرف بهؤلاء القوم، هم قوم انتسبوا إلى رجل يقال له "براهم"، وعقيدتهم تقوم على نفى النبوات، غير أنهم يقرون بالتوحيد، وهو ما أكدته البيرونى، فى كتابه المعروف "تاريخ الهند"، وصاحب كتاب (الملل واللحل)، الشهرستانى، =

وعليه، فإن أول شيء كان يحدث عندما تستقر الدولة الإسلامية في بلد من البلاد، هو النظر في أهل هذا البلد، وإلى أي قسم من الأقسام الأربعة السابقة ينتمون. بيد أنه مما يؤسف له أن القادمين عبر ممر خيبر (الأتراك، والمغول، والأفغان) لم يطبقوا هذه الأحكام، فنجدهم قد أصروا على أخذ الجزية التي كان من المفترض أن يقبلوها فقط من أهل الكتاب، ومن له شبهة كتاب - من الهندوك - هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لم يوفوا بالعهد في الحفاظ على معابد الهندوك، وتقاليدهم الخاصة، والتي يجب أن تصان وتحترم، بمجرد دفع الجزية.

وظل الهندوك معلقين، بين بين، لم يحدد أمرهم، إلى أي قسم من الأقسام الأربعة ينتمون؟ وظل هذا حالهم حتى عهد السلطان علاء الدين الخلجي ٦٩٦هـ^(١). وهذه المساوي كلها نتيجة الجهل الذي لحق بهؤلاء. وما إن وطئت أقدام العرب بلاد السند، حتى حسموا هذه القضية؛ ألا وهي، إلى أي فئة ينتمي الهندوك، في ظل الحكومة الإسلامية؟

= بعدهم ممن لهم شبهة أهل الكتاب، فيقول: "وممن لهم شبهة أهل الكتاب، مثل: المجوس، والمالوية، وممن لهم حدود وأحكام دون كتاب، مثل: الفلاسفة الأوائل، والدهرية، وعبدة الكواكب والأوثان، والبراهمة" الشهرستاني - الملل والنحل الأنجلو المصرية ١٩٧٧م ص ٤٠.

جاء في المغني، وهو أحد كتب الفقه المعروفة، نقلاً عن (فقه السنة) للسيد سابق، طبعة دار التراث بالقاهرة: "وسائر الكفار، وغير أهل الكتاب - كمن عبد ما استحسن من الأصنام والأحجار والشجر والحيوان - فلا خلاف بين أهل العلم في تحريم نساءهم وذرياتهم. ص ٩٠. وهناك من سوى بينهم وبين اليهود والنصارى، في معرض حديثه عن الصابئة الذين يعبدون الكواكب، بقوله: "... وإنهم بمقتضى هذا يحسب الزواج منهم؛ لقول الله - عز وجل: "اليوم أكملت لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحسنات من المؤمنات، والمحسنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم" الآية، وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة، وصاحبيه.

ومنهم من تردد؛ لعدم معرفة حقيقة أمرهم..... وهذا هو المروي عن الشافعية والحنابلة. ص ٩٣

(١) ضياء برنى - تاريخ فيروز شاہی ص ٢٩٠ كلكتا، وتاريخ فرشته ص ١١٠ نولكشور.

الهندوك ممن له شبهة كتاب عند العرب الفاتحين

عند وصول القائد العربى (محمد بن القاسم) بلاد السند، وافى مدينة الرور (الور)، وكانت أول محطة فى فتح هذه البلاد. ففاضله أهلها، وقاتلوه عدة أشهر، ثم تم الصلح بينهم على شرطين، أولهما: الكف عن قتل المدنيين العزل، والثاني: حماية معابدهم، وعدم التعرض لها بسوء، فوافق محمد بن القاسم على هذين الشرطين، قاتلاً كلمته الماثورة: "ما البد إلا ككنائس النصارى واليهود، وبيوت نيران المجوس". وقد ورد ذكر هذه الواقعة فى كتاب (جج نامه)، وهو الترجمة الفارسية لأقدم كتب التاريخ العربى فى بلاد السند.

وهو على النحو التالي:

"قبل محمد بن القاسم الطلب الذى تقدم به أهالى برهمن آباد (السند)، وسمح لهم بالعيش فى الدولة الإسلامية فى السند، مثلما يعيش اليهود والنصارى فى الشام والعراق"^(١).

كان هذا أهم تصريح جاء على لسان قائد عربى، منح الهندوك المكانة الصحيحة، طبقاً لتعاليم الإسلام السمحة، وجعل معابدهم صنو معابد أهل الكتاب وكنائسهم، وعاملهم معاملة من له شبهة كتاب فى الإسلام. وفى تاريخ فتوحات (السند) تسطع هذه الحقيقة، وهى أن العرب أوفوا بعهدهم، وقد نصح أحد أتباع (بوذا) أميراً من الأمراء الهندوك، فقال له ذات يوم: "نعلم تماماً أن محمد بن القاسم لديه أمر من الحجاج"^(٢)، أن يعطى الأمان كل من يريد الأمان؛ لهذا اقتنعنا بعقد الصلح معه؛ لأن العرب أهل أمانة، ويوفون بالعهود"^(٣).

(١) جج نامه - تاريخ البيت - المجلد الأول - ص ١٨٦.

(٢) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف الثقفى، أحد ولاة الخليفة الأموى (الوليد بن عبد الملك) على العراق.

(٣) جج نامه - تاريخ البيت - المجلد الأول - ص ١٥٩.

كانت (الديبل) أولى المدن السندية التى هاجمها العرب، ويقع أكبر المعابد البوذية، وأضخمها، فقذف محمد بن قاسم أعلى منارته - التى كانت ترى من الخارج - بالنيران؛ كى يجبر المتحصنين على فتح أبواب المدينة، ولكن عندما تم له فتح المدينة، لم ينتهك حرمة المعبد، ولم يدمره، وظل هذا المعبد قائماً حتى القرن الثالث الهجرى بعد زوال البوذية. وجاء الخليفة. المعتصم بالله عام (٢١٨/٢٢٧هـ) واقتطع عامله على السند عتبة بن إسحاق الضبي، وهدم أعلى تلك المنارة، وجعل فيها سجنًا، وابتدأ فى مرمة المدينة^(١)، وقد أقام محمد بن القاسم نفسه مسجده فى هذه المدينة^(٢)، حتى تم له فتح مدينة (نيرون)؛ فأقام مسجده أمام المعبد^(٣).

معبد الملتان

ظل معبد الملتان قائماً بكل هيئته بعد فتحها، وظل على صورته، طيلة حكم العرب الذى استمر ثلاثة قرون. وخلال هذه الفترة، ظل واحدًا من أجمل المزارات السياحية للرحالة العرب، وكان (البشارى المقدسي) آخر شخص وصف الحالة التى عليها المعبد؛ حيث رآه حوالى عام ٣٧٥هـ. وقد استفاد العرب من وجود هذا المعبد فائدتين، إحداهما سياسية، والأخرى اقتصادية؛ أما السياسية، فاستخدامه درعًا فى صد أى هجوم على المدينة من قبل أحد راجاوات الهند؛ إذ فى هذه الحالة، يهدده العرب بتدمير المعبد إن هو قدم على تلك الخطوة، فيحجم عن ذلك، ويرجع أدراجه مرة أخرى.

(١) البلاذرى - فتوح البلدان - ص ٤٢٥.

(٢) أيضًا ص ٤٢٥.

(٣) جج نامه - البيت - ص ١٥٨.

وأما الفائدة الاقتصادية؛ فيقول عنها ياقوت: "وبها صنم تعظمه الهند، وتحج إليه من أقصى بلدانها، ويتقرب إلى الصنم في كل عام بمال عظيم، ينفق على بيت الصنم، والمعتكفين عليه"^(١). (الإصطخرى - ص ١٠٣).

وقد قدم الرحالة العرب وصفاً بديعاً لمعبد الملتان، حيث الذهب والفضة يكثران فيه كثرة لا مثيل لها.

فعليك أن تتصور أن المعتقدين به كانوا يرسلون مئات الدنانير - لمجرد حرق عود تبركاً به - عن طريق التجار العرب^(٢). وكان التمثال نفسه لا يقدر بمال؛ إذ كان في موضع عينه أحجار كريمة، وكان على رأسه أكلیل من الذهب، وقد مد باعيه^(٣).

وظل المعبد تحت حكومة الأمراء العرب حتى عام ٣٧٥هـ، وهو في كامل رونقه وأبهته؛ ولكن عندما زار أبو الريحان البيروني المكان عام ٤٠٠هـ، وجد مسجداً مقاماً مكان المعبد، وفي ذلك كتب يقول: " وكان محمد بن قاسم بن المنبه، لما فتح المولتان، نظر إلى سبب عمارتها، والأموال المجتمعة فيها، فوجد ذلك الصنم، إذ كان مقصوداً محجوجاً من كل أوب، فرأى الصلاح في تركه، بعد أن علق لحم بقر في عنقه؛ استخفافاً به، وبنى هناك مسجداً جامعاً"^(٤) البيروني - ص ١٨١. فأكد بهذا أنه لم يتركه لسبب خاص بالعقيدة، وأقام للمسلمين مسجداً منفصلاً. وحين خضعت الملتان، كما يضيف البيروني، لحكم القرامطة (إحدى فرق الشيعة الضالة)، كسر جلم بن شيبان المتغلب ذلك الصنم، وقتل سدنته، وجعل بيته، وهو قصر مبنى من الآجر على مكان مرتفع، جامعاً بدل الجامع الأول، وأغلق

(١) ياقوت - معجم البلدان - نقلاً عن الإصطخرى - المجلد ٨ ص ٢٠١ مصر.

(٢) أبو زيد السيرافي - سفر نامه ص ١٣٠.

(٣) البشاري المقدسي - أحسن التقاسيم - ص ٢١ ليدن ١٩٠٦م ص ٤٨٣.

(٤) لم يرد ذكر هذه الواقعة في كتب تتحدث عن فتوحات السند، ولا ندرى من أين استقى البيروني هذه الحكاية.

ذلك بغضًا لما عمل في أيام بنى أمية، ولما أزال الأمير المحمود، رحمه الله، أيديهم عن تلك الممالك، أعاد الجمعة إلى الجامع الأول، وأهمل هذا الثاني، فليس الآن إلا بيدراً لصبر الحنا^(١) (البيروني - ص ١٩).

وفي هذا السياق، كتب البلاذري الذي عاش أواخر القرن الثالث الهجري، هذا الكلام العجيب؛ وفحواه، إن البسطاء من الناس كانوا يظنون أن هذا التمثال هو لنبي الله أيوب - عليه السلام - ص ٤٤.

الحقوق والامتيازات

بعد فتح السند، جاء وفد من البراهمة إلى محمد بن القاسم، فأكرم وفادتهم ابن القاسم، وأحسن استقبالهم، وتقدم البراهمة بمطلبهم، ألا وهو أن تكون مرتبتهم أعلى من مراتب الطبقات الأخرى؛ وفق دستور الهند^(٢).

وبعد أن تحقق محمد بن القاسم من ذلك، لبي طلبهم، وحازوا المناصب الرفيعة، والمرتبة العليا، فشكروا له حسن صنيعه، وانتشروا في القرى يشيدون بالحكام المسلمين، وامتدحوا الحقوق التي حصلوا عليها، معلنين ذلك في كل مكان.

الجزية

دعا الأمراء العرب أهل السند إلى الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، معلنين: أن من يسلم سيصبح أخاً للمسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وإن أبى إلا دينه، تركوه عليه وأعطى الجزية، فدخل البعض في دين الإسلام، وظل البعض قائماً على دينه. وقد ورد في جج نامه:

(١) البيروني - كتاب الهند - ص ٥٦.

(٢) إذ إن البراهمة يعتبرون أنفسهم من عنصر إلهي، فهم كهنة الإله، لا تجوز الذبائح إلا في حضرتهم وتحت أيديهم، وقسموا المجتمع البرهمي إلى أربع طبقات ١ - طبقة الكهنة ٢ - طبقة المحاربين ٣ - التجار و المزارعين ٤ - طبقة الخدم.

"إن من أسلموا، قد تحرروا من الرق، وسقطت عنهم الجزية وغيرها، وأما الذين ظلوا على دينهم؛ فقد صنفوا ثلاث درجات: الطبقة العليا، وهم الأثرياء وأهل اليسار، وقد أخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً، ومن الطبقة المتوسطة أربعة وعشرون درهماً، ومن الطبقة الدنيا، وهم الفقراء، اثنا عشر درهماً؛ فالذين دخلوا في الإسلام سقطت عنهم الجزية، أما الذين ظلوا على دين آبائهم فأخذت منهم، ولكن لم تصادر أراضيهم ومنقولاتهم؛ بل ظلت في حوزتهم" (١).

وبحساب هذا الوقت، فإن الدرهم يساوي ثلاث روبيات (٢) إلا ربعاً؛ أى كان الأغنياء يدفعون ما يوازي عشر روبيات، ومتوسطى الحال خمس روبيات، والفقراء كانوا يدفعون ما يعادل روبيتين ونصف. ووفقاً للقاعدة، فإن النساء، والأطفال، والشيوخ، ورجال الدين، والمعوقين، ومن لا قدرة لهم على الكسب؛ كل هؤلاء لا تضرب عليهم الجزية. أما المسلمون فيدفعون الزكاة عوضاً عن الجزية، حوالى روبيتين ونصف، والعشر من خراج الأرض، وكان يؤخذ من غير المسلمين الخراج المحدد أيضاً، ولم تكن ثمة ضرائب أخرى مفروضة، فى ظل الحكومة العربية.

الهندوك والمسجد

أثر تسامح العرب فى الهندوك أثراً كبيراً، فعندما سقط الحكم العربى من إحدى المدن فى القرن الثانى الهجرى، باستيلاء الهندوك عليها، لم تمتد أيديهم إلى مسجد المسلمين بسوء، فتركوه للمسلمين، يجمعون فيه، ويدعون للخليفة (٣).

وقد ذكر الإصطخري، وابن حوقل (من رحالة القرن الرابع الهجرى) أن المناطق الواقعة بين مدينتى كهмбаيت وجيسور، كانت خاضعة لحكم الرجاوات؛

(١) جج نامه - الليث - ص ١٨٢ . ١٨٤.

(٢) الروبية تساوى عشرة قروش مصرية تقريباً.

(٣) البلاذرى - فتوح البلدان - ص ٤٣٣ لندن.

غير أن المسلمين كانوا يقطنون في كل مكان، وفي كل مدينة، وكانت لهم مساجدهم التي تقام فيها صلاة الجماعة. وسوف نروى قصة شيقة عن تدمير المسجد الجامع، بمدينة كهмбаيت، وبنائه في عهد رجاوات الهند.

الدراسات التي تمت حول المذهب الهندوكي

رغب العرب رغبة أكيدة في دراسة ديانات الهند، نتيجة لتلك العلاقات الودية بينهم وبين الهنادكة. وعليه، كان ثمة عامل في وزارة يحيى البرمكي - والتي استمرت حكومته من عام ١٧٠هـ إلى عام ١٩٠هـ - أرسل إلى الهند؛ كي يدون ما يراه عن عقاير الهند، وأديانها. وفي تلك الفترة كانت (بغداد) ملتقى كل الديانات والعقائد من كل حذب وصوب في العالم.

وفي بلاط الخلفاء العباسيين، وبعض الأمراء ممن لهم ميول فلسفية، جرت المناقشات الدينية، والمناظرات الفلسفية، وفي اليوم والوقت المحددين لانعقاد تلك المجالس، كان أتباع كل مذهب يعرضون أدلتهم، ويسجلون اعتراضاتهم على الإسلام، وينصتون إلى إجابات الآخرين، وكان يؤم هذه المجالس والمناظرات رواد علم الكلام، حيث وجدوا كل عناية ورعاية من البرامكة خاصة، ولا غرو أنه مما سبق ذكره من مناظرات ومجالس، نشأ الاهتمام بمعرفة ديانات الهند.

أما النسخ الأصلية من التقارير التي أعدها المبعوث الخاص عن أحوال الهند، فإنها غير محفوظة، ولم يتم العثور عليها، إلا أن تلك الواقعة التي حدثت عام ٢٤٩هـ، ذكرها ابن النديم في كتابه، الذي ألفه بعدها بحوالي سبعين أو ثمانين عاماً، وذكر أنها بخط الفيلسوف العربي المشهور، يعقوب بن إسحاق الكندي.

وتقول الرواية: إن يحيى البرمكي بعث برجل إلى الهند، ليدرس مذاهبها؛ وبناء عليه، كتب ذلك الشخص كتاباً بعنوان (ديانات الهند ومعتقداتها)، وكتب باختصار عن أحواله، التي يتضح من خلالها أنها خلاصة التقرير المكلف به، وكتب في تلك الرسالة عن راجه "ولبهـ"، حاكم الكجرات، وعن معبد العاصمة

(مهانكر)، وما فيه من ذهب وفضة، ومعادن وعاج وجمال، وكل أنواع الجواهر والأحجار الكريمة.

وكتب أيضًا عن تلك الأصنام الذهبية العديدة الموجودة في المعبد، ويبلغ ارتفاع أحدها اثني عشر ذراعًا، على سرير (قاعدة) من الذهب الخالص، وترتكز هذه القاعدة في وسط قبة من ذهب، مرصع ذلك كله بالجواهر الأبيض، الحب، والياقوت الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر.

وفي كل عام، كان ثم مولد أو عرس لهذا المعبد، فكان الملك يمشى من داره إلى هذا البيت، ويعود مشيًا على الأقدام كي يقدم القرابين للآلهة، وكان الناس أيضًا يضحون بأنفسهم قربانًا للآلهة، في يوم من السنة معروف عندهم.

كما وصف أيضًا الصنم (التمثال) الموجود في مدينة (الملتان) وقد وصف بقية الأصنام (التمائيل)، وذكر بعض أحوال فرق الهند الدينية، وأصنامها على النحو التالي:

١. أول تلك الفرق على الإطلاق، فرقة (مهاكاليه)، وهم أتباع الإله (مهاكالي)، ذي الأيادي الأربع، ولونه اسمانجوني، كثيف شعر الرأس، كاشر الأسنان، كاشف البطن، وعلى ظهره جلد فيل يقطر منه الدم، وبإحدى يديه ثعبان، وبالأخرى عصا، وبالثالثة رأس إنسان، واليد الرابعة قد رفعها في الهواء، وفي أذنيه حبات، وعلى جسده ثعبانان عظيمان قد التقا عليه، وعلى رأسه إكليل (تاج) من عظام القحف (الجماجم)، وعليه من ذلك قلادة.

٢. الفرقة الثانية، الديكتيه أو الادتيكتيه (ادت بهكتي): عباد الشمس، وهذه الآلهة (الصنم) على عجل تجرها أربعة أفراس، وفوق هذه العربة تمثال، وهم يسجدون له، ويطوفون حوله، ويوقدون البخور، ويعزفون الألحان، وله ضياع كثيرة وغللات، وله العديد من الكهنة والسدنة يقومون بمصلحته،

ومصلحة ضياع هذا الوقف، ويحج له المرضى من كل مكان؛ اعتقاداً منهم أنهم سيبرأون، ويبلغون المراد بزيارته.

٣. الفرقة الثالثة: جندر بهكيت (جندر بهكتي): وهم عباد القمر، وقد اتخذوا له صنماً (إلهاً) فوق عربة مرتكزة على أربعة قوائم، ومع الإله جوهر يقال له (جندر ديت)، ويصوم أتباعه في الليلة الرابعة عشرة عند اكتمال القمر، ويتم تقديم الطعام والشراب واللبن قرباناً له، ويصعدون على سطوح منازلهم، يدعونه في الليلة الرابعة عشرة، ويرنمون إليه.

٤. البكرنتيه^(١): ويكون أتباعها مكبلين بالقيود، مصفدين بالحديد، ومن سنتهم أنهم يحلقون رؤوسهم ولحاهم، ويظلون عراة إلا من قطعة قماش تستر عورتهم.

٥. الفرقة الخامسة: (جنجا ياتره) (كنكا جاتري)، وينتشر أتباع هذه الملة في جميع أرجاء الهند، ومن سنتهم أن من اغتسل بماء الجنجا، يطهر بذلك، وتغفر جميع ذنوبه.

٦. الفرقة السادسة: الراجبوتيين، وهم شيعة الملوك، ومن عقيدتهم معونة الأمراء، ولهذا يعدون خدمة الملوك جزءاً من العبادة.

٧. الفرقة السابعة: وهذه الفرقة يطول أتباعها شعورهم، ويفتلونها على وجوههم، ويتدلى الشعر المعكوف من كل جانب، ومن سنتهم ألا يشربون الخمر، ويعتكفون في الجبال، وألا يقربون النساء، وألا يدخلون العمران^(٢).

(١) سيرد ذكر أصل هذا اللفظ، كما سيرد ذكر هذه الفرقة أيضاً، أما كلمة "بهكشو" نفسها، فقد ورد ذكرها في كتب أخرى بمعنى: بكرنتيه، بدلاً من الكلمة "بيكر جين"، وأطلق عليها (بزرک - بن شهریار): "بيكور طائفة من رهبان سيلان" ص ١٥٥، وذكرهم البيروني في (كتاب الهند)، ص ٥٨، عبدة "مها ديو".

(٢) ابن النديم - الفهرست - ص ٣٤٥-٣٤٩.

ومن المعاصرين لابن النديم، وقريبى العهد به، المطهر^(١)، أحد علماء علم الكلام العرب ببيت المقدس، ٣٧٥هـ، وقد ذكر فى هذا الأمر توضيحاً أكثر فى كتابه (البدء والتاريخ):

"فى الهند تسعمائة فرقة، غير أن المعروف منها تسع وتسعون فقط، مندرجة تحت خمس وأربعين عقيدة، وتنحصر فى أربعة أصول. وتعود الأصول الأربعة إلى فرعين أساسيين: وهما السمنى أو البوذى والبرهمى؛ أما السمنى فهو من لا يعترف بإله أو آلهة ليس لها اختيار. وأما أتباع المذهب البرهمى فهم على ثلاثة مذاهب: الأول، من يؤمن أتباعه بالتوحيد، والثواب والعقاب؛ دون رسالة سماوية. والثاني، القائل بمبدأ الثواب والعقاب عن طريق التناسخ، ولكن لا يؤمن أتباعه بالتوحيد أو الرسالة"^(٢).

وبعدها قدم المؤلف بياناً مختصراً عن المكانة العلمية لأهل الهند. وذكر فى المقدمات قضايا الشهادة بالأسلوب القديم الذى كان سائداً فى الهند آنذاك، مثل لمس الحديد الساخن، وغيره.

ثم يذكر المؤلف: "يعتقد البراهمة أن المسلمين نجس، لا ينبغى ملاستهم، أو مخالطتهم. والبقرة مقدسة عندهم، وهى كالأم يكتون لها كل تقدير واحترام، ومن يمسه بسوء؛ فعقوبته القتل. ويجوز لغير المتزوجين مضاجعة نساء الغير (الآخرين) لئلا ينقطع النسل"^(٣).

(١) ذهب الحاجى خليفة إلى أن هذا الكتاب لأبى زيد أحمد بن سهيل البلخى، وصدرت عدة مجلدات له فى باريس باسم البلخى، ولكن تم تصحيح البيان السابق ووضع اسم مطهر بن طاهر، المؤلف الحقيقى.

(٢) المجلد الرابع - ص ٩ - ١٩ . باريس، و تم إغفال ذكر الفرقة الثالثة.

(٣) ربما يريد هنا ذكر قضية النيرك؟

وإذا اقترب المتزوجون إثمًا؛ فعقابهم القتل، وإذا لمس أحدهم يد مسلم، ثم عاد إليهم، فلا يقتل؛ بل يحلق شعره، ويكفر عن إثمه هذا (وهي الطريقة التي مازالت مستمرة إلى الآن) بأن يخلطوا بعض الأشياء من إفرازات البقرة، ويسقونه إياها، ويتناكحون فيما بينهم، ويحرمون الخمر وذبح الحيوان).

وبعد ذلك، شرح مفصل لمعبودات الهند وأتباعها، ووصف هيئة كل إله، نحو: "المهاديو(*)، وكالي(**)، وشيولنك(***)، وغيرها". ثم ذكر لفرقتين جديدتين، يقال لإحدهما: (جل بهكتيه) عباد الماء. والثانية "اجنى هوطريه" (اجنى هوتري) عباد النار. وثم ذكر للأخبار؛ وهم الذين يقضون جل وقتهم في التأمل والاستغراق، حتى أن الأعمال الظاهرة الحسية تتوقف عندهم.

ويعتقدون أنهم يقتربون من الروحانيات، كلما افترقوا عن الماديات، كما أن أعينهم مغلفة دائماً. وأخيراً، كتب عن الجوكيه، وعن أحوال الذين يضحون بأنفسهم، وكتب عن البراهمة يقول:

"إنهم يعبدون البقر، ويعتبرون عبور نهر الجنجا حرام، ولا يباح لأي شخص اعتناق دينهم". وأخيراً يضيف المؤلف: "أن من لا يؤمن بالآخرة والرسالة؛ يقبل الثواب والعقاب عن طريق التناسخ. أما عكوفهم على عبادة الأصنام؛ لأن الله - تعالى - فوق العلم والحس والإدراك، وفوق كل شيء، وحتى تخرج الحواس من سجنها لأبد لها من واسطة".

وبعد ذلك يظهر على الساحة اسم محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٦٩-٥٤٩هـ) المحقق المدقق، وعالم الديانات المشهور، والذي نقل بالتفصيل

(*) مهاديو : الإله الأعظم.

(**) كالي: الآلهة القبيحة المتعطشة للدماء، وهي الوجه القبيح لزوجة الإله (شيفا)، و(أكا) الوجه الآخر الجميل، فيقال له: باروكتي.

(***) شيو لنك: كلمة لنك تعني: العلاقة، ولكن هنا تعني: عضو شيفا الذكري، ويعبد في الهند كرمز لشيفا نفسه، وهو موضوع العبادة الرئيسي في المعابد الشيفية، ورمز للخصوبة.

ما أورده مطهر المقدسي؛ وقد انفرد بذكر فرقة جديدة، تدعى البرجسبيكية (بركش بهكت)، وهم عبدة الأشجار^(١).

وقد ذكر أبو الريحان البيروني شرحاً كاملاً عن ديانات الهند في الباب الحادى عشر من مؤلفه (كتاب الهند)، وضح فيه فلسفة عبادة الأصنام؛ فكتب يقول:

"وليتحقق ما قلنا من أن هذه الأصنام منصوبة للعوام، الذين سفلت مراتبهم، وقصرت معارفهم". وقد نقل بعض الفقرات عن (جيتا)، كتاب الهندوك المقدس، والتي تقول إحداها: "إن كثيراً من الناس يتقربون فى مباغيهم إلى بغيرى، ويتوسلون بالصدقات والتسبيح والصلاة لسواي، فأقويهم عليها، وأوفقهم لها، وأوصلهم إلى إرادتهم؛ لاستغنائى عنهم".

ثم ينقل بعض أقوال الإله كرشنا^(٢)، وهو يخاطب أرجن^(٣)، يبدى فيها ضيقه الشديد من عبدة الشمس والقمر، وغيرها من المعبودات، ثم يذكر ما وضحه القاضى صاعد، الرحالة العربى الأندلسى (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، عن الإيمان بالغيب، حسبما وضحه فى كتابه (طبقات الأمم)، عن تاريخ علوم الشعوب المتحضرة فى العالم.

(١) الملل والنحل - المجلد الثانى - الباب الأخير. وأصل عبارته "ومن ذلك البركسهيكية، ومن سنتهم أن يتخذوا لأنفسهم صنماً، ويقربون له الهدايا، وموضع متعبدهم له، أن ينظروا إلى باسق الشجر وملته، مثل الشجر الذى يكون فى الجبال، فيلتمسون منها أحسنها وأطولها، فيجعلون ذلك الموضع موضع متعبدهم، ثم يأخذون ذلك الصنم، فيأتون شجرة عظيمة من ذلك الشجر، فيتقبن فيها موضعاً، فيركبونه فيها، فيكون سجودهم وطوافهم نحو تلك الشجرة" (ج ٢ - ص ٢٦٠).

(٢) كرشنا: واحد من أكثر آلهة الهنادة توفيراً وشعبية عند الهنود، وهو التجسيد الثامن للإله فشنو، والكلمة نفسها تعنى: الأسود أو الداكن، مما يعنى أنه كان إلهاً للهنود الأصليين المائلين إلى السواد.

(٣) أرجن: أحد أبطال ملحمة (المهابهارت) الهندية.

"وأما الأمة الأولى، وهى الهند، فأمة كثيرة العدد.... وقد اعترف لها بالحكمة، وأقر لها بالتفوق فى فنون المعارف.... أما العلم الإلهي، فهم يجمعون منه على التوحيد لله - عز وجل، والتنزيه له عن الإشراك به، ثم هم مختلفون فى سائر أنواعه، فمنهم براهيم، ومنهم صابئة. فأما البراهمة؛ وهى فرقة قليلة العدد منهم، شريفة النسب عندهم، فمنهم من يقول بحدوث العالم، ومنهم من يقول بأزليته، إلا أنهم يجمعون على إبطال النبوءات، وتحريم ذبح الحيوان، والمنع فى إيلامه... ولبعد الهند من بلادنا، واعتراض الممالك بيننا وبينهم، قلت عندنا تأليفهم، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم، ولا وردت علينا منهم إلا نبذ من مذاهبهم، ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم"^(١) (ص ١٢ - ١٣).

١. والتفاصيل التى قدمها الرحالة العرب عن الهند، وخاصة فيما يتعلق بالحالة الدينية؛ تركز معظمها على وصف بعض معابد السند والملتان، مثل: تمثال الملتان الخشبي المشهور، وقد ألبسوه جلدًا يشبه السنجاب، أحمر لا يتبين منه غير عينييه، وهما جوهرتان، وعلى رأسه إكليل ذهب، قد مد باعيه"^(٢).
وقد أخبر البيروني أنه تمثال إله الشمس، ولذلك أطلق عليه (ادت)؛ أى الشمس^(٣).

٢. وكذلك حال المعابد، التى يروج بها اقتناء الجواري، مما أثار ضيق ونفور الرحالة العرب، عند حديثهم عنها. وقد أسهب رحالة جنوب الهند فى وصف

(١) صاعد الأندلسى - طبقات الأمم - ص ١١ - ١٥ بيروت.

(٢) البشارى المقسى - أحسن التقاسيم - الطبعة ٢ - ليدن ١٩٠٦م - ص ٤٨٣، وأثار البلاد، للقزوينى، ص ٨١، وغيرها من كتب الجغرافيا.

(٣) كتاب الهند - ص ٥٦ - لندن.

هذه المعابد^(١). ولكن هذا النوع من المعابد ذكرها المقدسي أيضاً، عندما زار الهند، عام ٣٧٥هـ^(٢).

٣. كما أكثر الرحالة من ذكر التضحية بالنفس قرباناً، ونسجوها بطريقة تقشعر منها الأبدان، وقد يكون إغراق النفس في نهر الجنجا شيئاً طبيعياً، أما غير الطبيعي وما تمجه النفس، هي عادة (الساتي)، التي تمارسها النساء بعد وفاة أزواجهن، ولكنهم لم يوفوها حقها من الكتابة.

ويقول أبو زيد السيرافي: "في مملكة بلهرا، وغيره من ملوك الهند، من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ، وتمكنه من قلوبهم..... وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه، سار إلى باب الملك، فاستأذن، ثم دار في الأسواق، وقد أجمت له النار..... وقد احتوشه أهله وقرابته، وبعضهم يضع على رأسه إكليلاً من الريحان، يملأه جمراً..... يمشى وهامته تحترق.... وهو لا يتغير في مشيته، ولا يظهر منه جزع، حتى يأتي النار، فيثبت فيها، فيصير رماداً، فذكر بعض من حضر رجلاً يريد دخول النار، أنه لما أشرف عليها أخذ الخنجر، فوضعه على رأس فؤاده، فشقه بيده إلى عانته..... ثم زج بنفسه في النار" (ص ١٣).

وثمة مشهد لشخص آخر يشق صدره بخنجر، وينزع قلبه بيده في هدوء واطمئنان كاملين^(٣).

وقد حكى ابن الفقيه: "أن رجلاً من الهند أتى هذا الصنم، وقد اتخذ لرأسه تاجاً من القطن ملطخاً بالقطران، ولأصابعه كذلك، وأشعل النار فيها، ووقف بين يدي الصنم، حتى احترق"^(٤). (آثار البلاد ص ١٢٢).

(١) سليمان التاجر، وأبو زيد السيرافي - سفرنامه - ص ١٣٠ - باريس.

(٢) أحسن التقاسيم ص ٤٨٣.

(٣) أبو زيد السيرافي - سفرنامه ص ١١٥ - ١١٨.

(٤) القزويني - آثار البلاد - ص ٨١.

وقد قسم مطهر المقدسى الفرق الهندية إلى قسمين: فأطلق على الفرقة الأولى اسم (البرهمنية)، والثانية (السينية). وقد اشتبه لفظ (برهمن) على بعض المؤلفين العرب، فظنوا أن (برهمن) ما هو إلا من أتباع إبراهيم - عليه السلام؛ ولذلك أطلقوا عليه (برهمن). ولكن الشهرستاني أصاب كبد الحقيقة، حين كشف هذا الخطأ قائلاً: من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم - عليه السلام - وذلك خطأ، فإن هؤلاء هم المخصوصون بنفى النبوات أصلاً ورأساً، فكيف يقولون بإبراهيم - عليه السلام؟ والقوم الذين اعتقدوا بنبوة إبراهيم - عليه السلام - من أهل الهند هم الثنوية، منهم القائلون بالنور والظلمة، والظلمة على رأى أصحاب الثنيتين وقد ذكرنا مذاهبهم، وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له "براهم"، وقد مهد لهم نفى النبوات أصلاً "الشهرستاني (٤٧٩) - (٥٤١هـ)، الملل والنحل ج ٢ مصر ١٩٧٦م، ص ٢٥٠ - ١٥٣. ويطلق لفظ البوذيين على المناوئين للبراهمة السينية فى اللغة العربية (وسترد مناقشة هذا الأمر ودراسته فى الأبواب القادمة).

وتتخصر عقيدة أتباع (بوذا) فى أنه يحل فى صورة إنسان بين الحين والآخر، ولهذا السبب رأى بعض أصحاب النوايا الحسنة، أن (بوذا) على ما وصفوه، إن هو إلا (الخضر) الذى يثبت به أهل الإسلام^(١).

وهنا يظهر ثمة تقارب واتفاق بين الطائفتين، بل اتحاد فى الأفكار وتقارب فى الآراء؛ مما يعد تذكيراً لتلك الفترة.

ملك هندوكى يجلب آل البيت

"فى عام ١٤٧هـ، خرج أحد السادات العلويين، أيام حكم (المنصور)، الخليفة العباسي، وأراد أن يجعل حكمه فى (السند)؛ فأعد العدة، ولكنه خسر

(١) الشهرستاني - الملل والنحل " الحقيقة أن الشهرستاني لم يقل بذلك ، ولكن قال : إن صدقوا فى وصفهم، لا يشبه إلا الخضر الذى يثبت به أهل الإسلام".

الحرب، وقضى الوالى على ثورته؛ فولى هاربًا، يبحث عن مكان أمين يلجأ إليه. فإذا برجل هندی يقول لأسرة السادات: ثم ملك يجلب الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويحترمه؛ فعليكم باللجوء إليه، والعيش تحت كنفه وحمايته؛ فذهبوا إليه، فأحسن استقبالهم، وأكرم وفادتهم، وعاشوا آمنين مطمئنين^(١).

ذكرنا فيما سبق، فرقة السينية، وهى التى عرفها العرب باسم أتباع (بوذا). غير أنني، بعد بحث وتمحيص ودراسة، وبعد الحصول على بعض البراهين والأدلة - التى جمعتها منذ فترة - وصلت إلى هذه النتيجة:

إن أول من ذكر اسم هذه الفرقة، هو عبد القادر البغدادي، المتوفى عام ٤٢٩هـ، الموافق ١٠٣٧م، فى كتابه (الفرق)، وجاء ذكرها بسبب اتهام إمام المعتزلة، القائلة بالعقل حين أنكر النبوة؛ وأصبح التمييز بين الحق والباطل فى هذه القضية مستحيلًا؛ إذ إن الأدلة القوية تحيطها من كل جانب؛ وأنه أخذ هذا كله من البراهمة والسينية.

ثم قرأت فى كتاب مرتضى الزبيدي (المعتزلة) أن فرقة السينية بالهند، قد أرسلت إلى هارون الرشيد، إنكارها على الإسلام هذه القضية.

وقد أرشدتنا هذه الفرقة، إلى أن هذه الفرقة من الهند ثم وجدت لأكثر من مرة - أثناء دراستى لأحوالها - ذكر اسم هذه الفرقة. كما قد قرأت للمؤرخ اليت، وهو فى هذا يرجع إلى أقوال البروفيسور (مولر) وغيره، قوله: إن هؤلاء هم أتباع (بوذا)، وأصل هذا اللفظ فى السنسكريتية هو (سرسن)؛ أى الناسك. ويذكر أيضًا أن الرحالة اليونان أطلقوا عليهم (سرامينس)، و(سرمينا)، و(سيموني)^(٢).

(١) الكامل - ابن الأثير - أحداث ١٤٧ هـ. نص العبارة فى كتاب ابن الأثير هكذا: " قال عمر: رأيت رايًا، ها هنا ملك من السند، عظيم الشأن، كثير الملك، وهو على شوكة، أشد الناس تعظيمًا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم، وهو وفى. أرسل إليه، فاعتد بينك وبينه عقدًا، فأوجهك إليه، فليست ترام معه، ففعل ذلك، وسار إليه الأشتر، فأكرمه، وأظهر بره " ج ٥ - ص ٥٩٦.

(٢) اليت - انديا - الجزء الأول - ص ٥٠٦.

وقد أبان السيد (اليت) هذا الأمر نوعاً ما، إلا أن ابن النديم، الذي جاء بعده بينه فأحسن تبيانه؛ اطمأن قلبى لمقاله؛ وعرفت من كلامه: لم أطلق عليهم اليونان هذا الاسم؟

أصل السينية

فى مقدمة كتابه "تاريخ ملوك الأرض" - عام ٣٥٠هـ - تقريناً، والذى يعد سنداً فى تاريخ إيران وخراسان - كتب حمزة الأصفهاني^(١):

"والعالم لم يكن فيه إلا فرقان، إحداهما: سمنيون، والثانية: الكلدانيين (كالديا والـ)، وكان السمنيون فى الشرق، ومازال بعض أفرادها فى أطراف الهند والصين. ويطلق عليهم أهل خراسان (الشمنان)، وهى جمع كلمة (شمن)".

ويتضح من هذا، أن العرب قد عرفوا اسم (البوذيين) من أهل خراسان؛ فراج الاسم بينهم. وفضلاً عن بيان الأصفهاني هذا، فقد وجدت معلومات كافية عند ابن النديم (٣٧٥هـ): "قرأت بخط رجل من أهل خراسان، قد ألف أخبار خراسان فى القديم، وما آلت إليه فى الحديث، وكان هذا الجزء يشبه الدستور، قال: نبي السمنية (بوذاسف). وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر (تهرينز وأوكيشيتا) قبل الإسلام، وفى القديم، ومعنى (السمنية) منسوب إلى (سمني) وهم أسمى أهل الأرض والأديان.

وقد أخبرهم نبيهم (بوذاسف) أن أعظم الأمور التى لا تحل، ولا يسهل الإنسان أن يعتقدوها أو يفعلها، قول (لا) فى الأمور كلها، فهم على ذلك قولاً وفعلًا. وقول (لا) عندهم من فعل الشيطان، ومذهبهم دفع الشيطان"^(٢).

(١) تاريخ ملوك الأرض - ص ٧ - طبعة ديالى برلين.

(٢) ابن النديم - الفهرست - ص ٣٤٥.

وينطبق هذا كله على أتباع (بوذا)، وقد مر علينا أن أصل كلمة (بوذاسف) هي (بودهي ستو). وعلمنا أيضًا أن البوذية كانت العقيدة السائدة في وسط آسيا قبل الإسلام.

وبعد هذا التوضيح، أصبح من اليقين، أن السينية والبوذية شيء واحد.

مبادئ السينية

وفي عام ٣٤٥هـ/١٠٣٧م كتب عبد القادر البغدادي مذكرة ضمنية عن أحد مبادئ السينية، أطلق عليها " تكافؤ الأدلة " باصطلاح اللغة العربية. وهي تقترب من مبادئ الفرق التي تنكر وجود الله؛ بمعنى أن الحق والباطل كليهما موجودان في الحياة، ولمعرفة النفي لابد أن يكون ثمة إثبات، ولا يجوز أن يقال عن واحد منهما: هذا خطأ، وذاك صواب.

ومما لا مرية فيه، أن هذا من تعاليم (بوذا)، بيد أننا نجد هذه المبادئ عند أتباع العقيدة الجينية^(١) بصورة أجلى وأوضح. أما المبدأ الثاني من مبادئ (بوذا)؛ فهو التحرر من الآم الدنيا ومصائبها. وقد عبر ابن النديم عن هذه الآلام والمصائب بلفظ (الشيطان)؛ إذ إنه أس البلاء. فقال: "ومذهبهم (السمنية) دفع الشيطان"؛ أي: البعد عن المساوي والآلام.

وقد استخدم الشهرستاني، الذي عاش أواخر القرن الخامس الهجري، لفظ (بد)، بدلا من كلمة (السينية)، ومعلوم أنه كان على دراية تامة بهذا المذهب؛ إذ يقول: "ومعنى (البد) عندهم، شخص في هذا العالم لا يولد، ولا ينكح، ولا يطعم، ولا يشرب، ولا يهرم، ولا يموت". وكأنه يذكر درجة من درجات النجاة؛ ثم ذكر بعد ذلك تعاليم (بوذا)؛ وقال: إنها اجتتاب الذنوب العشرة، واستكمال عشر خصال،

(١) الجينية: عقيدة هندية، ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد مع البوذية، وأصحابها يعتقدون أنه ساهم في تأسيسها ٢٤ قديسا، آخرهم هو مهاوير (البطل العظيم)، ومن أهم مبادئ هذه العقيدة: الامتناع عن الإيذاء، والكذب، والسرقعة، والتملك.

وقد شرح كل واحدة منها. وكتب " قالوا: ولم يكن بينهم اختلاف فيما ذكر عنهم (البددة) من أزلية العالم، وقولهم في الجزاء" (١).

وقد نقل مطهر بن طاهر من كتاب (المسالك)، أحد كتب الجغرافيا العربية (ليس كتاب ابن خردازبه "المسالك والممالك"، والذي ألفه في أواخر القرن الثالث، أوائل القرن الرابع الهجري) (٢)، كما نقل ابن النديم (عن غير كتاب الكندي)، هذا القول الصائب: " لدى السينية طائفتان: قالت طائفة أن (بوذا) رسول من عند الله، وزعمت أخرى أن (بوذا) صورة الباري - تعالى جده " (٣).

والحق أنه قد نتج عن هذا خلاف، مفاده: أثم وجود الله في المذهب البوذي، أم لا؟ ويرجع هذا الخلاف إلى طائفتين: إحداهما، لا تعترف بوجود الله ألبته، والأخرى، تقول بوجود الله. وإن كانت البوذية نفسها قد تركت هذه القضية غامضة.

وقد كتب محمد الخوارزمي، في أواخر القرن الرابع الهجري، يقول: "السمنية: هم أصحاب سمن، وهم عبدة أوثنان، يقولون بقدّم الدهر، وتناسخ الأرواح... ويزعمون أن نبيهم (بوذاسف) الخارج في بلاد الهند... وبقايا السمنية بالهند والصين" (ص ٣٦)، والكلدانيون ينسبون أنفسهم إليهم (٤).

وقد كتب عن أحوال الصين، المسعودي (٣٣٣هـ)، فقال: "ودينهم دين سلف، وهي ملة تدعى السمنية، عباداتهم نحوًا من عبادات قريش قبل مجيء

(١) الشهرستاني - الملل و النحل - عقائد الهند.

(٢) ربما كتاب (المسالك والممالك) للمروزي، جعفر بن أحمد، ويكنى: أبا العباس، وهو أول من ألف في المسالك والممالك كتابًا، ولم يتمه. أما ابن خردازبه فقد ولد نحو ٢٠٥هـ / ٢٨٠هـ، كما ورد في (الأعلام) للزركلي، ٤: ١٩٠، وهذا نقلًا عن (التهرست) لابن النديم، مقال ٣ فن ٣.

(٣) ابن النديم ص ٣٤٧، كتاب البد والتاريخ - المجلد ٤ ص ١٩.

ملاحظة: "هذا الرجل لا يحسن الاقتباس، ويحمل النص ما لا يحتمل".

(٤) الخوارزمي - مفاتيح العلوم - ص ٣٦ لندن.

الإسلام. يعبدون الصور، ويتوجهون نحوها بالصلوات، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قبلة، والجاهل منهم، ومن لا علم له، يشرك الأصنام بالوهمية الخالق، ويعتقدها جميعاً^(١).

وصف بوذا

شخصية (بوذا) هي الشخصية الوحيدة في العالم، التي احتفظ الزمن بصورتها وتمثالها، على الرغم من مرور آلاف السنين، وعن طريق المتاحف شاع في جميع أنحاء العالم. وكان العرب يعرفون شكل (بوذا) وصورته معرفة تامة. وقد صور ه ابن النديم بهذه الكلمات:

" فأما صفة البد الأعظم، فإنسان جالس على كرسي، لا شعر بوجهه، مغموس الذقن في النقم، ما هو مشتمل بكساء، كالمبتسم، عاقد بيده اثنين وثلاثين"، (وقد شاهد ابن النديم تمثالاً له في بغداد، وكان عليه كتابة)^(٢).

انتشار البوذية

كان عند العرب معرفة تامة بالبوذية، وأماكن انتشارها في العالم. وكما أوضح ابن النديم، فقد كانت البوذية الديانة السائدة في خراسان، وبلاد ما وراء النهر؛ أي أن البوذية كانت ديانة أهل وسط آسيا، قبل الإسلام، كما كان معلوماً أن البوذية ملة أهل الصين، وانتقلت إليهم من الهند. وقد ذكر الرحالة العرب هذا كثيراً. ويقول سليمان التاجر (٢٣٧هـ/٨٣٧م)، أول رحالة عربي، ورحلاته بين أيدينا؛ يقول في مذكراته:

(١) المسعودي - مروج الذهب - المجلد الأول - ص ٢٨٨ - لندن.

(٢) ما بين القوسين المعقوفين كلام لم يرد عند ابن النديم.

"انتقلت عقيدة أهل الصين من الهند؛ ويقولون: إن تماثيل (بوذا) قد بناها الهنود لنا. ويؤمن البلدان (الصين والهند) بفكرة التناسخ، ويختلفان في الأمور الأخرى"^(١) (ص ٥٤). وهكذا نجد آثار هذه العقيدة في جنوب الهند وجزرها.

بهكشو

كتب أبو زيد السيرافي عن أحوال جنوب الهند والصين، في نهاية القرن الثالث الهجري، ذاكراً فقراء البوذية، وقد أسماهم (بيكرجي)؛ ولعلها تحريف (بهكشو)؛ إذ تنطبق عليها معنى ومبنى. فيقول: "وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين، عراة، قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب؛ إذ كانت لا يقص إلا ما ينكسر منها. وهم على سبيل سياحة. وفي عنق رجل منهم خيط فيه جمجمة من من جماجم الإنس. فإذا اشتد به الجوع، وقف بباب بعض الهند، فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ، مستبشرين به، فيأكل في تلك الجمجمة، فإذا شبع انصرف، فلا يعود لطلب الطعام إلا في وقت حاجته (أبو زيد - ص ١٧) ^(٢).

وقد رأى بزرک بن شهریار ناخدا هذه الطائفة من الفقراء، حين وافى (سرنديب) عام ٣٠٠هـ، وقد وصف أحوالهم، وأطلق عليهم اسم (بيكور). وكتب يقول: "... عباد الهند وزهادهم، وهم عدة أصناف، منهم البيكور، وأصلهم من (سرنديب)، وهم يحبون المسلمين، ويميلون إليهم ميلاً شديداً، وهم في الصيف عراة، حفاة، لا يسترّون بشيء. وربما جعل الواحد منهم على سواته خرقة، أربعة أصابع في مثل ذلك، مشدودة بخيط في الوسط، وفي الشتاء يتشحون بالحصر الحشيشة، ومنهم من يلبسون الإزار مرقعاً من كل لون على لون المرقعة للشهرة، ويلوثون أبدانهم برماد عظام الموتى... ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت،

(١) سليمان التاجر - سفرنامه - مطبوعة باريس ١٨١١م ص ٥٧.

(٢) أبو زيد السيرافي - سفرنامه ص ١٢٧ - ١٢٨.

يأكل فيه ويشرب، على سبيل الاتعاض بذلك، والتواضع "بزرک بن شهریار - عجائب الهند - القاهرة ١٩٩٨م - ص ١٨٩ - ١٩٠ (١).

وقال البيروني: إن هؤلاء الفقراء هم أتباع (مهاديو)، فهم على شاكلتهم، وأشكالهم تشبه أشكالهم. يضعون قلائد العظام في رقابهم، ويهيمنون في الغابات (٢).

جوكى (الزهاد)

وقد ذكرت هذه الكتب أحوال الزهاد والفقراء؛ غير أن أغرب حادثة قد ذكرها سليمان التاجر، وذلك من خلال المشاهدة (وليس من رأى كمن سمع). ففي منتصف القرن التاسع الميلادي، كتب يقول:

"وببلاد الهند من ينسب إلى السياحة في الغياض والجبال، وكلما يعاشر الناس، يأكل أحياناً الحشيش، وثمر الغياض.... ومنهم العريان، ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عرياناً، إلا أن عليه شيئاً من جلود النمر، فقد رأيت رجلاً منهم كما وصفت، ثم انصرفت، وعدت بعد ست عشرة سنة، فرأيت على تلك الحال، فتعجبت: كيف لم تسمل عينه من حر الشمس؟" (سليمان - ص ٥١) (٣).

السنية والإسلام

كانت بداية تعلق المسلمين بالسنية في أفغانستان وتركستان وخراسان، ثم تقدمت شيئاً فشيئاً، حتى وصلت الهند. وبدءاً من حكم البرامكة في مدينة نووبار (نوبهار) ببليخ، دخل أهل البلاد البوذيون في دين الإسلام أفواجا.

وحدث في (السند) نفس المنوال، إذ بعد مرور بضع سنوات من فتح المسلمين لها، عندما بعث (عمر بن عبد العزيز)، الخليفة الأموي، يدعو أهلها إلى

(١) بزرک بن شهریار - عجائب الهند - ص ١٥٥ - لندن.

(٢) البيروني - كتاب الهند - ص ٥٨.

(٣) سليمان التاجر - سفرنامه - ص ٥٠ - ٥١.

الإسلام، نهاية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادي)، لبوا دعوته، ودخل الكثير من حكام (السند) فى دين الله أفواجاً^(١).

وحدث الشيء نفسه فى (مليبار)، وذبية المهل (مالديب)، وبعض الجزر الأخرى؛ وقد فصلنا الحديث عن ذلك فى عدة مقالات بعنوان (الإسلام فى الهند)، ولهذا لا حاجة إلى تكرار القول هنا.

السنية والحصرية

وقد ذكرنا سابقاً واقعة عن النظام المعتزلي، والفيلسوف الشهير، الذى عاش نهاية القرن الثانى الهجرى (القرن الثامن الميلادي). وكان النظام أستاذاً للمأمون بن الرشيد، الخليفة العباسي، وقد اتهمه أعداؤه أنه فى زمن شبابه، قد عاشر قومًا من الثنوية (المجوس)، وقوماً من السمنية (السينية)، القائلين (بتكافؤ الأدلة)، وعلى أية حال، فقد وردت هذه العبارة فى كل الكتب بصيغة واحدة، وحدث التحريف فى لفظ واحد فقط، ألا وهو (السمنية) بدلاً من (السنية)، التى وردت، أول ما وردت، فى كتاب (الفرق بين الفرق) لعبد القادر البغدادي، المتوفى ٤٢٩هـ/١٠٣٧م.

إلا أن السمعاني، المؤرخ والمحدث الثقة، والمتوفى ٥٦٢هـ، قد نقل هذه العبارة كاملة فى كتاب (الأنساب)؛ ولكنه كتب (الحصرية) عوضاً عن (السنية)، حسبما وردت فى نسخة كتابه القديمة.

وقد نشرت جب ميموريل، عام ١٩١٢م، فى لندن، صورة زنكوغرافية من نسخة هذا الكتاب الأصلية، خلواً من ذكر فرقة باسم (الحصرية). والغالب أن أحدًا قد أطلق عليها (الدهرية)، حسبما ورد فى كتاب (علم الكلام) لمولانا شبلى نعماني؛ بيد أن هذا تصحيف واضح. وقد أخذت أبحث عن الاختلاف بين كلمة (السنية) و(الحصرية) ردحاً من الزمن، وقد هدانى الله أخيراً إلى نتيجة أطمئن

(١) البلاذرى - فتوح البلدان - فتح السند - ص ٤٢٩.

إليها، بحمد الله. ومفادها أنه لا وجود لكلمة (الخضرية) في نسخة السمعاني؛ وإنما صحف النساخ الكلمة، وأثبتوا الحاء والصاد المهملة، والأصل في الحقيقة (الخضرية)، وقد هداني ما كتبه الشهرستاني، المعاصر للسمعاني، والمحدث والفيلسوف المعروف، حين كتب يقول:

"وليس يشبه البد على ما وصفوه، إن صدقوا في ذلك، إلا بالخضر الذي يثبته أهل الإسلام"^(١).

وحيث إنه ثم افتراض تشبيه (بوذا) بالخضر؛ فما لا مزية فيه، أن يكون أتباعه قد أطلق عليهم لقب (الخضرية)، وأن السمعاني قد سمى هذه الفرقة (الخضرية)، في معرض حديثه عن النظام، وعليه فإن (سمنية) البغدادى و(خضرية) السمعاني، شيء واحد.

المحمرة

أما الاسم الثالث الذى أطلقته كتب العرب على البوذية، فهو المحمرة؛ أى: من يرتدون الملابس الحمراء^(٢)، ولعل المقصود بذلك اللون الأبيض، أو الزعفرانى؛ إذ إنه لباس رجال الدين (كهنة بوذا).

بوذا والأصنام

وقد أشير فى هذا السياق إلى لفظ (بت)، الذى نشأت منه كلمتا: عبدة الأصنام، والمعبد، ويعد هذا اللفظ بصفة عامة فارسياً، بيد أن أصل الكلمة (بدهـ)

(١) الشهرستاني - الملل والنحل - المجلد الثالث صـ ٢٤٢، حاشية ابن حزم.

- قد أضاف المؤلف جملة: "والذى ادعى وجود الخضر المنجمون والسحرة المسلمون"، إذ لا وجود لهذه العبارة عند الشهرستاني.

(٢) - البيرونى - كتاب الهند صـ ١٩١.

أى (بوذا)، والتي حرفت إلى (بد) ثم إلى (بت) أى (الصنم)، وحيث إنهم كانوا يعبدون صنم (بوذا)، فقد أصبح لفظ (بد) فى الفارسية (بت)، والجمع منه (بدده)^(١).

تمثال صقلي فى الهند

كان العرب يعرفون جيدًا أن أكثر زبائن التماثيل والأصنام هم الهنود. وفى هذا المقام، ترد رواية عجيبة وغريبة؛ وهى: "غزا معاوية بن جديع الكندي، أيام معاوية بن أبى سفيان، سقلية، وكان أول من غزاها، ولم تزل تغزى بعد ذلك. وقد فتح آل الأغلب بن سالم الأفريقي..... وقال الواقدي: سبى عبد الله بن قيس بن مخلد الذرقى، سقلية، فأصاب ذهبًا وفضة مكللة بالجواهر، فبعث بها إلى معاوية، فوجه بها معاوية إلى البصرة، لتحمل إلى الهند، فتباع هناك، ليثمن بها " البلاذرى ص ٢٣٧. وقد اختلف المسلمون حول هذا الشأن، ولم يعملوا به^(٢). كما ذكر بعض المؤرخين. بينما يقول البيروني: إن هذه التماثيل بعث بها إلى السند؛ لتباع هناك^(٣). ونظن ظنًا أن البيرونى قد استند على رواية الواقدي، وهى الرواية التى نقلها البلاذرى فى (فتوح البلدان)^(٤).

وعلى أية حال، فقد أثمرت العلاقات الدينية بين العرب والهند، وأنت أكلها، وحدث بينهما التأثير والتأثر، وعرف كل منهما مذاهب الآخر ومعتقداته. وأرى أن العقيدة التى كانت سائدة فى الهند، تلك الفترة؛ هى البوذية. وأن أكثر المناطق تأثرًا

(١) ابن النديم - الفهرست - ص ٣٤٧، وسفر نامه - سليمان ص ٥٥ - ٥٧، وكتاب (البد والتاريخ) ص ١٩، و(الملل والنحل) للشهرستاني ص ٢٤٠.

(٢) نهاية الإرب - إمارة صقلية ص ٤٢٦.

(٣) البيرونى - كتاب الهند.

(٤) البلاذرى - فتوح البلدان ص ٢٣٥ لندن. ونص العبارة: وكانت خلافة عمر بن عبد العزيز، فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة، على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وسموا بأسماء العرب ص ٢٤٩.

بدين العرب هي المناطق، التي كانت ممر تجارتهم، ابتداء من معبر (كارومندل) ومليبار، وكولم إلى الكجرات، ومن السند حتى كشمير.

وكان التأثير العربي أكثر وضوحاً جنوبى الهند، وفى جزر الهند الجنوبية، ويرجع الفضل فى ذلك. فضلاً عن التجارة، إلى المداومة على زيارة أثر (قدم سيدنا آدم) فى سرنديب (سيرلانكا الحالية).

المقام المقدس عند العرب والهنود

ومن المعروف أن ثم آثار أقدام فوق سفوح جبال (سرنديب) أو (سيلان) أو (لنكا)، سمها ما شئت. والله وحده يعلم، منذ متى وآثار هذه الأقدام مركزاً لعقيدة الناس. غير أن الشيء العجيب حقاً، أن تتواجد عقائد العرب المسلمين والبوذيين، وكافة الهنادكة؛ تعظيماً لها وتكريماً. وقد لا نجد لذلك مثيلاً فى عقائد الدنيا الأخرى؛ فالمسلمون يعظمونه، باعتباره أثر قدم سيدنا آدم - عليه السلام. وعند البوذية أثر أقدام (شاكهيه موني)؛ بينما يعتقد الهنادكة أنه أثر أقدام الإله (شيو)^(١)، ولهذا يقدسونه، ويحج إليه الناس من كل حذب وصوب.

وكان الرحالة العرب المسلمون، ومتصوفة العراق، يتطلعون إلى زيارة هذا المكان فى شوق كبير، وقد ذكره الرحالة العرب فى رحلاتهم البحرية، وقد جذبهم الشوق إلى زيارته. وأخيراً، فقد ثبت الإسلام أقدامه فى هذه الأرض، ووطد أركانه، (بالأسوة الحسنة)، وجولات الصوفية فى هذه الجزيرة، ذهاباً وإياباً.

وفى عهد ابن بطوطة، كان حاكم هذه الجزيرة هندوكي، وكان عند أثر الأقدام غار خاجه الخضر، وغار بابا طاهر، كما تكثر الأفيال فى شيلاو (سالام)، غير أن الأفيال لا تؤذى أحداً، ببركة دعاء الشيخ عبد الله الخفيف (ت ٣٣١هـ)، القطب الشيرازى الشهير.

(١) شيو: أحد الآلهة الرئيسية فى العقيدة الهندوكية، يحمل صفات متناقضة، فهو المدمر، والملشى، ورمز الشهوة، إلخ...

ومنذ ذلك الحين، أى منذ ظهور كرامات هذا الشيخ؛ أخذ سكان هذه المنطقة من غير المسلمين يحترمون المسلمين، ويضيفونهم فى منازلهم، بين أهلهم وأطفالهم، وظل الناس يذكرون اسم الشيخ عبد الله الخفيف احترامًا وتقديرًا، حتى عهد ابن بطوطة.

الإسلام فى الهند

وقد أخذ الإسلام يوطد أقدامه شيئًا فشيئًا، فى كل من السند، والكجرات، وكارومندل، ومليبار، وذبية المهل (المالديف)، وسرنديب، وجاوه. وكان انتشار البوذية أيضًا بتأثير الهنود من ناحية، والصينيين من ناحية أخرى.

ومن خلال قراءة كتب الجغرافيا والرحالة فى القرون المختلفة، يتضح لنا أن تأثير الإسلام قد أخذ ينمو، ويزيد أمره بالسلم والأمن، لا بالحرب والجبروت. وكان ثمة فرصة كى يتعرف كل منهما على عقائد الآخر، ونختتم هذا الباب بذكر بعض أحداث هذا العصر المتفرقة.

إسلام أحد ملوك البنجاب

يقول البلاذري، الذى أرخ لما حدث أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى):

"حدثنى أبو بكر، مولى الكريزيين، أن بلدًا يدعى الحسيفان^(١) بين قشмир، والملتان، وكابل، كان له ملك عاقل، وكان أهل ذلك البلد يعبدون صليماً، قد بنى عليه بيت، فمرض ابن الملك، فدعى سدة ذلك البيت؛ فقال لهم: ادعوا الصنم أن يبرئ ابني، فغابوا عنه ساعة، ثم أتوه فقالوا: قد دعونا، وقد أجابنا إلى ما سألناه؛ فلم يلبث الغلام أن مات، فوثب الملك على البيت فهدمه، وعلى الصنم فكسره،

(١) ذكر أمير خسرو فى كتابه (خزائن الفتح) قلعة سيوان، التى تبعد عن دهلى بمائة فرسخ، والتى كان ملكها سيتل جند، فى عام ٧٠٨هـ.

وعلى السدنة فقتلهم، ثم دعا قومًا من تجار المسلمين، فعرضوا عليه التوحيد، فوحد وأسلم، وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله - رحمه الله (٢١٨هـ/٢٢٧هـ) (١).

مناظرة دينية بين العرب والهنداكة

لقد بلغت العلاقات بين العرب المسلمين والهنداكة والبوذيين شأواً بعيداً، أدى إلى عقد المناظرات الدينية بينهم جميعاً. وفي نهاية القرن الثاني الهجري، حدثت واقعة، كانت في عصر هارون الرشيد، والد الخليفة المعتصم؛ إذ أرسل أحد ملوك الهند رقعة إلى هارون الرشيد، يطلب منه (أن يرسل عالماً من علماء دينه يعرفه الإسلام، وأن يعقد مناظرة مع أحد الكهنة الهنداكة).

وفي رواية أخرى، أن أحد حكام السند كان عنده عالم من علماء البوذية، فأضل الملك إلى أن يرسل رقعة، يقول فيها: "إنه ليس لديك دليل على صدق دينك إلا السيف، ولو كنت على يقين من صدق مذهبك، فأرسل إلى عالماً يناظر أحد علمائي". وقد أرسل الخليفة إليه أحد علماء الحديث الأجلاء، سفيراً لهذه المهمة. وعندما بدأ العالم الهندوكي (بندت) في عرض اعتراضاته العقلية، شرع العالم المسلم يرد عليه بالأحاديث النبوية. فقال له العالم الهندوكي: إن هذا سند الذين يؤمنون بدينك، ودليل لهم. وفي رواية أخرى: إن العالم الهندوكي سأله: إن كان إلهك قادراً على كل شيء، أقادر على أن يخلق كياناً مثله؟ فقال العالم إن الإجابة على هذه الأسئلة من اختصاص علماء الكلام. فأعاد الملك هذا العائم، وأرسل رقعة إلى هارون الرشيد، قائلاً: لقد عرفت هذا من أسلافي منذ البداية، والآن، وبعد أن شاهدت بأم رأسي، تيقنت أنك لا تملك أي دليل على صدق مذهبك. فاستدعى الخليفة علماء الكلام، وعرض عليهم هذه القضية، فانبرى طفل من وسط هذا الجمع، وقال:

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٣٣.

"يا أمير المؤمنين، إن هذا الكلام محض لغو؛ فالله لم يلد، ولم يولد، وليس مخلوقاً؛ فلو فرضنا أنه سيخلق إلهاً آخر، فلن يكون مثله، لأنه سيكون مخلوقه، ثم، إذا كان مثله، فهذا تهوين بالذات الإلهية؛ وهذا محال على الله. ومثل هذا مثل شخص يقول: أيمن أن يكون الله جاهلاً؟ أيمن أن يموت؟ أيمن أن يأكل أو يشرب؟ أو ينام؟ والظاهر أن الله لا يفعل شيئاً من هذه الأشياء، ففي كل هذا تهوين لذاته العلية. فأعجب الجميع بهذه الإجابة. وأراد الخليفة أن يرسل هذا الغلام لمناظرة العالم الهندوكي في الهند. إلا أن المخضرمين قالوا: يا مولاي، إنه لا يزال صبيّاً، وإن كان أجاب عن سؤال؛ ليس معناه أن يجيب عن كل الأسئلة. فاختار الخليفة أحد علماء الكلام المشهورين، وأرسله إلى الهند".

وهناك رواية تقول: إنه ناظر هذا العالم البوذي وهزمه. وفي رواية أخرى: إن العالم البوذي خشى مقابلة هذا العالم الفاضل، بعد أن علم بفضل تمكنه في العقليات والأديان؛ فما كان منه إلا أن دس له السم في الطريق، قبل أن يصل إلى بلاط الملك.

وعلى أية حال، فإن هذه الرواية سواء أكانت صحيحة أم خاطئة؛ فإن الثابت هو، أن العلاقات والروابط الدينية بين العرب والهنود بلغت شأواً بعيداً في الرقي والتطور.

ملك يعشق المناظرة

كتب المسعودي، الذي جاء إلى الهند عام ٣٠٣هـ، كتب عن أحوال كهмбаيت يقول: "عندما وصلت هنا عام ٣٠٢هـ، كان ثم حاكم هندوكي من طبقة (البنيا) التجار، وكان من ولاية ملك مهانجر " وليهـ رائـ"، وكان يعشق المناظرات، وكان يناظر من يوافي مدينته من رجال الدين المسلمين، وغير المسلمين" (١).

(١) المسعودي - مروج الذهب - المجلد الأول - ص ٢٤٥ - لندن.

مناظرة مع البوذيين

إن أتباع المذهب البوذي لا يؤمنون إلا بالعلم عن طريق الحواس الملموسة، وكانت مدينة البصرة، أواسط القرن الثاني الهجري، مركزاً لأصحاب الملل، والعقائد المختلفة.

وفي البصرة، جرت مناظرة بين واصل بن عطاء، وجهم بن صفوان، وبين علماء البوذية، فأفحمهم واصل بن عطاء بأدلته^(١).

مسلم يعبد الأصنام

في عام ٣٧٠هـ، كتب أحد الرحالة العرب المقدسيين (وأما الأصنام بهذا الإقليم، فصنمان بهيروا من حجر لا يصل إليه أحد له طلسم إذا وضع الرجل يده بقيت لا تصل إليه، وهما على شبه الذهب والفضة. كل من طلب عندهما حاجة زعموا أنها تقضى. وثم عين ماء خضراء، كأنها زنجار، أشد برداً من الجليد، حجرها يبرئ الجراحات. والخدم يأكلون من الزنا، وعليه أوقاف من الزناة كثيرة. ومن أراد أن يكرم ابنته جعلها وقفاً عليه. فهما فتنة، ورأيت رجلاً من المسلمين، ذكر أنه ارتد، ورجع إلى عبادتهما، وافتتن بهما، ثم عاد إلى نيسابور، فأسلم، وهما طلسمان^(٢).

الترجمة الهندية لمعاني القرآن الكريم منذ ألف عام

شرع الناس اليوم في ترجمة القرآن الكريم إلى الهندية، لكن مما يبعث على الدهشة، أن القرآن الكريم قد ترجم إلى الهندية أو السنديّة منذ ألف عام تقريباً. هذا ما نقله لنا بزرك بن شهريار، بقوله: "فما في الهند، ما حدثنا به أبو الحسن بن

(١) أحمد بن يحيى المرتضى - كتاب المنية والأمل في شرح كتاب المل والنحل - باب ذكر المعتزلة - طبعة حيدر آباد الدكن - سنة ١٣١٦هـ - أحوال واصل بن عطاء - ص ٣١ - ٤٣.

(٢) البشارى المقدسى - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ص ٤٨٣.

عمرو بن حمويه.... بالبصرة، قال: كنت بالمنصورة في سنة ثمان وثمانين ومائتين، وحدثني بعض مشايخها، ممن يوثق به، أن ملك الراء (الور الواقعة في السند) وهو أكبر ملوك بلاد الهند، والناحية التي هو بها بين قشмир الأعلى (كشмир)، وقشмир الأسفل (البنجاب)، وكان يسمى مهروك بن رائق، كتب في سنة سبعين ومائتين إلى صاحب المنصورة (الواقعة بالسند)، وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، يسأله أن يفسر له شريعة الإسلام بالهندية، فأحضر عبد الله هذا رجلاً كان بالمنصورة، أصله من العراق، حاد القريحة، حسن الفهم، شاعرًا، قد نشأ ببلاد الهند، وعرف لغاتهم على اختلافها، فعرفه ما سأله ملك الراء، فعمل قصيدة ذكر فيها ما يحتاج إليه، وأنفذها إليه، فلما قرئت على ملك الراء استحسناها، وكتب إلى عبد الله، يسأله حمل صاحب القصيدة، فحملة إليه، وأقام عنده ثلاث سنين، ثم انصرف عنه، فسأله عبد الله عن أمر ملك الراء، فشرح له أخباره، وأنه تركه، وقد أسلم قلبه ولسانه، وأنه لم يمكنه إظهار الإسلام؛ خوفًا من بطلان أمره، وذهاب ملكه^(١). (ص ١٧٤).

عدل ديني منقطع النظير لملك الكجرات

في أواخر القرن السادس الهجري، حينما قامت حكومة شمس الدين آتشمش في (دهلي)، وحكومة ناصر الدين قباجه في (السند)، عقب السلطان الغوري. جاء إلى الهند عالم فاضل اسمه (محمد عوفى)، قادمًا من بخارى، وقد بدأ ترحاله إلى الخليج الفارسي، والسواحل العربية، وسائر موانئ الهند من أحد سواحل المنصورة غالبًا.

وفي أثناء تلك الرحلة، وصل إلى (كهيمات)، وكان له في ذلك الوقت كتابان: الأول (تذكرة شعراء الفارسية) الموسوم (الباب الألباب)، كتبه لوزير ناصر الدين قباجه؛ وقد نشرته سلسلة (جب) في مجلدين بلندن. والثاني أكبر منه

(١) عجائب الهند - ص ٤ - لندن.

قليلاً، ألا وهو (جامع الحكايات، واللامع فى الروايات)، يذكر فيه المؤلف كل ما سمعته أذناه، أو رآته عيناه، أو قرأه فى كتاب، من وقائع وقصص ذات عناوين مختلفة.

وقد كتب هذا الكتاب لقوام الدين جنيدى، وزير السلطان التمش. ومازال هذا الكتاب مخطوطاً لم ير النور حتى الآن. ومنه نسخة محفوظة فى مكتبة دار المصنفين بالهند. وقد كتب (محمد عوفى)، فى الباب الثانى من هذا الكتاب: ذكر ملوك الطوائف وأحوالهم، وكتب قصة غريبة وعجيبة، نعرف منها علاقات الهنادكة والمسلمين، وكيف كانت تسير فى ذلك البلد، خلال فترة الحكم العربى، وكيف كان الحاكم الهندوكى يعامل رعاياه المسلمين، ويشملهم بعدله وإنصافه.

كانت رحلة (محمد عوفى) قبل عام ٦٦٥هـ، والواقع أن هذه القصة سابقة على ذلك التاريخ؛ إذ كان هذا عندما كانت الكجرات - خلا بعض المناطق - تخضع للسلطان محمود الغزنوى، ولقطب الدين أيبك، بعده بمائتى عام؛ حيث لم تشهد هذه المنطقة أى حكم إسلامى عداهما. يقول محمد عوفى:

"ذات مرة، ذهبت إلى كهмбаيت مصادفة؛ حيث إنها مدينة على شاطئ ميناء، يقطنها جماعة من المسلمين، تقوم على خدمة المسافرين وإكرام وفادتهم، وهى تتبع مدينة نهروالة (القريبة من أحمد آباد بالكجرات). كما يقطنها فضلاً عن المسلمين، البعض من غير المسلمين. وحين وافيتها، سمعت ما يشبه قصة نوشيروان، وهو أنه فى عهد حكم الملك (جنك)، كان ثم مسجد به مئذنة، يؤذن فيها المسلمون للصلاة؛ فحرض المجوس (البارسين) الهنادكة على المسلمين؛ فحطموا المئذنة، وهدموا المسجد بعد أن قتلوا ثمانين من المسلمين. ففر إمام المسجد، وكان اسمه علياً، وذهب إلى مدينة نهروالة، واستغاث ببلاط السلطان، إلا أن أحداً لم يعره اهتماماً. وعندما رأى الإمام هذا، راودته فكرة أن ينظم قصيدة باللغة الهندية (والغالب بالكجراتية)؛ يروى فيها الواقعة كاملة. واحتال فى معرفة موعد خروج الملك إلى الصيد".

وعندما حل يوم الصيد؛ أخذ القصيدة، وتخفى فى أحراش الطريق. وعندما مر موكب الملك، قفز الإمام أمام الملك مستغيثًا، ورجا الملك أن يسمع استغاثته. فأمر الملك موكبه بالتوقف، واستمع إلى مظلّمته متأثرًا بها تأثرًا شديدًا. وأخذ القصيدة، وسلمها قائدًا من قواده؛ وطلب منه أن يقرأها له ثانية، حين تسنح الفرصة.

وعاد الملك من صيده، واستدعى وزيره، وطلب منه أن لا يزعجه أحد مدة ثلاثة أيام؛ لأنه سيخلد إلى الراحة فى قصره. وطلب منه أن يتولى إمضاء الأمور نيابة عنه، ثم ذهب إلى قصره.

وامتطى الملك ناقة سريعة العدو ليلاً، وذهب إلى كهبمايت، التى تبعد عن نهروالة حوالى أربعين فرسخًا. وقطع الملك تلك المسافة فى يوم واحد، وتكر فى زى تاجر، ودار فى الأزقة والأسواق؛ ليتحقق مما حدث بنفسه، واستمع إلى كلام الناس فى الشوارع. وأجمع الجميع أن المسلمين قتلوا غيلة بلا جريرة، وأنهم ظلموا ظلمًا كبيرًا، وبعد التحرى والتحقيق، أخذ معه إبريقًا مملوءًا من مياه البحر، وأحكم غلقه، ورجع إلى عاصمته ممطيًا الناقة، خلال أربع وعشرين ساعة.

وفى الصباح، دعا إلى عقد البلاط، ثم عرضت المظالم، وطلب عرض مظلّمة إمام المسجد. ولما حضر الإمام إلى البلاط، أمره الملك أن يعرض مظلّمته، فكذبه أمراء البلاط الهنادكة، واحتجوا على دعواه. فنادى الملك على الساقى، وأمره أن يحضر هذا الإبريق، وطلب أن يشرب كل واحد جرعة من مائه، وكل من شرب لم يستسغ أن يبلع الماء؛ وقال: إنه ماء أجاج. فقال الملك: إننى لم أعتد على أحد آخر فى هذا الأمر؛ حيث إننا نختلف معهم فى الدين. وعليه، فقد سافرت بنفسى، وتحريت هذا الأمر، وثبت لى بالدليل القاطع ما وقع على المسلمين من ظلم بين، ولا أقبل أن يقع ظلم على أحد فى مملكتى، وأمر بالقبض على كل من ارتكب هذه الجريمة من الهنادكة؛ ليعاقب على جرمه. وأمر بدفع تعويضات للمسلمين،

تقدر بحوالى مائة ألف (بالوتھرا) (العملة الكجراتية فى ذلك الوقت)، كى يمكنهم من إعادة بناء المسجد والمئذنة مرة أخرى. ثم خلع على الإمام حلتہ وأنعم عليه.

وهكذا بنى المسجد مرة أخرى، وظلت هذه العطايا ذكرى لصاحبها فى المسجد. وكانت تعرض على الزائرين فى كل عيد من الأعياد. ويقول محمد عوفى: (مازالت هذه الأشياء موجودة حتى الآن (٦٦٥هـ)، ومازال المسجد والمئذنة قائمين، إلا أنه حدث بعد عدة أيام أن هجم جيش بالو (بالا) على الكجرات، فدمر المسجد. وأخيراً، قام أحد التجار العرب، ويدعى سعيد بن أشرف، ببناء المسجد مرة أخرى على نفقته الخاصة، وبنى حوله أربع قباب ذهبية، ومازال المسجد قائماً، يخلد ذكرى الإسلام، فى ديار الهنادكة حتى الآن).

وحدة الوجود عند المسلمين

كانت لنظرية (وحدة الوجود) أشكال مختلفة عند كافة الشعوب، قال بها بعض الفلاسفة اليونان، وآمنت بها الفرقة الأفلاطونية فى الإسكندرية. وكانت هذه الفكرة عند اليهود والمسيحيين القدماء أيضاً. وحاول بعض المتصوفة المسلمين الدعوة لها بكل قوة؛ مما يدل على أن نظرية (وحدة الوجود) بها معان كثيرة مختلفة. وقد شرحت هذه النظرية شروحا عديدة، وكان شرحاً من شروحها مرادفاً ومطابقاً لمعنى الحلول.

وليس غايتنا من هذه القضية إلا بحثها من الناحية التاريخية. وقد برز هذا التساؤل كثيراً، وهو: من أين أتى هذا المفهوم لمتصوفة المسلمين؟ وعن طريق البحث، فليس ثمة دليل يؤكد أن العرب عرفوه عن طريق (الويدانت) الهندوكية. علماً بأن هذا المفهوم قد ظهر فى نهاية القرن الثالث الهجري، زمن حسين بن منصور الحلاج، ومحيى الدين بن عربي. ومما لا مرية فيه أن المتصوفة المسلمين

قد تأثروا بالويدانت الهندوكية، بعد مجيئهم إلى الهند^(١). بيد أن هذا المفهوم كان موجودًا في الفكر الإسلامي، الذي كان أول من قال به محيي الدين بن عربي، وهو من سكان الأندلس، وما سنحت له فرصة مقابلة الفلاسفة الهندوك، والمظنون أنه تأثر بالفلسفة الأفلاطونية، لا بالويدانت الهندوكية.

أما الحسين بن منصور الحلاج؛، فإن ما كان يدعيه من (وحدة الوجود) لم يكن مفهومًا لصوفي مسلم، يأخذ بالحيلة والاعتبار؛ بل كان نوعًا من الحلول، على غرار الذي يحدث لإله الهنادكة، ذي الكيان البشري.

وقد فصل القول في هذا كتاب التذاكر القدامى، كما اتضح من كتابة (الطواسين)، وثبت أيضًا أنه وافى الهند؛ لتعلم السحر والشعوذة وغيرها من الأعمال - كما يقول البعض - كي تساعد في نشر أفكاره. وليس مستغربًا أن يكون قد أخذ مفهوم "وحدة الوجود" من الهند، ثم رحل إلى العراق^(٢).

الوحدانية لدى الهنادكة

كما ثبت أيضًا أن مفهوم الوحدانية المنزهة، ونبذ عبادة الأصنام، قد جاء من جراء الإسلام. وهذا موضوع كبير يحتاج إلى بحث خاص، على أن يكون ملحقًا من ملاحق بحث آخر.

(١) في الغالب أن أحد البنغاليين، حديثي العهد بالإسلام، في القرن الثامن الهجري، اشترك مع أحد المتصوفة في ترجمة كتاب "امرت كند" من السنسكريتية إلى العربية باسم "عين الحياة"، ومنه ترجم إلى الفارسية، ثم ترجم من الفارسية إلى الأربية. وقد ترجم "دارا شكوه" كتاب "خوك-بشت" في الفارسية باسم "السر الأكبر" في عصره.

(٢) لقد نشر أحد المستشرقين المتصوفة الفرنسيين لويس ماسيغون (Lous Massiguan) كتاب "الطواسين" للحلاج، عام ١٩١٤م في باريس، كما جمع في مجلد مستقل بعض أحوال الحلاج، وواقعة قدوم الحلاج إلى الهند مذكورة في كتاب (ابن باكويه)، الصوفي الشيرازي، انظر: ص ٣١٤، طبعة باريس.

الخاتمة

إن ما تم عرضه فى تلك الصحف عن العلاقة الدينية بين العرب والهنود، وبإتعام النظر فيه، يبرز هذا التساؤل: أسمح العرب والهنود، على الرغم من تدينهما الشديد، بأى شيء يعكر صفو هذه العلاقة؟ وهل حدث فى الماضى ما يمكن حدوثه فى المستقبل؟

الباب الخامس

المسلمون في الهند (قبل الفتح)

المصادر:

وفضلاً عن المصادر السابق ذكرها، فقد أفدنا في سرد المعلومات الواردة أدناه من كتب تاريخ السند، المكتوبة بالفارسية، والتي ما زالت مخطوطة لم تطبع، وإن كانت هذه المخطوطات متوفرة في المكتبات. وجعلت نصب عيني الاقتباسات الكثيرة، التي قدمها السيد (اليت) في الجزء الأول من كتابه التاريخي، وهذه المصادر هي:

١- جج نامه

أقدم كتاب عربي عن تاريخ السند، عنوانه "تاريخ السند والهند"، نقله محمد علي بن حامد بن أبي بكر الكوفي من العربية إلى الفارسية، عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م؛ وذلك حين استوطن "اوج" (السند)، إبان عهد ناصر الدين قباجه. وقد فقد النص العربي، الذي لا يختلف عن الترجمة الفارسية إلا في قصة وفاة محمد بن القاسم، وحادثة أسر بنت الملك "داهر"؛ أما بقية الوقائع التي اشتمل عليها، فتحظى بتوثيق من كتب التاريخ العربية القديمة.

٢- تاريخ معصومي

وهو كتاب في تاريخ السند، ألفه مير محمد معصوم، عام ١٠١١هـ، في عهد أكبر.

٣- بيك لار نامه

ألف هذا الكتاب حوالي عام ١٠١٧هـ/ ١٦٣٦م، وهو منسوب إلى شاه قاسم خان بن سيد قاسم بيك لار.

٤- تاريخ طاهري

كتاب عن السند، ألفه مير طاهر بن سيد حسن القندهاري، عام ١٠٣٠هـ / ١٦٥٤م، أثناء أقامته بالسند.

٥- تحفة الكرام

هو آخر تلك الكتب، ألفه علي شير، عام ١١٨١هـ / ١٧٦٧م. وقد ورد بشأن جميع المعلومات المبسطة في هذه المقدمة في اللغة الأردية، كتابان جديران بالذكر:

١- تأليف مولانا عبد الحليم شرر اللكهنوي، عام ١٩٠٩م، وهو جزءان، عن تاريخ السند الإسلامية، غاية في الإسهاب، اعتمد مؤلفه اعتمادًا أساسيًا على ما ورد من معلومات ومصادر في الجزء الأول من كتاب تاريخ السند "الليت"، وزاد عليه بعض تحقیقاته الخاصة، ورغم غزارة مادته المهمة، فإنه في حاجة إلى التحقيق العلمي الحديث. وفضلاً عن أن مولانا قد اعتمد في كتابه على كتاب "الليت" بصورة مطلقة، فقد فسر بعض القضايا بمثل هذه الأفكار، التي هي عندي - كما سيتضح بعد - بمعزل عن الصواب. كما أنه لم يذكر أرقام الصفحات أو رقم الجزء أو الباب، عند الإشارة إلى مصادره؛ لذا فإنه من الصعوبة بمكان أن نقتنع بما نقله من أحداث.

٢- أما الكتاب الآخر، فهو كتاب بيرزاده محمد حسين صاحب الدهلوي (ماجستير)، وهو عبارة عن ترجمة قام بها للجزء الثاني من رحلات ابن بطوطة، القسم الخاص بالهند. وأهم ما يميزه تلك الحواشي التي سطرها المترجم عن الأعلام والبلدان، التي ذكرها ابن بطوطة؛ والتي استقاها بدوره من الترجمة الإنجليزية، والبحث والتحقيق الذاتي.

إن تاريخ الهند الذي يدرس في مدارسنا وجامعاتنا له هدف محدد، وفي ظل هذا الهدف تؤلف الكتب عن تاريخ الهند بالإنجليزية، وينبغي أن يطلق على محتوى

تلك الكتب (تاريخ الهند القديم). إذ كأنه جزء من تاريخ الإسكندر وخلفائه، فمنذ هذا الغزو، وقد انقلبت الهند رأساً على عقب، فامتلكت ثروة من العلم والفن، واحتلت مكاناً في تاريخ المالم.

ومن هنا، أصبح تاريخ الهند القديمة مجرد استقصاء لكل ما يتعلق بهجوم الإسكندر، ومسالكه التي اتخذها إبان زحفه؛ فضلاً عن تصحيح جميع الأسماء اليونانية المغلوبة، وعرض تصريحاتهم المغلوبة وترتيبها. وعندما يأخذ هذا المؤرخ في الكتابة عن تاريخ الإسلام والهند، يخصص عدة سطور عن العرب البرابرة؛ (نعوذ بالله) من رسولهم السفاك، ومن خلفائه، وما قاموا به من حملات متكررة، وذلك في صفحة أو صفحتين، ثم ينتقل مباشرة إلى غزنة؛ حيث يقف جيش السلطان محمود على أهبة الاستعداد للجهاد في الهند.

ويقود السلطان جيشه، الذي يصل به إلى البنجاب والسند والكجرات فوراً، ثم يقفل عائداً بعد السلب والنهب. ثم بعد مائة وخمسين عاماً يأتي السلطان شهاب الدين الغوري إلى الهند، ثم يدفع بشريط أحداث تاريخ الهند في القرون الوسطى إلى الأمام. والسؤال هنا، كيف تلتقى حدود الهند واليونان على الرغم من بعد الشقة بينهما؟ ثم ألا تلتقى حدود أفغانستان والهند من ناحية، وحدود مكران والسند من ناحية أخرى مع القرب والجوار؟ أو لم يكن بين هذه الدول نوع من العلاقات السلمية والحربية؟ وهل كانت هذه العلاقات قائمة قبل إسلام هذه القبائل الحدودية أم لا؟ وفي النهاية، يجب أن تتصل عرى هذه الحلقات المفقودة، فهل لنا أن نخرج منها بنتيجة أم لا، بعد بحثها وتقييمها؟

ومن الاطلاع على هذه الكتب التاريخية، يتضح لنا أن قدم مسلم لم تطأ هذه الأرض الطاهرة حتى قدوم محمود الغزنوي إلى هذه البلاد، وأن أي نوع من العلاقات بين المسلمين والهنداكة لم تحدث، ولم يكن أحدهما يعرف الآخر، وليس ثم أي نوع من الرحلات بينهما؛ ولكن الصفحات السابقة تروى لنا مدى ما كان بين هاتين الأمتين من علاقات شتى.

لقد كان ثمة روابط سلمية وحربية دائماً بين الهند والبلاد الواقعة بعد ممر خيبر، وكانت هذه أحوال البلاد قبل الإسلام. وعندما أصبح ملك كابل فى قوة ومنعة، استولى على (ويهند) حتى بشاور، وعندما سنحت الفرصة أيضاً (لراى لوهار)، أقام حدوده حتى كابل وقندهار.

وقد استولى ملك إيران على المنطقة من مكران حتى نهر السند أحياناً، كما بسط ملك السند سيطرته من بلوچستان ومكران حتى حدود إيران أحياناً أخرى. وكان هذا حال البلاد حتى القرن السابع الميلادي.

وعندما توالى الفتوحات الإسلامية، واعتنق سكان وقبائل هذه البلاد الإسلام؛ كانت الدولة السامانية - والتي اتخذت من بخارى عاصمة لها - أول الدول الإسلامية هناك. غير أنه لم يكن ممكناً التفكير فيما وراء كابل آنئذ.

ثم قامت الدولة الصفارية لفترة وجيزة، بيد أنها كانت تتطلع إلى ما بعد كابل وقندهار، وقد أسند إليها (اسميا) ولاية السند من قبل الخلافة العباسية؛ إلى أن قام أحد القادة الأتراك البتكين (منتصف القرن الرابع الهجري) بالتمرد على حدود الدولة السامانية، واتخذ من (غزنة) مركزاً لحكومته المستقلة فى تلك المنطقة البعيدة، والثانية من أجل أن يحافظ على ملكه ونفسه من بطش سيده وهجماته عليه.

ثم ظهر السلطان (محمود الغزنوي)، الذى يعتبر الحاكم الثانى أو الثالث لهذه الدولة الغزنوية. وعلى امتداد فترة حكمه، الذى استمر ثلاثة وثلاثين عاماً، قام بحملات لا حصر لها على كل الدول والولايات التى تجاور غزنة. سواء أكانت هذه الدول مسلمة أم غير مسلمة، وضمها إلى دولته، التى صارت دولة عظيمة الشأن، مترامية الأطراف؛ حيث ضم دولة (كاشغر) الإيلخانية الإسلامية من جهة، ودولة سيده السامانية من جهة أخرى، ثم ضم دولة الديالمة، ودولة آل زياد فى (طبرستان) من جهة ثالثة. أما من الشرق فقد ضم بلاد الغوريين، التى لم تكن أسلمت بعد، ولم تكن أيضاً تابعة لأى دولة قط.

ثم قام بقلب أنظمة الأمراء العرب في السند والملتان، وبعض ملوك لاهور والهند شرقاً، وبذا أقام دولته الغزنوية، التي كانت كلها دويلات إسلامية، ماعدا دولة الهند والغور.

وحيث إن الخوض في تفاصيل هذه الأمور خارج عن نطاق هذا البحث؛ لذا أناشد الباحثين في تاريخ الهند - بعد كتابة هذه السطور القليلة - جمع المادة العلمية عن العلاقات الأفغانية الهندية، قبل محمود الغزنوي بكل فحص وتدقيق، وأن يطلعونا على ما توصلوا إليه من نتائج جديدة.

مما سبق، يمكن القول: إن ما أبلاه المسلمون القادمون مع ملوك الهند عبر أبواب الجبال الأفغانية، لم يكن نتيجة الشعور بالواجب الديني فقط، بل كان حلقة في سلسلة من الصراعات القومية، امتدت عدة قرون.

على كل حال، كان هذا الوضع في شمال الهند. أما في جنوبها، فقد اتخذ شكلاً آخر؛ إذ في عام ٤١٦هـ/١٠٦٤م قام محمود الغزنوي، ومن بعده شهاب الدين الغوري، عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م، ثم قطب الدين أيبك، عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م، قاموا بشن هجمات متوالية على (الكجرات) كانت أشبه بالسحاب الذي يسبق العاصفة. وبعد ذلك بمائة عام، دعا الوزير (مادهو) بعلاء الدين الخلجي، عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، حاكماً على (الكجرات) إثر شقاق بينه وبين الملك (باگهينا). ثم ما لبثت فتوحات علاء الدين الخلجي أن امتدت من (الكجرات) حتى منطقة (كارومندل) على ساحل البحر، إلا أن هذه السلسلة من الفتوحات كانت أشبه بسفينة تشق عباب البحر إلى الأمام، وكلما تقدمت محا الماء أثارها من الخلف، وكان هذه الفتوحات لم تعد أن تكون نزهة عسكرية لقائدها الخلجي، ليس أكثر.

وفي عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، قام أحد قواد علاء الدين الخلجي، ويدعى ملك كافور، بفتح (كرناتك)، ثم بعدها (وفي عام ٧٢٧هـ/١٣١٣م) تأسست سلطنة هندوكية عظيمة الشأن في (بيجانگر) جنوب الهند، ظلت تحمي جنوب الهند قروناً

طويلة من الغزاة المسلمين في الشمال، حتى أن معبر (كارومندل)، الذي كان ملك (كافور) قد ضمه إلى فتوحاته، ليصبح دولة إسلامية، سقط بعد أربعين عامًا في يد سلطنة (بيجانغر)، وأصبح تحت سلطانها.

وكان المقيمون العرب والمسلمون والعراقيون، بعيدين كل البعد عن دائرة هذه الحروب والصراعات والهجمات؛ لأنهم لم يكونوا قد أتوا من الشمال إلى الجنوب عن طريق البر، بل جاءوا عن طريق البحر، فاستوطنوا هذه المناطق، التي كانوا يترددون عليها.

والآن، أصبح الأمر واضحًا وضوح الشمس، وهو أن المناطق الإسلامية قد قامت في جنوب الهند قبل شمالها، وهذا راجع إلى العلاقات التجارية. ولم ينته الأمر عند استيطان بعض المسلمين الوافدين لهذه المنطقة؛ بل إن سكان هذه المناطق أخذوا يعتنقون الإسلام. وهناك العديد من الروايات المشهورة، تزدحم بها كتب التاريخ والرحلات، وتتفق جميعها على أن هذا نتيجة أمرين: أحدهما، تردد التجار العرب من ناحية، وكرامة المتصوفة والدراويش القادمين لزيارة أثر أقدام سيدنا آدم - عليه السلام - في (سرنديب) من ناحية أخرى.

سرنديب المقر الأول للمسلمين

كتب فرشته يقول: "بما أن العرب كانوا يأتون هذه الجزر تجارًا قبل الإسلام، وكان أهل البلاد يذهبون أيضًا إلى بلاد العرب، كان ملك (سرنديب) أول من اطلع على أحوال الإسلام والمسلمين؛ فاعتنق الإسلام في عهد الصحابة - رضوان الله عليهم - عام ٤٠ هـ (أي في بداية القرن السابع الميلادي)^(١). وما أشار (فرشته) إلى المصدر، الذي استقى منه هذه المعلومات، بيد أن ما ورد في كتاب (عجائب الهند) القديم - الذي تم تأليفه عام ٣٠٠ هـ - يؤكد هذه الرواية

(١) فرشته - المجلد الثاني - المقالة الثامنة - السند - ص ٣١١ نولكشور.

تمامًا. ويصف بزرك بن شهریار ناخدا، الذى كان بحارًا فى هذه الجزر، يصف سرنديب، فيقول:

"وذكرت... أمر عباد الهند وزهادهم، وهم عدة أصناف، منهم البيكور^(١)، وأصلهم من سرنديب، وهم يحبون المسلمين، ويميلون إليهم ميلاً شديداً، وهم فى الصيف عراة، حفاة، لا يسترّون بشيء، وربما جعل الواحد منهم على سواته خرقة، أربعة أصابع فى مثل ذلك، مشدودة بخيط فى الوسط، وفى الشتاء يتشحون بالحصر الحشيشة، ومنهم من يلبسون الإزار مرقعاً من كل لون على لون المرقعة للشهرة، ويلوثون أبدانهم برمد عظام الموتى من الهند الذين أحرقوا، ويحلقون رؤوسهم، وينتفون لحاهم وشواربهم، ولم يحلقوا شعر العانة، ولا شعر الإبطين، وفى الأكثر يقصون أظافرهم، ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت، يأكل فيه ويشرب، على سبيل الاتعاض بذلك".

ومما لا مرية فيه أنه من هذا الوصف، ومما نقله الرحالة العرب عن هذه الجماعة، ندرك أنه ليس هناك أدنى شك فى أنها من أتباع الديانة البوذية.

ثم يأخذ صاحبنا (الناخدا) بسرد حكايته، فيقول: "وكان أهل سرنديب وما والاها بلغهم خروج النبى - صلى الله عليه وسلم، وتوفى أبو بكر - رضى الله عنه، ووجد القائم بالأمر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فسأله عن أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - فشرح له وبين.

ورجع وتوفى الرجل بنواحى مكران (بالقرب من بلوچستان). وكان مع الرجل غلام له هندي، فوصل الغلام إلى سرنديب، وشرح لهم الأمر، وما وقف عليه من أمر النبى - صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب - رضى الله عنه، ووصف لهم تواضعه، وأنه كان يلبس مرقعة، ويبيت فى المساجد؛ فتواضعهم لأجل

(١) غالبًا هذه هى الكلمة التى وردت فى كتاب " البدء والتاريخ "، ورحلات سليمان التاجر، وغيره، باسم "بيكرجين"، وأحيانًا باسم "بيكرتين".

ما حكى لهم ذلك الغلام، ولبسهم الثياب المرقعة لما ذكره من لبس عمر - رضى الله عنه - المرقعة، ومحبتهم للمسلمين، وميلهم إليهم لما فى قلوبهم مما حكاه ذلك الغلام عن عمر - رضى الله عنه^(١) (عجائب، ص ١٨٩ - ١٩٠).

ومما يؤكد هذه الرواية أيضاً، أن السفن كانت تبحر من العراق إلى جزر الهند، زمن الحجاج الذى كان والياً على العراق فى عهد بنى أمية، أواخر القرن الأول الهجري. وقد أهدى ملك سرنديب (التي كان يطلق عليها العرب جزيرة الياقوت)، نسوة ولدن فى بلاد المسلمين ومات أبائهن، وكانوا تجاراً، فأراد التقرب بهن^(٢).

من هذه الواقعة، يتأكد لدينا أن استيطان المسلمين (سرنديب) قد بدأ فى القرن الأول الهجري، ولقد ذكر أبو زيد السيرافى (عام ٣٠٠هـ)، أواخر القرن الثالث الهجري، إقامة التجار العرب فى هذه البلاد وترددهم عليها^(٣).

وصفوة القول، إننا نستطيع أن نخلص من كل هذه الروايات المتعددة إلى أن (سرنديب) كانت أول منطقة إسلامية عربية فى هذه البقاع، وأن ذلك يعود إلى القرن الأول الهجرى - السابع الميلادي.

المقر الثانى المالديب (مالديف)

كانت جزيرة (مالديف) المقر الثانى للعرب والمسلمين، والذين أطلقوا عليها اسم (ذبية المهل)، بل كانوا يطلقون على كل هذه الجزر الصغيرة كلمة (ديبات)^(٤)، وقد ذكر ابن بطوطة أحوال هذه الجزيرة بشيء من التفصيل. وفى زمانه؛ أى فى

(١) عجائب الهند - ص ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) البلاذرى - فتوح البلدان - عام ٢٧٩هـ - ص ٤٢٣.

(٣) أبو زيد السيرافى - ص ١٢١ - باريس.

(٤) كلمة "ذيب" فى السنسكريتية تعني: الجزيرة.

عصر محمد تغلق (عام ٧٠٠هـ)، كانت الجزيرة كلها مسلمة. وكان سكانها من العرب والمسلمين، وكانت تحكمهم سيدة بنغالية، تدعى السلطانة خديجة.

وإن عصر ابن بطوطة، كان به العديد من العلماء والبحارة، اليمنيين وغير اليمنيين. وما ورد على لسانه بشأن إسلام أهلها: "إن أهلها كانوا عبدة للأوثان، وكانت تداهمهم مصيبة كل شهر على هيئة عفريت (جان) يخرج من البحر؛ فكانوا يواجهون هذا بوضع فتاة بكر بعد أن يزينوها في المعبد، الذي كان على شاطئ البحر. وعندما مر، مصادفة، رجل من المغرب يدعى الشيخ أبا البركات البربري المغربي، انزاح هذا الهم بفضل دعائه وكراماته؛ فاعتنق الملك (شنوازه) ورعاياه الإسلام على يديه؛ لما رأوه من كرامات.

ويذكر ابن بطوطة أنه رأى على محراب المسجد، الذي شيده ذلك الملك، حديث العهد بالإسلام، رأى لوحةً مكتوبًا عليها: (اعتنق السلطان أحمد شنوازه الإسلام على يد أبي البركات المغربي). والخلاصة أنه منذ ذلك الوقت وأهالي هذه الجزيرة جميعًا من المسلمين، ومنهم عدد كبير من الأجناس العربية المختلطة".

المقر الثالث مليبار

ثبت من الروايات، أن المركز الثالث للإسلام والعرب كان في أواخر سواحل الهند، الذي كان الهنادكة يطلقون عليه في الزمن الغابر (كيرالا)، ثم أطلقوا عليه مليبار (وهو مكون من ملي بهار) أي: ملك الجبل.

وقد ذكر الجغرافيون العرب أن حدوده تمتد من نهاية (الكجرات) وحتى (كولم)، التي تقع في تراونكور. ونقول رواية تحفة المجاهدين، التي نقلها (فرشته) ما يلي:

"كان التجار اليهود والمسيحيون، يترددون على هذه المنطقة قبل الإسلام وبعده، وما لبثوا أن استقروا بها، وحين مضى على الإسلام مائتا عام، كان ثم جماعة من متصوفة العرب والعجم في طريقها إلى (سرنديب) التي يسمونها (لنكا)؛

لزيارة آثار قدم سيدنا آدم - عليه السلام؛ فتصادف أن ضلت سفينتهم الطريق إثر عاصفة هوائية، أدت بهم إلى ساحل كدنكلور (كدنكانور) بمدينة مليبار؛ فاستقبلهم مليكها زيمور (سامرى)^(١) بحفاوة بالغة.

وقد ورد ذكر الإسلام في ثنايا الحديث. فقال الملك: لقد سمعت من اليهود والمسيحيين عن أمر دينكم ورسولكم، وأود لو تحدثتم عن ذلك بأنفسكم. فشرح له المتصوفة حقيقة الإسلام بطريقة مؤثرة خلبت لب الملك. فأخذ منهم موثقاً، أن يَمروا من عنده، في طريق عودتهم. وقد أوفوا بالعهد.

فقام الملك بدعوة كل الأمراء، وقال: "إننى الآن أريد أن أكون مع الله"، ثم قسم الإمارة بين قواده قسمة متساوية. وتخفى مع المتصوفة إلى بلاد العرب، واعتنق الإسلام، وأخذ يشرح للمتصوفة نشر الإسلام في مليبار، قائلاً: "عليكم أن تشرعوا في التجارة مع المليباريين". وسلمهم رسالة إلى أمرائه، فحواها أن يحسنوا معاملة التجار الأجانب، وأن يقدموا لهم كل عون في أمور الخير، وأن يسمحوا لهم ببناء دور للعبادة، وأن يسلكوا معهم سلوكاً حسناً، يولد الرغبة في الإقامة واتخاذ البلد وطناً لهم.

ومنذ ذلك الحين، أخذ التجار العرب يتوافدون عليها، ويعيشون بها. وهناك رواية أخرى (يراهها فرشته أصبح من الأولى، رغم أننى أراها عكس ذلك)؛ وهى أن إسلام (زيمور) قد تم في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم. على أية حال، فقد عاد هذا الدرويش إلى (مليبار)، وبنى مسجدًا في (كدنكلور)، فأقام بعض الناس هناك، وذهب البعض الآخر إلى مدينة (كولم) بمدينة (تراونكلور)، وبنوا بها مسجدًا، ثم أخذوا يتوسعون في بناء المساجد، وإقامة التجمعات الجديدة في مناطق (هيلى ماراوى)، و(جريت)، و(دريت)، و(فندرنيا)، و(بندارانى)، و(جاليات)، و(فاكلور)، و(منكلور).

(١) زيمور سامرى يهودى مثلاً؟

كان هذا خلاصة ما قاله (فرشته). بيد أن هناك اقتباسًا أو أكثر من النسخة الأصلية (لتحفة المجاهدين)، على جانب كبير من الأهمية؛ إذ يظهر فيها أسلوب الحياة بعد تلك الفترة.

"كان التجار من كل أنحاء العالم يتوافدون بكثرة إلى موانئ ساحل الهند الغربي؛ مما نتج عنه تعمير مدن جديدة. وبسبب تجارة المسلمين، ازداد فيها عدد السكان، وتم بناء العديد من المنازل. وكان الملوك والزعماء يتجنبون التشدد مع المسلمين على الرغم من أنهم يعبدون الأوثان، هم وجنودهم. ولكنهم كانوا يوقرون دين المسلمين، ويحترمون شعائهم. والدهشة التي يثيرها هذا الانسجام بين المسلمين وعبداء الأصنام، هي أن تعداد المسلمين لم يكن يتعدى عشر تعداد السكان.... وبصفة عامة، فإن معاملة جميع ملوك (مليبار) الهنادكة، كانت تتسم باحترام المسلمين وتقديرهم؛ إذ إن تعمير المدن الكثيرة في بلادهم كان ثمرة إقامة التجار المسلمين بها" (١).

وفي (مليبار) انضم إلى المسلمين العرب، من التجار والمهاجرين الذين اشتهروا في الهند بأسماء (موبلا) و(نانت)، وكانوا يسيطرون على التجارة البحرية قبل البرتغاليين، انضم إليهم السكان المحليون، الذين اعتنقوا الإسلام، أو تأخوا معهم بالمصاهرة.

كولم

تدخل مدينة (كولم) في نطاق مدينة (تراونكور) الحالية. وكان البحارة العرب يطلقون عليها " آخر بلاد الفلفل، وهي على خور من البحر، وفيها حارة للمسلمين، وبها جامع" (٢).

(١) تحفة المجاهدين - نقلًا عن " دعوة الإسلام " للدكتور ارنلد - ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) تقويم البلدان - ص ٣٦١.

المقر الرابع معبر أو كارومندل

يطلق العرب على السواحل الأخرى المواجهة لمليبار في (مدراس) لفظ (معبر)، وتعرف الآن باسم (كارومندل)، وكان اسم (معبر) يحظى بشهرة كبيرة بين الرحالة والتجار العرب بصفة خاصة. وقد ذكرها ابن سعيد المغربي، أواخر القرن السادس، وقال: "إنها على مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة، شرقي كولم، ولكنها تميل ناحية الجنوب" (١).

وقد كتب زكريا القزويني، عام ٦٨٦هـ، أي في القرن السابع، كتب اسمها (مندل)، وأثنى على ما فيها من خشب العود "وهي مخزن العود" (٢). وبالقرب منها، تقع راس كمهري (راس كماری)، التي ينسب إليها العود الكامراني (قامروني) (٣).

ثم كتب أبو الفداء، عام ٧٣٢هـ - ١٣١٣م عن (راس كماری)، وذكرها باسم (راس كمهري) (٤). وكتب عن حدود (معبر) يقول: "وأول بلاد المعبر من جهة المنيبار راس كمهري.... ومن معبر "منيفتن" (أي مسيرة ثلاثة أيام تقريباً من كولم).... وهي على الساحل، وقصبة المعبر "بيرداول"، وهي مدينة سلطان المعبر، وإليه يجلب الخيول من البلاد" (٥).

ويبدو أن هذه المنطقة من الساحل، قد استخدمها العرب بعد عدة قرون. حيث أن اسمها يتردد أواخر القرن السادس. ونلاحظ فيها نفوذاً عربياً لا بأس به إبان القرن السابع.

(١) تقويم البلدان - ص ٣٦١.

(٢) القزويني - آثار البلاد - ص ٨٢.

(٣) تقويم البلدان - ص ٣٥٥.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تقويم البلدان.

وكتب كل من وصاف (ت عام ٧٢٨هـ)، ورشيد، مؤلف (جامع التواريخ) (ت عام ٧١٨هـ) كتابين في نهاية القرن الثامن، إبان عصر جلال الدين فيروز شاه الخلجي بالهند، فجاءت أقوالهما متقاربة الألفاظ؛ حيث يقولان:

"يمتد طول (معبر) من (كولم) وحتى سيلوار (نيلور)، على سواحل البحر مسافة ثلاثة فراسخ، وتضم الكثير من المدن والقرى، ويطلق أهلها على ملكهم، لقب (ديوار) أي: الثري.

وتجلبب لهم السفينة الصينية الضخمة (جنك) حاجياتهم من الأقمشة والبضائع الثمينة، وذلك من بلاد الصين والسند والهند. وتحمل من (معبر) الأقمشة الحريرية، والأخشاب العطرية، فضلاً عن اللآلي، التي يستخرجها أهلها من البحر. فتصل منتجاتها إلى العراق وخراسان والشام والروم وأوروبا. ولا غرو، فهذه البلاد غنية بالياقوت، والأعشاب العطرية، كما تكتظ معابدها باللآلي. إنها بحق مفتاح الهند.

منذ عدة سنوات، كان ملكها هو (سندر باند)، الذي تمتد سطوته مع إخوته الثلاثة، إلى عدة جهات مختلفة. وكان ملك تقى الدين بن عبد الرحمن بن محمد الطيبي، أخو الشيخ جمال الدين، هو وزيره ومستشاره الخاص، وقد عهد إليه بولاية (بتن)، و(ملى بتن) (بتم وملى بتم)، و(باول). وبما أن خيول (معبر) لم تكن على قدر كبير من الأصالة؛ لهذا أبرمت معاهدة بينهما، أن يجلب جمال الدين إبراهيم إلى الملك ألفاً وأربعمائة فرس عربي قوي؛ من ميناء كيش (قيس)^(١)، وكان يستورد كل عام عشرة آلاف فرس من الموانئ الأخرى على الخليج العربي، مثل: القطيف، والإحساء، والبحرين، وهرمز، وغيرها، وقد كان ثمن الفرس الواحد يقدر بخوالي ٢٢٠ ديناراً ذهبياً.

(١) قد سبق الحديث عن أحوال هذه الجزيرة، ضمن العلاقات التجارية بين العرب و الهند.

توفي الملك (ديوار) عام ٦٢٩هـ/١٢٩٣م، وتفرقت ثروته بين وزرائه ومستشاريه ونوابه؛ حتى إن الشيخ جمال الدين، الذي تولى الخلافة من بعده، يزعم أنه نال سبعة آلاف ثور محملة ذهبًا وجواهر، وأن تقى الدين، طبقًا للاتفاقية المبرمة من قبل، عين نائبًا له^(١).

وقريب من ذلك، زار (ماركو بولو) هذه الجزيرة، فوجد السلطة آنئذ يتقاسمها خمسة ملوك هنادكة، وقد استرعى انتباهه ما كان يتمتع به المسلمون من نفوذ تجاري، فوصف الصورة التي كان يتم بها استيراد الخيول من البلاد العربية، هكذا: "لم تكن الخيول متوفرة في هذه المدينة، وكان التجار يجلبونها كل عام من ميناء (عدن) و(هرمز)؛ فيبتاع الملوك الخمسة كل عام ألفين من الخيول. وكانت قيمة الفرس الواحد خمسمائة دينار". كما ذكر ثروات هذه البلاد الثمينة، وأنها ثروات لا حصر لها.

معركة بين المسلمين من أجل ملك هندوكي

لقد أخضع السلطان علاء الدين الخلجي المنطقة من (الكجرات) وحتى (كارومندل) تحت سلطانه، ووقعت أثناء ذلك أول حادثة من نوعها في تاريخ الهند؛ إذ ناهض مسلمو العراق غزاة المسلمين الأتراك، مناصرة لملك (كارومندل)، التي كانت عاصمتها (بيردهول). ولقد تناول (أمير خسرو) هذه الواقعة بالتفصيل في (خزائن الفتوح)، هذا الكتاب التاريخي، الذي يتناول فتوحات علاء الدين الخلجي بإسهاب لا معنى له^(٢).

لقد ناصر المسلمون العرب ملك (بيردهول)، باعتبارها أمانًا لهم، والتزامًا بميثاقهم؛ ومن ثم أخذوا يقاتلون مسلمي الأتراك بكل قوة. بيد أن مواجهة الأتراك

(١) ترجمة "جامع التواريخ"، اليت - المجلد الأول - ص٦٩ - ٧٠، وقد ذكر هذا (وصاف) بمزيد من التحقيق والدراسة. انظر: وصاف - المجلد الثاني - ص٣٢ - ٥٣.

(٢) أمير خسرو (خزائن الفتوح)، طبعة الجامعة الإسلامية على جره - ١٩٢٧م - ص١٥٧ - ١٦٢.

البواسل لم تكن أمرًا هينًا، حيث انهزم الملك؛ واستولى (كافور) قائد السلطان علاء الدين على البلاد. وأراد أن ينكل بكل من حاربه من المسلمين، لكن سرعان ما تذكر كلمة التوحيد، مؤكدًا بذلك حسن إيمانه^(١). وهذا من حوادث عام ٧١٠هـ/١٣١٠م.

أحد أخطاء السيد البيت

لخص (البيت) الجزء الثاني من كتاب (خزائن الفتوح)، بعنوان (التاريخ العلائي)، وقد ترجم فيه ما يتعلق بهذه الواقعة، ولخص عبارة أمير خسرو كالآتي: "هؤلاء المسلمون كانوا من الهندوكية، والإسلام بين بين؛ أى لم يكن إيمانهم قويًا"^(٢).

ولكن هذا غير صحيح على الإطلاق؛ فالحق أن أمير خسرو قد وبخ هؤلاء المسلمين على مساندة الملك الهندوكي، ومؤازرته، بألفاظ تملؤها العبارات الإنشائية، والمبالغات الشعرية، ولم يكن هناك أى هدف من ذكرها، إلا أنهم أنصاف هنادكة^(٣).

المقر الخامس الكجرات

كان المركز التجارى الخامس للعرب (الكجرات)، و(كاتهيوار)، وبعضًا من منطقة (كوكن) التى كانت تخضع لحكومة الملك (ولبهـ راي) أو (بلهرا)، الذى نال الحظوة عند العرب، وكانت عاصمته (ولبهى بور)، وهى مدينة كبيرة بالقرب من مدينة (بهاونگر) الحالية. وكان العرب يسمونها دائمًا (مانگر) أو (مها نگر).

وقد ثبت من الأبحاث والاكتشافات الأثرية أن محيط هذه المدينة يمتد خمسة أميال، وكان بعض ملوكها يعتنق البوذية، والبعض الآخر يعتنق الجينية. وربما

(١) الجزء الثالث - ص ٩٧.

(٢) انظر: خزائن الفتوح - ص ١٦١ - ١٦٢.

(٣) خزائن الفتوح - ص ١٦١ - ١٦٢.

كانت نزاعاتهم السبب فى انهيار دولتهم. وكان ميناء (جيمور)، الذى أطلق عليه العرب (صيمور)، تابعًا لسلطانهم، وكان على درجة عالية من التطور، يليه فى هذا ميناء (كهيمات)، وغيره.

لقد مدح سليمان - الذى كان أول رحالة وتاجر عربى يقوم برحلة، عام ٢٣٥هـ - الملك (ولبه - راعى)، فكتب يقول:

"ويزعم أهل مملكة بلهرا أنه إنما تطول مدة ملكهم وأعمارهم فى الملك؛ لمحبتهم للعرب" سليمان ص ٤١ (١).

يتضح مما نقلناه مدى ما كان يسود العلاقات بين التجار العرب والمستوطنين، وبين أهل البلاد الأصليين من حب ومودة. لهذا كثرت المناطق العربية المتعددة فى مدن هذه السلطنة، وظلت حتى نهايتها.

كما يتضح لنا موقف ملك "طاقن أو داكهن" نسبة إلى (الدكن) من المسلمين: "وهو يحب العرب كما يحب بلهرا" ص ٤٢ م (٢).

ثم يحدثنا عن ملوك (الكجرات) أو الكوجر (جزر) بقوله: "وهم عدو العرب" (٣) (ص ٤٢).

وفى أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري، عندما كان بزرك بن شهریار ناخدا يأتى بسفينة إلى هناك، كان العديد من السكان المسلمين والعرب فى هذه النواحي. والتقى بأحد البحارة الهنود، حديث العهد بالإسلام، وقد جنى ثروة طائلة من وراء سفنه، وأدى فريضة الحج أيضًا (٤).

(١) الرحلة - ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) المصدر السابق - ص ٢٩.

(٣) المصدر السابق - ص ٢٨.

(٤) عجائب الهند - ص ١٦.

والتقى أيضاً بالتاجر محمد بن سیراف، الذى كان مقيماً بتهانه (بالقرب من بومباي) منذ أكثر من عشرين عاماً. وقد سافر إلى أكثر المدن، وكان عارفاً بأحوال هذه المدن جميعاً^(١). كما التقى فى جيمور (صيمور، التى تقع فى الكجرات)، وفسا (التي تقع فى فارس) بأحد المسلمين، ويدعى أبا بكر /الفسوي^(٢). (ص ١٩١). هذا وقد كان أحد أصحاب ملك (جوا) - التى سماها العرب القدامى سندابور - رجلاً مسلماً يدعى موسى^(٣).

هنرمند (القاضى الشرعى)

هذا لفظ فارسى يعنى: أصحاب الفنون، إلا أن العرب استعملوه بمعنى جديد خاص بهم، ونطقوه (هنرمن) بحذف دال آخره، وجعلوا مصدره (هنرمند)، ومعناه الاصطلاحى هو (القاضى الشرعى) أو (مجلس الشورى)، الذى يعين من قبل الحكومات غير الإسلامية للبت فى قضايا المسلمين. وعندما كانت الحكومات العربية الإسلامية فى قمة عروجها وازدهارها، كان لها امتيازات خاصة، كالتى يحصل عليها الأوروبيون اليوم فى دول أفريقيا وآسيا، فلا تعرض لهم قضايا فى غير محاكم أوربا، فكان للعرب والمسلمين نفس الحقوق، فيما يتعلق بعلاقاتهم، وذهابهم وإيابهم، فى الدول غير الإسلامية، وقد مارس المسلمون هذه الحقوق فى تركستان، والروم، والصين، والهند^(٤).

على أية حال، فقد أطلق لقب (هنرمند) أى: القاضى أو مجلس الشورى، على من يتولى هذه المهمة من قبل الحكومة غير الإسلامية.

(١) عجائب الهند - ص ١٥٢.

(٢) عجائب الهند - ص ١٥٧.

(٣) عجائب الهند - ص ١٥٧.

(٤) ابن حوقل - ص ٢٣٣.

وفى أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري، ازداد عدد السكان العرب فى صيمور (جيمور)، فقام ملكها بتعيين (هنرمند) اسمه العباس بن ماهان^(١) (ص ١٨١).

دولة ولبهـ راه

فى بداية القرن الرابع الهجرى، وافى المسعودى الهند، وكان فى (كهمايت) عام ٣٠٣هـ. وجاب العديد من مدن (الكجرات). وفيما يلى شهادته عن ملوك ولبهـ راه (بلهرا)، التى رواها سليمان التاجر قبله بسبعين عامًا.

يقول: "وليس فى ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه إلا البلهرا، فالإسلام فى ملكه عزيز مصون، ولهم مساجد مبنية، وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين سنة، فصاعدًا، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم؛ لسنة العدل وإكرام المسلمين، وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله، كفعل المسلمين بجنودهم.... ثم يلى ملك الطافن (ملك الكجرات) موارد لمن حوله من الملوك، وهو مكرم للمسلمين" (ج ١ ص ١٢٠) ^(٢).

فى صيمور عشرة آلاف من السكان

تزايد عدد السكان العرب والمسلمين المولودين فى صيمور (إحدى مدن دولة ولبهـ راه) يومًا بعد يوم؛ حتى بلغ تعدادهم عشرة آلاف نسمة فى هذه المدينة وحدها، إبان زيارة المسعودى لها، عام ٣٠٤هـ.

(١) عجائب الهند - ص ١٤٤.

(٢) المسعودى - مروج الذهب - الجزء الأول - ص ٣٨٢ - ٣٨٤.

بيسر

بيسر، والجمع بياسرة، ماذا يعنى هذا اللفظ؟ علمه عند ربي. بيد أن المسعودى ذكر أنه يعنى: المسلمون الذين ولدوا فى الهند. وهاكم إحدى فقرات المسعودى المهمة:

"وقد حضرت ببلاد (صيمور) من بلاد الهند، من أرض اللار، من مملكة البلهرا، وذلك فى سنة أربع وثلاثمائة، والملك يومئذ على (صيمور) المعروف بحاج، وبها يومئذ من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين "بياسرة"، وسيرافيين وعمانيين، وبصريين، وبغداديين، وغيرهم من سائر الأمصار، ممن قد تأهل وقطن فى تلك البلاد، ومنهم خلق من وجوه التجار، مثل: موسى بن إسحاق الصندالونى (صندابوري)، وعلى الهرمة يومئذ أبو سعيد معروف بن زكريا، وتفسير الهرمة؛ يراد بها رئاسة المسلمين، يتولاها رجل عظيم من رؤسائهم، تكون أحكامه مصروفة إليهم، ومعنى قولنا البياسرة؛ يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند، يُدعون بهذا الاسم، وأحدهم (بيسر) وجمعهم (بياسرة)، فرأيت بعض فتيانهم، وقد طاف على ما وصفنا فى أسواقهم" (ج ١ ص ٢١٠ / ١).

فى تهانه

فى نهاية القرن السادس الهجري، وفى عام ٥٨٥هـ، استقر ابن سعيد المغربى - المعاصر للسلطان شهاب الدين - فى المغرب ومصر، وعكف على تأليف كتاب فى الجغرافيا الفلكية، على غرار كتاب (قانون المسعودى) للبيرونى، وجاء فيه ذكر بعض مدن الهند الجنوبية، فكتب عن تهانه يقول: "هى آخر مدن الكجرات (لار)، مشهورة على ألسنة التجار". "وأهل هذا الساحل الهندى جميعهم كفار، يعبدون الأنداد، ويسكنون معهم المسلمين" ص ٣٩٥ (٢).

(١) المسعودى - مروج الذهب - الجزء الثانى - ص ٨٥ - ٨٦ - لندن.

(٢) نقلاً عن تقويم البلدان - أبو الفدا - ص ٣٥٩.

فى كهيمايٲ

فيمآ يٲٲلق بكهيمايٲ يقول: "وأهل هذا الساحل الهنڊى جميعهم كفار؁ يعبدون الأنداد؁ ويسكنون معهم المسلمين" (١).

وفى عصر السلطان شمس الدين آآتمش؁ وفى عام ٦٢٥هـ؁ انتقل عوفى؁ مؤلف (جامع الحكايات) غالبآ؁ من السند إلى كهيمايٲ؛ فكتب يقول: "هناك (فى كهيمايٲ) عدد من المسلمين المتدينين؁ صحاح العقيدة. وكان لهم فيها مسجد جامع؁ وإمام وخطيب؁ وكان ملك (الكجرات) الذى كان يقيم فى (نهر واله)؁ يعاملهم بالعدل والإنصاف" (٢).

من كهيمايٲ إلى صيمور فى القرن الرابع الهجرى

ابن حوقل البغدادى؁ الذى سافر من (الكجرات) إلى (السند) فى القرن الرابع الهجرى؁ ذكر ما يلى:

"ومن كنباية إلى صيمور هو بلد بلهرا..... والغالب على هذه الناحية الكفر؁ ومنها مسلمون؁ ولا يلى عليهم من قبل بلهرا الذى فى زماننا هذا؁ إلا مسلم يستخلفه عليهم.... وببلاد بلهرا المساجد تجمع فيها الجمعات؁ ويقام بسائرها الصلوات بالأذان فى المنار؁ والإعلان بالتكبير والتهليل؁ وهى مملكة عريضة" (٣) (ص٣٢٠).

من كهيمايٲ إلى كارومندل فى القرن الثامن الهجرى

إن كل الفتوحات التى تمت على يد ملك كافور من (الكجرات) إلى (كارومندل)؁ فى القرن الثامن الهجرى؁ كانت أشبه بسحابة صيف. وإن استحال

(١) المصدر السابق - ص٢٥٧.

(٢) جامع الحكايات - مخطوطة لعوفى موجودة بدار المصنفين؁ مدينة أعظم جره .

(٣) ابن حوقل - ص٢٣٣ (لندن).

اقتلاع ما ثبت من روايات الفتوحات ونهايتها. وعلى الرغم من أنهما نالا استقلالهما، فجميع المناطق الفاصلة بين (الكجرات) و(كارومندل)، التي تمتد مئات الأميال، ظلت خاضعة لملكات الهنادكة وملوكهم.

وظل الإسلام قائماً في (الكجرات). أما كارومندل (معر)، التي حكمها حسن كيتهلوى وخلفاؤه حتى منتصف القرن الثامن، أى ما يقرب من أربعين عاماً، فقد استولى عليها ملوك (بيجانگر) بعد ذلك.

إن ابن بطوطة، الرحالة المغربي الشهير، قد قدم إلى الهند آنئذ. في طريقه إلى الصين، حاملاً رسالة من قبل محمد تغلق، وافى من دهلى كهمبايت ثم كارومندل؛ حيث كانت تقلع السفن إلى الصين. فتحدث عن مسلمي المناطق التي مر بها في طريقه، وعن حكامها. ومنه يتضح، كيف كانت إقامة المسلمين وأحوالهم، داخل الدويلات الهندوكية الخالصة.

كهمبايت

عبر ابن بطوطة (دولت آباد) و(ساگر) حتى وصل إلى (كهمبايت)، التي كانت كبرى موانئ (الكجرات). وكان هذا الميناء تابعاً لسلطنة (دهلى) اسمياً فقط، أما النفوذ والتجارة والأعمال والإدارة الفعلية في يد ربانة العرب وتجارهم، الذين استوطنوها منذ البداية. ومن ثم كانت مليئة بالعرب، خاصة العراقيين منهم، هذا إلى جانب الأعاجم من المسلمين، وفيها مساجدهم ومزاراتهم. يقول ابن بطوطة: "وهذه المدينة من أحسن المدن في اتقان البناء، وعمارة المساجد، وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء؛ فهم أبداً يبنون بها الديار الحسنة، والمساجد العجيبة، ويتنافسون في ذلك.

ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري... وإلى جانبها مسجده، وبها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز... وكان بهذه المدينة من الصالحين ناصر، من أهل ديار بكر... وكان بها أيضاً من الصالحين التاجر خواجه إسحاق، وله زاوية

يطعم فيها الوارد والصادر، وينفق على الفقراء والمساكين^(١) الرحلة (ص ٥٥٠-٥٥٢).

گاوی وقندهار

كانت (گاوی) و(قندهار) فضلاً عن (بهرج) موانئ، وتبعاً (لآئين اكبرى): إن ابن بطوطة انتقل من (كهلبايت) إلى (گاوی)، ومنها إلى (قندهار). ويذكر أن هاتين المدينتين الساحليتين كانتا تحت سيطرة الملك (جالنسى)، الذى كان من ولاية الخليفة الإسلامى. وفيها يقيم المسلمون، ويعمل عدد كبير منهم حاشية للملك وقادة. ومنهم خواجه (بهره)، والناخدا إبراهيم، الذى فى حوزته ست سفن. وقد ركب ابن بطوطة سفينة لناخدا إبراهيم وأخيه فى (قندهار)، وكان اسم هذه السفن (جاگیر) و(مئورت)، وكان على متنها خمسون من رماة السهام، وخمسون جندياً حبشياً.

بيرم

جزيرة صغيرة، تبعد أربعة أميال عن الساحل الهندى، وهى (ليست بيرم المجاورة لعدن). فى البداية كان يحكمها الهنادكة، ثم استولى عليها المسلمون، ولقد بناها شهبندر التجار الكازرونى فى عهد ابن بطوطة، وعمرها المسلمون.

گوگه

أو گهوگه (بالقرب من بهاونگر الحالية)، كانت تحت حكم الملك (دنكول)، وهى مدينة واسعة، بها أسواق كبيرة، وقد رأى ابن بطوطة بها مسجداً منسوباً إلى سيدنا الخضر (والذى يعتبره العامة نصير الغرقى فى البحر)؛ ناهيك عن دراويش الشيعة.

جندابور

(١) رحلة ابن بطوطة - الجزء الثانى - مصر - ١٢٨ - ١٦٩.

ومن (گوه) وصل رحالتنا ابن بطوطة إلى (جندابور)، التي أطلق عليها (صندابور)، وبسبب هذا التشابه، كنت أعتقد في وقت من الأوقات أنها (سنگابور) - والحق أنها كانت تقع بالقرب من (گوا) الحالية - وقد وجد فيها رحالتنا دولة السلطان المسلم جمال الدين الهنوري - وكان والد هذا السلطان بحارًا يدعى حسن- والسلطان جمال الدين من ولاية الملك هريب (والأصح هريير، وهو ملك مملكة بيجانگر). وكان فيها حارة للمسلمين، وأخرى للهنداكة، وكان فيها مسجد رائع، يضارع مساجد بغداد، في رأى ابن بطوطة.

وبالقرب من جندابور، توجد معمورة ساحلية صغيرة فيها كنيسة، وفي أحد معابدها، التقى ابن بطوطة برجل توهمه ناسكًا. وفي الحقيقة إن هو إلا أحد المتصوفة المسلمين، كان لا يتحدث إلا بالإشارات فقط.

هنور

يطلق عليها (هونور) أيضًا، والتي تقع في محيط (بمباي) شمال ولاية (كنرا)، وهي المركز الأصلي للسلطان جمال الدين. وقد التقى فيها ابن بطوطة بالشيخ محمد الناقوري، شيخ إحدى الزوايا، كما التقى بالفقيه إسماعيل، أحد معلمى القرآن، وبنور الدين على القاضي، وبإمام آخر.

والشيء العجيب الذى وجدته ابن بطوطة في هذه المدينة؛ انتشار التعليم بين الرجال والنساء على السواء، إذ كان بها ثلاثة عشر مكتبًا لتعليم البنات، وثلاثة وعشرون لتعليم الأولاد، ويرتدى النساء المسلمات (الساري)^(١) مثل النساء الهنداكة تمامًا. ويعتمد أهلها على التجارة. وقد حصل ابن بطوطة من هذا الصوفى المسلم على رسالة وهدية، وكان سكانها من أتباع الإمام الشافعي؛ أى أنهم عرب، أو من أصل عربى.

(١) الساري: هو الزي الوطنى للمرأة الهندية، وهو عبارة عن قطعة من القماش، مختلفة الألوان، تلتف حول جسم المرأة.

مليبار

أقلعت مركب ابن بطوطة من (هنور) لترسو على سواحل (مليبار). ويصفها بأنها منطقة ممتدة، حدودها من (جندابور) إلى (كولم) على مسيرة شهرين، وهي بلاد الفلفل الأسود. وفيها اثنا عشر ملكاً بين كبير وصغير، وجيش الملوك الكبار قوامه خمسون ألفاً من الجند، أما الصغار فما بين ثلاثة أو أربعة آلاف جندي.

وتنتهى حدود كل ملك حيث تبدأ حدود الملك الآخر. وعلى حدود كل منطقة باب خشبي، مكتوب عليه اسم ملكها، وعلى الرغم من أن هذه المناطق كانت تحت حكم الهنادكة؛ فإن المسلمين كانوا يحظون بالرعاية والاحترام. وطوال المسافة ما بين (جندابور) حتى (كولم)، يوجد بيت خشبي على مسافة نصف ميل؛ فيه متاجر ومقاعد لراحة المسافرين، سواء أكان هذا المسافر مسلماً أم هندوكياً. وبجوار كل بيت بئر ماء، عليها هندوكى يسقى الناس. وكان المسلمون يشربون بأكفهم، أما الهنادكة فكانوا يشربون فى أوان. ولا يسمح الهنادكة بدخول المسلمين ديارهم، ولا يقدمون لهم طعاماً فى أوانيهم، وإن حدث وأكل أحد المسلمين فى إناء من أوانيهم؛ فإما أن يحطموا هذا الإناء، أو يعطوه لمن أكل فيه من المسلمين.

وفى الأماكن التى ليس بها مسلمون، كان الهنادكة يطهون الطعام للمسلمين، ويقدمونه على أوراق شجر الموز، وما تبقى من طعام يقدمونه طعاماً للحدآن والكلاب.

فى كل محطة من هذه المحطات، التى على طول هذا الطريق، ثم مسلمون يقيم عندهم المسافرين؛ فيشترون لهم كل شيء، ويطهون لهم الطعام. ولولا أن المسلمين فى كل محطة، لتعرض المسافرون من المسلمين لصعوبات شديدة؛ إذ لو رأى هندوكى مسلماً ماشياً فى الطريق لحاد عن هذا الطريق مباشرة.

أبو سرور

يقال إن أول من دخل مدينة (مليبار)، شخص يدعى (أبا سرور). وقد كتب أبو الفدا في كتابه (الجغرافيا) أن اسم هذه المدينة (باسرور). ويقول ابن بطوطة: "وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة "أبي سرور"، وهي صغيرة على خور كبير، كثيرة أشجار النارجيل، وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة، المعروف بأبي ستة؛ أحد الكرماء، الذي أنفق أمواله حتى نفذت" (ص ٥٦٠).

فاكنور (باكنور)

وصل ابن بطوطة من (أبي سرور) إلى (باكنور) وهي الآن جنوب كبرى بمدراس، وتعرف باسم بركور، وكانت تخضع لسيادة مملكة بيجانغر، ويصفها قائلاً: "وسلطان فاكفور كافر، واسمه باسدو (باس ديو)، وله نحو ثلاثين مركباً حربية، قائدها مسلم يسمى لولا، وكان من المفسدين، يقطع بالبحر ويسلب التجار، ولما أرسينا على فاكفور، بعث إلينا سلطانها ولده، فأقام بالمركب كالرهينة، ونزلنا إليه، فأضافنا ثلاثاً بأحسن ضيافة، تعظيماً لسلطان الهند، وقياماً بحقه، ورغبة فيما يستفيد في التجارة مع أهل مراكبنا... وبها جماعة من المسلمين، يسمى كبيرهم بحسين السلاط، وبها قاض وخطيب، وعمر بها حسين المذكور مسجداً؛ لإقامة الجمعة" (ص ٥٦٠).

ومن هنا يصل ابن بطوطة إلى منجور (منگلور)، ويصفها بأنها أكبر ميناء بحري في (مليبار)، ينزل بها أغلب تجار فارس واليمن، وملكها يدعى (رام ديو). وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين، يسكنون ريشاً بناحية المدينة، وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة، فيصلح السلطان بينهم؛ لحاجته إلى التجار، وبها قاض من الفضلاء الكرماء، شافعي المذهب، يسمى بدر الدين المعبري (كارومندل)... ورغب منا في النزول إلى بلده، فقلنا: حتى يبعث السلطان ولده،

يقيم في المركب.... كما فعل الآخر، ونزلنا إليهم، وأكرمونا إكرامًا عظيمًا، وأقمنا عندهم ثلاثة أيام" (ص ٥٦١).

هيلى

لم تعد هيلى ميناء، بل حافة جبلية داخل البحر، تبعد ستة عشر ميلاً شمال (كنانور)، ويطلقون عليها جبل هيلى (إيلى). ويصفها ابن بطوطة: "وهى كبيرة، حسنة العمارة، على خور عظيم تدخله المراكب الكبار، وإلى هذه المدينة تنتهى مراكب الصين.... ومدينة (هيلى) معظمة عند المسلمين والكفار؛ بسبب مسجدتها الجامع، فإنه عظيم البركة، مشرق النور، وركاب البحر يندرون له النذور الكثيرة، وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين، وحسن الوزان كبير المسلمين، وبهذا المسجد جماعة من الطلبة، يتعلمون العلم، ولهم مرتبات من مال المسجد، وله مطبخة يوضع فيها الطعام للوارد والصادر، ولإطعام الفقراء من المسلمين بها، ولقيت بهذا المسجد فقيهاً صالحاً من أهل (مقديشيو) يسمى سعيداً، حسن اللقاء والخلق.... وسافر فى بلاد الهند والصين (ص ٥٦١).

جرفتن (جربتن)

قد تكون هذه البقعة فى منطقة (مليبار)، التى يطلقون عليها الآن اسم "سرى كندا بورم"؛ فيها مسجد من المساجد العديدة، التى شيدت فى مختلف مدن (مليبار)؛ عقب إسلام ملكها فى القرن الأول الهجري، ويصفها ابن بطوطة بأن: "ملكها يسمى "كويل"، وهو من أكبر سلاطين المليبار، وله مراكب كبيرة تسافر إلى عمان وفارس واليمن".

والتقى ابن بطوطة بعالم من علماء بغداد، كان أخوه من أكبر تجارها، وكان قد توفى، وخلف وراءه ثروة طائلة، "وعادة أهل الهند، كعادة السودان، لا يتعرضون لمال الميت.... إنما يبقى ماله فى يد كبير المسلمين". ويشير ابن

بطوطة إلى ذلك، فيقول: "وكان له أخ كثير المال، له أولاد صغار، أوصى إليهم بهم، وتركته آخذاً في حملهم إلى بغداد".

ده فتن (ده بتن)

كانت تحت سيادة الملك (كويل)، وهي مدينة كبيرة، على خور كثير البساتين، وبها النارجيل، والفل، والفول، والتنبول، وبها القلص الكثير، ويطبخون به اللحم.... وفيها البايين الأعظم، طوله خمسمائة خطوة، وعرضه ثلاثمائة خطوة، وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة، وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر، في كل قبة أربعة مجالس من الحجر.... وفي وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات، في كل طبقة أربعة مجالس.

وذكر لي أن والد هذا السلطان "كويل"، هو الذي عمر هذا البايين، وبازائه مسجد جامع للمسلمين، وله أدراج ينزل منها إليه، فيتوضأ منه الناس ويغتسلون، وحدثني الفقيه حسين: إن الذي عمر المسجد والبايين أيضاً؛ هو أحد أجداد "كويل"، وأنه كان مسلماً، وإسلامه خبر عجيب نذكره... " (ص ٥٦٢).

ويقال إن هذا الملك كان مسلماً، وقد سمع ابن بطوطة قصة إسلامه من المسلمين هناك؛ تقول: "رأيت أنا بإزاء الجامع شجرة خضراء ناعمة... وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب، صليت فيها ركعتين... وأخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة، تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة... ويكون فيها مكتوباً بقلم القدرة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله... وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها، قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها، وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر، وهم يستشفون بها للمرضى.

وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد "كويل"... فإنه كان يقرأ الخط العربي، فلما قرأها، وفهم ما فيها، أسلم وحسن إسلامه... وحدثني الفقيه حسين: إن أحد

أولاده كفر بعد أبيه، وطغى، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها، فاقتلعت... ثم أنها نبتت بعد ذلك، وعادت كأحسن ما كانت عليه" (ص ٥٦٢ - ٥٦٣).

بده- فتن (بده- بتن)

ومن (بتن) وصلت السفينة إلى (بده- بتن)، وفيها مسجد لأحد ملوك القرن الأول الهجري، حديث العهد بالإسلام. ويصفها ابن بطوطة بقوله: "وهي مدينة كبيرة، على خور كبير، وبخارجها مسجد بمقربة من البحر، يأوى إليه غرباء المسلمين؛ لأنه لا مسلم بهذه المدينة.... وأكثر أهلها براهمة، وهم معظمون عند الكفار، مبغضون في المسلمين؛ ولذلك ليس بينهم مسلم... وأخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهذوم؛ أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفاً لبيته، فاشتعلت النار في بيته، فاحترق هو وأولاده ومآذنه، فاحترموا هذا المسجد، ولم يتعرضوا له بسوء بعدها، وخدموه، وجعلوا بخارجه الماء، يشرب منه الصادر والوارد، وجعلوا على بابه شبكة؛ لئلا يدخله الطير" (ص ٥٦٣).

ومنذ ذلك الوقت، لا يجرؤ أى برهمي أن يمسه؛ بل إنهم يعنون به، ويحافظون عليه، ويوفرون مياه الشرب للمتردددين عليه، ويضعون على بابه سلكاً، حتى لا تدخله الطيور.

بندا رانى

بعد ذلك، اتجه ابن بطوطة إلى (بندا رانى)، التى سماها (فندرينا)، وتقع على بعد ستة عشر ميلاً شمالي (كالى كت)؛ ويصفها بأنها: "مدينة كبيرة، حسنة، ذات بساتين وأسواق، وبها للمسلمين ثلاث محلات، فى كل محلة مسجد، والجامع بها على الساحل، وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر، وقاضيتها وخطيبها رجل من أهل عمان... وبهذه البلدة تشقو مراكب الصين" (ص ٥٦٤).

كالى كت

يصل ابن بطوطة إلى ميناء (مليبار) الشهير (كالى كت)، فيقول: "وهو أحد البنادر العظام ببلاد المليبار، يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل، وأهل اليمن وفارس، ويجتمع بها تجار الآفاق، ومرساها من أعظم مراسى الدنيا، وسلطانها كافر يعرف بالسامري، شيخ مسن، يخلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيتهم بها.... وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين؛ فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار، ويأكلون فى سماطه، وقاضيتها فخر الدين عثمان فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النذور، التي ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ الكازروني، نفع الله به، وبهذه المدينة الناخوده "منقال"، الشهير الاسم؛ صاحب الأموال الطائلة، والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس.

ولما وصلنا إلى هذه المدينة، خرج إلينا إبراهيم شاه بندر، والقاضي، والشيخ شهاب الدين، وكبار التجار، ونائب السلطان الكافر المسمى بـ"قلاج"، ومعهم الأبطال والأنفار والأبواق والأعلام فى مراكبهم. ودخلنا المرسى فى بروز عظيم ما رأيت قبله بتلك البلاد " (ص ٥٦٤).

وقد استقبل ابن بطوطة بالطبول والأعلام من قبل نائب الملك، والشيخ شهاب الدين، وإبراهيم شاه بندر؛ باعتباره مبعوث السلطان محمد تغلق. ويصف ابن بطوطة ملكها بأنه أعدل أهل زمانه: "ومما اتفق نحو ذلك بقلقوط أن ابن أخى النائب عن سلطانها، غصب سيفاً لبعض تجار المسلمين، فشكا بذلك إلى عمه، فوعده بالنظر فى أمره، وقعد على باب داره، فإذا بابن أخيه متقلداً ذلك السيف، فدعاه وقال له: هذا سيف المسلم؟ قال: نعم! قال: اشتريته منه؟ قال: لا! فقال لأعوانه: أمسكوه، ثم أمر به، فضربت عنقه بذلك السيف".

هذا وكانت سفن الصين تبحر من (كالي كت). وقد اضطر ابن بطوطة للإقامة بها عدة شهور؛ ترقبًا لتحسن الأحوال الجوية. وكان قبطان السفينة التي سقله إلى (كولم) رجل شامى يدعى سليمان الصفدي، وتصادف أن وضعت أمتعة ابن بطوطة على هذه السفينة خطأ؛ فأبحرت السفينة وهو لا يزال على الشاطئ، فرحل ابن بطوطة إلى (كولم) برًا، ليلحق بهذه السفينة.

كولم

تدخل هذه المدينة ضمن حدود (تراونكور) الحالية، ويصفها ابن بطوطة: "وهى من أحسن بلاد المليبار، وأسواقها حسان، وتجارها يعرفون بالصولييين، لهم أموال عريضة، يشتري أحدهم المركب بما فيه، ويوسقه من داره بالسلع، وبها من التجار المسلمين جماعة، كبيرهم علاء الدين الأوجي، من أهل "آوه"، من بلاد العراق، وهو رافضي، ومعه أصحاب له على مذهبه، وهم يظهرون ذلك، وقاضيتها فاضل من أهل (قزوين)، وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر، وله أخ فاضل كريم، اسمه تقي الدين، والمسجد الجامع بها عجيب... وسلطانها كافر يعرف بالثيروورى (أى صانع الزبد)، وهو معظم للمسلمين، وله أحكام شديدة على السراق والدعار... وأقمت بـ"كولم" مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني؛ شيخ زاوية قالقوط" (ص ٥٧٠).

شاليات

اضطر ابن بطوطة إلى العودة إلى (كالي كت) من هذا الطريق مرة أخرى، لما أصاب السفن من دمار. وفي الطريق نزل بمدينة (شاليات)، التي كان العرب يطلقون عليها (شاليات)، وتسمى حاليًا (شاليا)، وهى بالقرب من (كالي كت).

وقد امتدح ابن بطوطة صناعة الملابس فيها: "مدينة من حسان المدن، تصنع بها الثياب المنسوبة لها"، ومنها وصل ابن بطوطة إلى (هنوز) حتى وصل إلى

سندايور(جندابور) (وهى مدينة جوا بالهند). ويبدو أن الملك (ربما يراد به ملك بيجانغر)، قد انتزع هذه السلطنة من السلطان جمال الدين هنورى بعد عراك شديد. ومن هنا ركب ابن بطوطة، واتجه إلى المالديف (ص ٥٧٢).

مالديب

بها عدد كبير من المسلمين العرب، وكانت تحكمها السلطنة خديجة، وقد سبق الحديث عنها بالتفصيل.

سيلون

ومن مالديب، جاء ابن بطوطة إلى (سيلون)، وفى ذلك الوقت كانت فى حوزة "أريرى شكروتى" (أريا شكرورتى)، الذى كانت له مراكب تقطع فى البحر، حتى تصل إلى اليمن. وكان الملك يفهم اللسان الفارسى. وبسبب آثار قدم سيدنا آدم - عليه السلام - كانت قوافل المتصوفة وال دراويش المسلمين، من العرب والعجم، تزد إلى هناك (ص ٥٩٣).

كالي

وبعد جولة، يصل رحالتنا إلى ميناء سيلون كالى (قالى)، التى تبحر منها اليوم السفن إلى أوروبا وأستراليا، وكان صاحب هذه السفن شخص يدعى الناخوده إبراهيم. وبعد أن ركب ابن بطوطة السفينة من "كلنبو" (كلمبور) و(بطاله)، عاد مرة أخرى على متن سفينة إبراهيم ناخوده إلى سواحل الهند، ومعب (كارومندل). (ص ٦٠٠).

معب (كارومندل)

حين وصل ابن بطوطة إلى (كارومندل)، كان حاكمها هو غياث الدين الدامغانى، وهذه هى الحكومة التى قامت بعد فتح ملك كافور، قائد علاء الدين

الخليجي، لها، وكان ذلك حوالي عام ٧٤١هـ / ١٣١٤م. وفي أواخر هذا القرن قضى ملك (بيجانگر) على الحكومة الإسلامية، حتى كانت مدينة (مدورا) عاصمة لها.

دوار سمندر

إن ولاية (ميسور) الآن، كانت نفسها مقراً لحكم أسرة (هوسيلالا) في ذلك الوقت؛ وكانت عاصمتها (دوار سمندر)، وكان الحاكم آنذاك هو الملك (بلال ديو). وقد ذكر ابن بطوطة: "أن قوام عسكره يزيد على مائة ألف، ومعه نحو عشرين ألفاً من المسلمين؛ أهل العارة، وذوى الجنايات، والعبيد الفارين" - على حد قول ابن بطوطة. ولكن من أين أتى هذا الكم الغفير من اللصوص، وقطاع الطرق؟ فلربما كتب ابن بطوطة هذا وهو حائق عليهم، خاصة أنهم كانوا مناوئين لغياث الدين، ملك (كارومندل) آنذاك، والذي كان عديل ابن بطوطة.

بيجانگر

كانت سلطنة (بيجانگر) الهندوكية عظيمة الشأن، تمتد حدودها من نهر (كرشنا) وحتى ساحل البحر. والعجيب أن هذه السلطنة كانت في صراع دائم مع الدولة البهمنية الإسلامية من ناحية البر، وكان لها في الوقت نفسه، علاقات بملوك العرب، والفرس المسلمين، على امتداد البحر، وقد أرسل إليها مرزا شاه رخ، ابن أمير تيمور، مبعوثين برئاسة مولانا كمال الدين عبد الرازق.

وحين رجع، كتب عما شاهده من عظمة وازدهار في دولة (بيجانگر)؛ فنقله خاوند شاه في (روضة الصفا)، ثم (حبيب السير)، في الجزء الخاص بالجغرافيا؛ تحت مسمى (منگلور)، و(كالي كت) و(بيجانگر).

هذا وقد كان جيش (بيجانگر) يضم عشرة آلاف جندي من المسلمين، وكان الملك يجل القرآن الكريم، ويقدر المسلمين بسبب قدراتهم العسكرية المتميزة، وقد بنى مسجدًا^(١).

أعزائي: لعلمكم سئمت من التجوال في هذه المناطق البعيدة؛ لكنكم أدركتم مدى انتشار المسلمين، وفي أى الأماكن والأحوال يعيشون؛ وكيف كانت علاقاتهم مع جيرانهم من الهنادكة والملوك؟ وكيف كانت العلاقات بين المسلمين والهنادكة تختلف عنها قبل الغزو الإسلامي في شمال الهند؟ والآن دعونا نستمتع قليلاً بصحراء (السند).

السند: والمقر السادس

سبق أن أشرنا كيف تم الفتح العربى من ديبل (تهته) إلى الملتان، في نهاية القرن الأول الهجرى، مع العلم أن المسلمين قد استوطنوا السند قبل ذلك الفتح؛ حيث فر أكثر من خمسمائة مسلم عربى من (مكران) إلى داهر، ملك السند^(٢).

وقد كان محمد بن القاسم هو أول من فتح السند والملتان، في نهاية القرن الأول الهجرى، ثم ظلت السند من بعده تابعة للخلافة فى (دمشق) أولاً، ثم (بغداد)، مدة مائة وخمسة وعشرين عاماً.

وفى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، استقل الولاة العرب هنا؛ نظراً لضعف الخلافة المركزية بعد المعتصم بالله، وما فتئ الملوك الهنادكة أن استولوا على بعض أجزاء من هنا وهناك. وفى أماكن أخرى، أقام المسلمون دويلاتهم، التى ظل بعضها قائماً فى السند، حتى هجوم السلطان محمود الغزنوى.

(١) فرشته - المجلد الأول - ص ٣٣٣ - نولكشور.

(٢) البلاذرى - فتح السند .

وكان منها دولتان كبيرتان نسبياً: واحدة على مشارف السند فى المنصورة، والثانية على نهاية السند فى الملتان.

وقد ذكر جميع الرحالة العرب الذين زاروا هذه المنطقة، حتى أواخر القرن الرابع الهجرى، ذكروا أحوال هاتين الدولتين الإسلاميتين.

لقد ظهر العديد من العلماء والمحدثين المسلمين، فى كل من الملتان، والمنصورة، وديبل، وغيرها من المدن الأخرى، قبل قدوم السلطان، منهم أبو معشر نجيب السندهى، الذى كان فى القرن الثانى الهجرى، وكان يعد إماماً للسيرة، وكان يحظى باحترام الجميع وتوقيرهم، حتى أن الخليفة (المهدي) قد صلى على جنازته حين وفاته. وكان شاعر العربية السندهى، الشهير بأبى العطاء السندهى، من المعاصرين له. وعلى الرغم من أن نطقه لم يكن صحيحاً؛ فقد أشاد أهل العربية أنفسهم بأشعاره العربية، وأقروها. ولو أردنا أن نحصى العلماء البارزين، لبدأنا فى حكاية طويلة أخرى؛ لهذا سأكتفى بهذا القدر.

وبعد أن فتح العرب السند، أخذوا يقيمون مدناً لهم. وتوافدت قبائل قريش، وكلب، وتميم، وأسد، واليمن، والحجاز على مدن السند المختلفة، وأقاموا بها. وقد ظلت دولتهم قائمة، على نحو ما، حتى منتصف القرن الثالث الهجرى، وكانت تمتد من الملتان وحتى البحر؛ بيد أن الحرب الأهلية بين اليمنيين، والحجازيين العرب؛ بددت هذه السيادة، وسلبت منهم العديد من المناطق. ورغم هذا كله ظلت دولتا الملتان والمنصورة (السند) قائمتين حتى قدوم السلطان محمود الغزنوي؛ ومن ثم يتعين علينا أن نستوضح أحوالهما بشيء من التفصيل.

الملتان

لقد مر بنا أن العرب استولوا على هذه المدينة فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى)، وظلت هذه السيادة قائمة حتى عهد السلطان محمود الغزنوي.

وقد ذكر ذلك جميع رحالة القرن الثالث والرابع الهجري، وظلت المدن الإسلامية قائمة هناك حتى غزو السلطان محمود الغزنوي، وما بعده.

كانت الملتان، وبعض المدن السندية الأخرى، خاضعة لحكم الأمويين في (دمشق) أولاً، ثم تبدلت الأحوال بعد ثلاثين أو خمسة وثلاثين عاماً، وبالتحديد في عام ١٣٢هـ؛ حيث اعتلى العباسيون عرش الخلافة، وانتقل مركز الخلافة من (دمشق) إلى (بغداد)، وظلت (الملتان) تابعة للدولة العباسية حتى أوائل القرن الثالث الهجري تقريباً؛ أي حتى خلافة المعتصم.

ثم أصبحت هذه المدينة البعيدة رهينة قوة الخليفة أو ضعفه، إذ كان عماله يعلنون الاستقلال بها؛ إذا ضعف سلطان الخلافة. وفي تلك الفترة كانت الملتان، والسند، والمنصورة تحت سيادة ولايتها، ثم استقلت الملتان عن السند فيما بعد، وكان هذا الاستقلال في منتصف القرن الثالث الهجري غالباً.

وليس المقصود بالملتان هنا المدينة وحدها؛ بل كل الإقليم الذي لم يكن ولاية، بل سلطنة كاملة. وقد كتب المهلب، وزير مصر في القرن الرابع الهجري: "أعمال الملتان واسعة، من المغرب إلى حد مكران، ومن الجنوب إلى حد المنصورة، ومن الملتان إلى غزنة مائة وستون فرسخاً" (١).

وفي عام ٣٠٠هـ، كانت (قنوج)، القريبة من نهر السند، ضمن حدود الملتان، التي كانت دولتها تضم مائة وعشرين ألف قرية في ذلك الوقت (٢) (ج ١ ص ١٦٧).

وكان النظام السائد في الدولة القديمة - ويجب أن يكون - أن الفرق الدينية غير الرسمية تلجأ إلى أطراف الدولة، والبلاد المجاورة. وقد ساد هذا النظام بين المجوس في إيران، والمسيحيين في الروم، والمسلمين في البلاد العربية.

(١) أبو الفدا - تقويم البلدان - ص ٣٥٠ - باريس.

(٢) المسعودي - المجلد الأول - ص ٣٧٢ - باريس.

وقد ذكرنا سابقاً أن (قزدار) كانت مقرّاً للخوارج من المسلمين، وأقاموا فيها دولتهم. وعليه، كانت الملتان ملجأ للفرقة الإسماعيلية، إحدى فرق الشيعة، ثم قامت دولتهم فيما بعد ذلك، وهم من العرب الخالص وكانوا ينتسبون إلى سامه بن لؤي.

من هم بنو سامه

إن لؤي بن غالب من أجداد قريش، وكان سامه ذلك من أولاد لؤي هذا، وقد أطلق على هذه الأسرة بنو سامه^(١)، تلك الأسرة التي بلغت قمة مجدها في عهد المعتضد (٢٧٩هـ - ٢٨٦هـ). وقصتها أنه كان عدد لا بأس به من الخوارج يقيم في إقليم عمان العربي، فأُسند إلى محمد بن القاسم مهمة ردعهم والقضاء عليهم؛ فتمت له الغلبة، وأقام دولته في عمان، وعمل على نشر المذهب السني، وهو أول أمراء هذه الأسرة. وقد ظل أولاده يتوارثون الحكم على هذه الولاية من بعده.

وفي عام ٣٥٠هـ، نشبت بينهم الحرب الأهلية، وهو الوقت الذي كان فيه القرامطة يحكمون قبضتهم على البحرين؛ فاستغلوا هذا الموقف، وتمكن أبو طاهر القرمطي، في عام ٣١٧هـ، من إحكام السيطرة على عمان، وضمها إلى دولة القرامطة^(٢).

وكان ثمة اتصالات بحرية وتجارية بين عمان والسند، كما كانت علاقة بني سامه بالسند (غالبًا) قديمة جدًا، وعليه فقد تولى أحد مماليك بني سامه، وكان يدعى فضل بن هامن، وبعض أفراد أسرته أمر (سندان)، إحدى المقاطعات السندية، في خلافة المأمون، وحتى عهد المعتصم عام ٢٢٧هـ؛ بيد أن الحرب الأهلية قد قوضت حكمهم^(٣).

(١) لقد صرح ابن خلدون أكثر من مرة بأن أكثر العارفين بقريش لم يعترفوا بأن يكون بنو سامه من نسل سامه بن لؤي هذا. انظر: ابن خلدون - الجزء الأول - ص ٣٢٤، الجزء الرابع - ص ٩٣ - مصر.

(٢) ابن خلدون - المجلد الرابع - ص ٩٣ - مصر.

(٣) البلاذري - ص ٤٤٦ - لندن.

فلا غرو، أن يفر بنو سامه إلى الهند، ومنها إلى الملتان، بعد انهيار دولتهم في عمان على يد القرامطة. وهكذا من الله عليهم بدولة جديدة؛ فقد كان بنو سامه هم أمراء الملتان، ثم أطلق عليهم (بنو منبه)، وكانت دولتهم أول ولاية مستقلة نصل إليها في أواخر القرن الثالث الهجري.

بنو منبه

يعد ابن رسته (عام ٢٩٠هـ) أول من ذكرهم في الجزء الخاص بالجغرافيا من كتابه (الأعلاق النفيسة)، فيقول: "هناك قوم في الملتان يزعمون أنهم من أسرة سامه بن لؤي^(١)، ويطلق الناس عليهم اسم بنى منبه، وهم الحكام هناك، ويخطبون باسم أمير المؤمنين. وحين يأتي ملوك الهند لمحاربتهم، يخرجون بجيوشهم الجرارة من الملتان للقائهم ومحاربتهم، وتكون لهم الغلبة بسبب قوتهم، وثرواتهم، وشدة بأسهم"^(٢).

وبعد ذلك بنحو عشرة أعوام، يصل المسعودي (بعد عام ٣٠٠هـ) إلى الملتان، فيقول: "وأما صاحب المولتان، فقد قلنا: إن الملك في ولد سامه بن لؤي بن غالب، وهو ذو جيش ومنعة، وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار، وحول ثغر المولتان من صناعة وقراه عشرون ومائة ألف قرية مما يقع عليها الإحصاء والعد، وفيه، على ما ذكرنا، الصنم المعروف بالمولتان، يقصده السند والهند من أقاصى بلادهم بالنذور، والأموال، والجواهر، والعود، وأنواع الطيب، ويحج إليه الآلاف من الناس، وأكثر أموال صاحب المولتان مما يحمل إلى هذا الصنم من العود القمارى الخالص، الذى يبلغ ثمن الأوقية منه مائة دينار، وإذا ختم بالخاتم أثر فيه كما يؤثر الشمع، وغير ذلك من العجائب التى تحمل إليه. وإذا نزلت الملوك من الكفار على المولتان، وعجز المسلمون عن حربهم، هددوهم بكسر هذا الصنم

(١) كتب بعض المؤرخين والرحالة (أسامه) بدلاً من (سامه)، على خلاف الأصح.

(٢) ابن رسته - الأعلاق النفيسة - ص ١٣٥ - لندن - ١٨٩٢م.

وتعويره، فترحل الجيوش عنهم عند ذلك. وكان دخولي إلى بلاد المولتان بعد الثلاثمائة، والملك به أبو الهباب المنبه بن أسد القرشي" (ج ١ ص ١٦٧) (١).

وبعد المسعودي بأربعين عامًا، زار الإصطخرى الهند، عام ٣٤٠هـ، فكتب يقول: "وأما الملتان فهي مدينة نحو نصف المنصورة، وتسمى فرج بيت الذهب، وبها صنم تعظمه الهند، وتحج إليه من أقاصى بلدانها، وتتقرب إلى هذا الصنم في كل سنة بمال عظيم، لينفق على بيت الصنم، والعاكفين عليه منهم، وسميت الملتان بهذا الصنم، وبيت هذا الصنم قصر مبنى فى أمر موضع، بسوق الملتان... وعامة ما يحمل إلى هذا الصنم من المال، فإنما يأخذه أمير الملتان، وينفق على السدنة منه، فإذا قصدهم الهند للحرب، وانتزاع هذا الصنم، أظهروا كسره وإحراقه، فيرجعون، ولولا ذلك لخربوا الملتان، وعلى الملتان حصون، ولها منعة.... وخارج الملتان، على مقدار نصف فرسخ، أبنية كثيرة تسمى "جنر اور"، وهي معسكر للأمير، لا يدخل الأمير منها إلى الملتان إلا فى الجمعة، فيركب الفيل، ويدخل إلى صلاة الجمعة، وأميرهم قرشى من ولد سامة بن لؤي، قد تغلب عليها، ولا يطيع صاحب المنصورة، إلا أنه يخطب للخليفة" (٢) (الإصطخرى ص ١٠٣ - ١٠٤).

وبعد الإصطخرى بسبعة وعشرين عامًا، أى فى عام ٣٦٧هـ، زار ابن حوقل البغدادي الملتان، فكتب عن كل ما يتعلق بها، إلا أنه لم يذكر شيئاً عما كان بها من الباطنية والإسماعيلية. على الرغم من أن هذا أمر جدير بالذكر.

وبعد ابن حوقل بثمانية أعوام، قدم البشارى المقدسى إلى الملتان، فكتب يقول: "وأهل الملتان شيعة، يهوعلون فى الأذان، ويثنون فى الإقامة" (٣).

(١) المسعودي - مروج الذهب - المجلد الأول - ص ٣٧٥-٣٧٦ - باريس.

(٢) الإصطخرى - نقلاً عن معجم البلدان - ياقوت - تحت كلمة (المولتان).

(٣) البشارى المقدسى - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - الجزء الثانى - ليدن - ١٩٠٦م - ص ٤٨١.

"وأما بالملتان، فيخطبون للفاطمي، ولا يحلون ولا يعقدون إلا بأمره، وأبدًا رسلهم وهداياهم تذهب إلى مصر"^(١).

يتأكد لنا من خلال هذا كله أنه في عصر ابن رسته، أي عام ٢٩٠هـ، وفي عهد المسعودي أيضًا؛ رغم التزامه الصمت، وفي عهد الإصطخري، أي عام ٣٤٠هـ، كانت الحكومة في هذه الدولة في يد السنيين؛ وكان يخطب فيها باسم خليفة بغداد. وحتى عام ٣٦٧هـ، لم يحدث ما يستحق الذكر؛ ولكن في عام ٣٧٥هـ، يبدو أن الإسماعيليين قد تولوا زمام السلطة، كما يبدو واضحًا تأثير الخليفة الفاطمي الإسماعيلي في مصر. وكأن التحول الديني للأسرة الحاكمة في الملتان؛ لم يحدث عام ٣٤٠هـ، وإنما قد تم في الفترة ما بين ٣٦٧هـ و ٣٧٥هـ.

ومما يؤكد هذا القياس، أن الدولة الفاطمية في مصر قد أسست عام ٣٥٨هـ، وانتقلت حاضرتها من مصر إلى أفريقيا عام ٣٦١هـ. وكان العالم الإسلامي آنذاك تتنافس دولتان، هما: الدولة العباسية السنية في (بغداد)، والدولة الفاطمية الشيعية في (مصر). وكانتا كلتاهما مشغولتين بتوسيع رقعة ملكها في العالم الإسلامي، على حساب الأخرى، لدرجة جعلت هذا التربص والترصد ينتقل إلى مكة المكرمة، والمدينة المنورة. وكلما قامت دولة إسلامية جديدة، أخذ دعاة كل منهما يؤدون واجبهما، في ضوء هذا التربص والترصد. على الرغم من أنه كان عصر انحطاط للخلافة العباسية، وازدهار للدولة الفاطمية في مصر، وكان الدولة العباسية قد شاخت وهرمت، والدولة الفاطمية في عنفوان شبابها.

وكان في قيام الدويلات التركية الجديدة عوض؛ حيث كانت تسلم بسيادة العباسيين، كما كانت الدولة السامانية ببخارى خاضعة لهم، وظهر الغزنويون في منتصف القرن الرابع الهجري، ومن بعدهم بأربعين أو خمسين عامًا، علت راية السلاجقة؛ وكان ولاء هؤلاء جميعًا - رغم قوتهم العسكرية - للدولة العباسية.

(١) أحسن التقاسيم - ص ٤٨٥.

ولما ذاع صيت السلطان محمود الغزنوي، بادر خليفة بغداد بإرسال ما خلعه عليه من خلعة، في الفترة ما بين ٣٨٧هـ - ٣٩٠هـ، وأنعم عليه بلقب (أمين الملة، ويمين الدولة). بعدها هاجم السلطان إسماعيلية الملتان، عام ٣٩٦هـ، وأسر أمير القرامطة فيها، عام ٤٠١هـ. وأغلب الظن أن الفاطميين المصريين، عندما أدركوا هذا الأمر، أرسلوا بسفيرهم إلى محمود الغزنوي، إلا أن السلطان اعتقده من الباطنية، وأمر بالقبض عليه، وهو في الطريق، وأمر بتسليمه إلى مشهور سيد حسين بن طاهر بن مسلم العلوي^(١) الذي أمر بقتله.

قرامطة الملتان

والسؤال الآن، أكان بنو منبه، الذين كانوا ملوكًا للملتان حتى عام ٣٤٠هـ، كما ذكر الجغرافيون العرب - من أسرة عربية سنية؟ أم أنفسهم الإسماعيليون العرب، الذين تحولوا من المذهب السني إلى المذهب الإسماعيلي فيما بعد، أم أنهم أسرة أخرى؟ كل هذا لا نجد له إجابة في دفائن الكتب التي تحت أيدينا، ولكن أبا الريحان البيروني، في (كتاب الهند)، الذي ألفه عام ٤٢٤هـ، يقول في وصف تاريخ معبد الملتان:

"عندما استولى القرامطة (الإسماعيلية) على الملتان، قام جلم بن شيبان - الذي كان يملك زمام الأمور هناك - بإغلاق مسجد محمد بن القاسم، كرهًا في الأمويين، كما هدم المعبد، وشيد مسجدًا"^(٢).

يتضح من هذا، أن القرامطة، التي كانت لها السيادة، أواخر القرن الرابع الهجري، أسرة أخرى، وأن مؤسسها جلم بن شيبان، الذي يشير اسمه أيضًا إلى

(١) جاء ذكر هذا المبعوث الفاطمي في كتاب "زين الأخبار" - ص ٧١ - برلين.

(٢) كتاب الهند - ص ٥١ - لندن.

كونه عربياً. وبعد ذلك، يذكر البيروني: "كان عصر القرامطة قبل عصرنا بمائة عام تقريباً"^(١).

وقد ألف (كتاب الهند) عام ٤٢٤هـ، فإذا رجعنا مائة عام، يكون المقصود هو ٣٢٤هـ. وكما علمنا بما لا يدع مجالاً للشك؛ أن بني منبه كانت حكومتهم عربية سنية، استمر حكمها حتى عام ٣٤٠هـ. لذا فإن عام ٣٢٤هـ لم يكن عام استيلاء القرامطة على الملتان، بل إن هذا العام هو عام ظهورهم على سواحل العراق، وخليج فارس.

والحقيقة أنه قد حدث خلط في أسماء الفرق الإسلامية الثلاثة: القرامطة، والإسماعيلية، والملاحدة؛ وبما أنهم من الشيعة الإسماعيلية، ولا يتباينون إلا قليلاً، وأن تاريخ نشأتهم مختلف؛ فأولاهم كانت القرامطة، وقد ظهوروا في البحرين، وخليج فارس، والعراق، أواخر القرن الثالث الهجري.

بينما ظهر الإسماعيلية في أفريقيا، عام ٢٩٦هـ، وقدموا إلى مصر، عام ٣٥٦هـ. أما الملاحدة، المعروفون بالباطنية، وهم أتباع الحسن بن الصباح؛ فقد ظهوروا في خراسان، بعد عام ٤٨٣هـ/١٠٩١م.

وقد ظهرت في عهد الحاكم بأمر الله، خليفة مصر الإسماعيلي الفاطمي، فرقة أخرى في الشام، اشتهرت بالدروز^(٢). والسؤال الآن: إن الفرقة التي تولت الحكم في الملتان، هي على وجه اليقين من الشيعة الإسماعيلية، ولكن أي فرقة من فرق الشيعة؟ أعتقد أنها من الفاطميين الإسماعيليين، والتي كان مقرها مصر.

أما ما ذكره بقية المؤرخين من أنها من القرامطة أو الملاحدة؛ فقد قالوه بناء على التشابه بين هذه الفرق. والدليل على ذلك أن الفترة التي تولى فيها الشيعة حكم

(١) كتاب الهند - ص ٥٦.

(٢) مؤسس هذه الفرقة هما: أبو عبد الله الدرزي، وحمزة بن علي، وقد قاما بالدعوة للخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر الله. المنجد في الأعلام - ص ٣٤٢- ٣٤٣.

الملتان، أى بعد عام ٣٤٠هـ، كانت فترة انهيار القرامطة فى كل مكان، ثانيًا: أن القرامطة كانوا يعترفون اسمياً بسيادة خلفاء مصر الفاطميين، أما أهل الملتان فكان ولاؤهم للخلفاء الفاطميين، ثالثًا: أن البشارى المقدسى، أحد رجال الدين، قد سماهم الشيعة، وليس القرامطة، وذكر أنهم يخضعون للفاطميين. ثم إن شعائر القرامطة ليس فيها (حى على خير العمل) فى الأذان، أو الخطبة، أو غير ذلك من الطقوس، وهو ما ثبت وجوده عند إسماعيلية الملتان، من خلال وصف المقدسى لهم.

أما الدروز، فهم نتاج الفترة ما بين ٣٨٦هـ و ٤١١هـ، وهو عصر متأخر جدًّا، ثم بعدهم بمائة عام، ظهرت فرقة الباطنية أو الملاحدة؛ أى أتباع حسن بن الصباح؛ ومن ثم، فإن إطلاق بعض المؤرخين عليهم ملاحدة، يعد خطأ تامًا.

ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الناس قد ظهوروا، أول ما ظهوروا، باعتبارهم قرامطة، بسبب قرامطة عمان، والبحرين، وخليج فارس. وبعد زوال القرامطة، وانتهاء أمرهم، اختاروا المذهب الفاطمى الإسماعيلي، وقد كان القرامطة أيضًا أنصاف إسماعيليين.

إن مؤسس أسرة الإسماعيلية، التى كانت تحكم الملتان أثناء هجوم السلطان محمود، كان الشيخ حميد؛ طبقًا لكتب التاريخ الفارسية. وكان أتباعها من المسلمين الأوائل الذين قدموا إلى هذه البلاد، فى أثناء الهجوم على أفغانستان، ولم يتمكنوا من العودة بعد ذلك، ثم أخذوا يتصاهرون مع قبائل (البتهان)، التى تسكن جبال خيبر؛ ونتج عن هذا التناسل العربى الأفغانى قبيلتي: (اللودهي)، و(السوري)، وكان الشيخ حميد من قبيلة اللودهيين. وهذه القصة جميعها لا أساس لها؛ فيما يتعلق بأصل القبائل، شأنها شأن الأمور الأخرى؛ إذ لم يقرن اللودهيون أسماءهم بكلمة (شيخ) قط، ولم يكن لديهم أى نوع من هذه الأسماء.

والحقيقة، إن مؤرخى الفرس لم يكونوا على دراية تامة بتاريخ العرب فى الملتان؛ لذا فإنهم اضطروا أن يعتبروا رؤساء الملتان المسلمين من الأفغان.

والحقيقة أنه لا علاقة إطلاقاً بين الشيخ حميد والأفغان، والغالب أنه من نسل جلم بن شيبان، الذي سبق ذكره؛ نقلاً عن البيروني.

وإليك مزيداً من التفاصيل

ذكر فرشته أنه حين شرع (البكتكين، وسبكتكين) في غزو حدود الأفغان، طلبا العون من ملك لاهور (جے بال)، فتشاور الملك (جے بال) مع ملك (بهاتيه)؛ وقررا جلب قبائل (البتهان)، حيث إن جيش الهند لا يستطيع تحمل صقيع الحدود في الشتاء.

وهكذا فتح الشيخ حميد اللودهي مقاطعتي (لمغان) و(الملتان)، ثم عين الشيخ حميد والياً له. وبهذا أنقذ الهند من هجمات البكتكين عام ٣٥١هـ/٣٦٥هـ^(١). وما في هذه الواقعة من جلب قبائل البتهان وتسكينهم؛ ونسبة الشيخ حميد إلى اللودهيين، إن هو إلا وحي خيال المؤلف.

وعندما توج سبكتكين ملكاً بعد البكتكين عام ٣٦٥هـ، رأى الشيخ حميد قوة الغزنويين المتنامية، فقبل الصلح مع سبكتكين، وصار من رعاياه. وحين اعتلى السلطان محمود عرش غزنه ٣٩٠هـ، وأخذ يهاجم (بجراو) ملك بهاتيه، عام ٣٩٥هـ؛ كانت دولة الملتان تحت إمرة حفيد الشيخ حميد، أبي الفتح داوود بن نصير بن الشيخ حميد، الذي وصفته كتب التاريخ الفارسية بالملحد والقرمطي (الإسماعيلي).

ويبدو أن أبا الفتح داوود، حين رأى شجاعة السلطان محمود الفائقة، سعى للانضواء تحت لواء الملوك الهنادكة، والاتحاد معهم، تجنباً لأي مخاطر قد تلحق به؛ خاصة أنه قد استعان بالملك (بجراو) ضد محمود الغزنوي، إبان هجومه على (بهاتيه)^(٢).

(١) وردت هذه الواقعة كاملة في كتاب (فرشته) - المجلد الأول - ص ١٧-١٨ - نولكشور.

(٢) وردت هذه الواقعة بأكملها في "فرشته" - المجلد الأول - ص ٢٤ - ٢٥ - نولكشور.

آثر السلطان السلامة هذه المرة، إلا أنه فى العام التالى ٣٩٦هـ، عزم على معاقبة أبى الفتح، فأراد أن يتجه إلى الملتان، من بشاور مروراً بالبنجاب؛ بدلاً من أن يذهب من أعلى الملتان مباشرة (أى من دير غازى خان غالباً)؛ حتى لا يشعر أبو الفتح بقدومه. وتمهيداً لهذه الخطوة، طلب من (آنديال)، ملك البنجاب، أن يسمح لجيش السلطان بالمرور من بلاده إلى الملتان.

ويروى مؤرخون آخرون، أن أبى الفتح نفسه، هو الذى طلب يد العون من الملك (آنديال)، حين علم بنية السلطان، فذهب الملك من لاهور إلى بشاور، ليوقف السلطان؛ غير أن جيش السلطان ألحق الهزيمة بآنديال، ومر من بلاده حتى وصل الملتان؛ ليجد قلعة أبى الفتح قد أحكم غلقها.

وفى النهاية، تدخل أهالى المدينة وعقدوا الصلح؛ على أن تؤدى الملتان الخراج لغزنة باستمرار، وتاب أبو الفتح عن معتداته وأتاب، ووعد بتطبيق مذهب السنة فى دولته، بدلاً من المذهب الإسماعيلي. وبعد عدة سنوات (أى قبل عام ٤٠٢هـ) هاجم السلطان الملتان مرة أخرى، واقتلع جذور الإسماعيلية، وقبض على داود بن نصير، وأخذه إلى غزنة، وزج به فى سجن قلعة الغور حتى لقي حتفه^(١).

كان هذا مفاد ما أورده فرشته. وقد ورد فى كتاب (زين الأخبار) للكرديزي، والذى ألف حوالى ٤٤١هـ، فى عهد الغزنويين وحاضرتهم، ما يلي:

"خرج السلطان من غزنة متوجهاً إلى الملتان، لكنه خشى أنه لو قصد الملتان مباشرة، سيراً فى الطريق المباشر؛ فلعل داود بن نصر (وليس نصير)، الذى كان والياً على الملتان، يعلم بقدوم السلطان، فيجزم أمره؛ فسلك الطريق المخالف، وكان آنديال فى طريقه، فطلب منه المرور، فرفض ولم يسمح له، فتعاركا؛ فلاذ (آنديال) بالفرار إلى كشمير. وصل السلطان إلى الملتان، وحاصرها

(١) تاريخ فرشته - ص ٢٥ - ٢٧ - نولكشور.

سبعة أيام، وتوسط أهل المدينة، وتم الصلح على أن يدفع عشرين ألف درهم، فرجع السلطان محمود، وكان هذا عام ٣٩٦هـ... وعندما عاد السلطان، عام ٤٠١هـ، من غزاة إلى الملتان، واستولى عليها؛ قبض على أكثر القرامطة الذين كانوا فيها؛ فقتل بعضهم، وقطع أيدي البعض الآخر، ونكل بهم نكالا شديدا... وفي هذا العام، قبض على داوود بن نصر، وزج به في قلعة الغور^(١).

وقد اختصرت كتب التاريخ العربية الثقات كل ما يتعلق بهذا الأمر؛ وتباينت في بعض الأمور؛ إلا أنها تتحد في بعض الأجزاء المهمة لهذه الواقعة. فعند ابن الأثير (٥٥٥هـ/٦٣٠هـ): "في عام ٣٩٦هـ، هجم السلطان محمود على الملتان؛ لعلمه بما صار عليه وإلى الملتان، أبو الفتح، من تهمة الإلحاد (واتباع المذهب الإسماعيلي)، فدعا رعاياه إلى اتباع مذهبه الديني، فاستجابوا له؛ فلما علم السلطان بهذا؛ رأى من واجبه إعلان الجهاد ضده، حتى يرجع عن هذا الأمر، فخرج السلطان من غزاة متوجهاً إليه، فإذا به يجد الطريق مليئاً بالأنهار، التي تعلو مياهها الحدود، وكان عبور نهر (سيحون)، بصفة خاصة، غاية في الصعوبة؛ لهذا أرسل السلطان برسالة إلى (آنديبال)، أن يسمح له بالمرور من بلاده إلى الملتان، فرفض؛ فهاجمه السلطان أولاً وفر (آنديبال) إلى كشمير، وحين علم أبو الفتح بقدوم السلطان، ولم يجد من العتاد والقوة ما يؤهله لمواجهة، هرب ثروته إلى سرنديب، وأخلى الملتان".

"قوصل يمين الدولة إليها ونازلها، فإذا أهلها في ضلال يعمهون، فحصرهم، وضيق عليهم، وتابع القتال حتى افتتحها عنوة، وألزم أهلها عشرين ألف درهم؛ عقوبة لعصيانهم" ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٦^(٢). وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه هذه الأحداث ذاتها^(٣).

(١) الكريزي - زين الأخبار - ص ٦٧ - ٦٨ - برلين.

(٢) ابن الأثير - الكامل - الجزء ٩ - ص ١٣٢ - لندن.

(٣) ابن خلدون - الجزء ٤ - ص ٣٦٦.

نستنتج من هذا الاقتباس صحة اسم أبي الفتح إذ هو أبو الفتوح، ثانيًا: نستنتج علة عدم الذهاب إلى الملتان مباشرة، والتوجه إليها عن طريق البنجاب. أما مسألة تهريب أبي الفتوح ثروته إلى سرنديب، فلا أساس لها؛ إذ ربما لم يكن مؤرخو ذلك العصر يعلمون المسافة البعيدة بين الملتان وسرنديب، وربما ذكر اسم مدينة أخرى في النسخة الأصلية، وظهرت سرنديب، في الطباعة سهوًا.

ثم في عام ٤٠٣هـ، أراد خليفة مصر الفاطمي أن يقيم علاقة مع السلطان محمود، إلا أن السلطان لم يقبل ذلك، وقتل سفيرهم، كما تقدم ذكره.

ثم هناك أمر بالغ الأهمية في هذا الصدد، وهو جزء يتعلق بفقرة من كتاب الدروز المقدس؛ إذ إن خليفة مصر الإسماعيلي، الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ - ٤١١هـ)، قد أنشأ فرقة خاصة في مصر والشام، تُعرف بالدروز، ومازالوا يسكنون الشام ولبنان إلى الآن. على أية حال، تضمن كتاب الدروز (المؤلف عام ٤٢٣هـ) هذه الفقرة^(١):

"باسم أهل التوحيد في الملتان والهند عامة، والشيخ بن سومر الملك (يال) خاصة". وكان عام ٤٢٣هـ هذا، يتزامن مع عهد السلطان مسعود، ولي عهد السلطان محمود، المتوفى عام ٤٢١هـ، ومن ثم نستنتج أن الملتان، صارت مقرًا لتلك الفرقة، بعد فتح الغزنويين لها.

فبعد ضعف الغزنويين، سيطر الإسماعيليون على الملتان من جديد، وفي عهد السلطان شهاب الدين الغوري، كان الإسماعيليون حكامًا على الملتان، وقد أكره عام ٥٧٢هـ على الخروج إلى الملتان؛ لاستخلاصها من أيدي القرامطة (الإسماعيلية)^(٢)، ثم صارت جزءًا من سلطنة دهلي أخيرًا.

(١) ملحق اليت - الجزء الأول - ص ٤٩١.

(٢) فرشته - الجزء الأول - ص ٥٦، والمجلد الثاني - ص ٣٤٢ - نولكشور.

أصول حكام الملتان

مما سبق ذكره، يتبين لنا أن ثمة ثلاثة أصول متباينة لحكام الملتان:

١. منبه بن أسد، الذي كان من قبيلة بنى سامه بن لوى فى قریش، والتي أطلق عليها أسرة بنى منبه، والتي عرفت لنا بشكل قاطع من عام ٢٩٠هـ إلى ٣٤٠هـ (أى من ابن رسته إلى الإصطخرى).

٢. جلم بن شيبان، وهو طبقاً لما ذكره البيروني، أول القرامطة أو الإسماعيليين الذين استولوا على الملتان، وما كان عهده عام ٣٤٠هـ، بل ما بين عامى ٣٦٧هـ و ٣٧٥هـ؛ أى فيما بين الإصطخرى، بل ابن حوقل والبشارى؛ لأن البشارى هو أول رحالة عربى تحدث عن العلاقات بين الملتان والفاطميين فى مصر.

٣. الشيخ حميد، وابنه نصير أو نصر، وابنه أبو الفتح أو أبو الفتوح داوود قرمط، وكان معاصراً لألبتكين أو سبكتكين؛ أى يمكننا أن نعين زمن الشيخ حميد وابنه نصر (هذا لو كان قد تولى الحكم) فى الفترة ما بين ٣٥١هـ وحتى ٣٩٠هـ. أما أبو الفتح داوود فكان معاصراً للسلطان محمود؛ لذا فإن فترة حكمه تمتد من عام ٣٩٠هـ وحتى ٣٩٦هـ (وهو عام الفتح الأول للملتان)، بل ربما إلى عام ٤٠١هـ (وهو عام الفتح الثانى للملتان، والقبض على داوود).

ولم يكن مؤرخو الفرس على علم بالأسرة الأولى والثانية، وقد كانوا من العرب الخالص، طبقاً لما ذكره الرحالة العرب. أما الأسرة الثالثة فإن مؤرخى الفرس يعرفون علاقات السلطان محمود بهم.

والصحيح أن من أطلق عليه (أبو الفتح)، كانت كنيته العربية (أبو الفتوح)، ومن أطلق عليه (نصير) فهو فى الأصل (نصر)، وفق أقدم وثائق الكرديزي؛ وتعود أهمية هذا التصحيح اللغوي؛ إلى أن فرشته وغيره نسبوا هذه الأسرة إلى

قبائل اللوذهيين والبتهان؛ بيد أن هذه الأسماء: (شيخ حميد)، (نصر)، (داوود)، أسماء عربية خالصة، و(نصر) أكثر قرباً للأسماء العربية من (نصير)؛ وهكذا فإن كنية (أبي الفتح)، وهي (أبو الفتوح)، دليل كافٍ على عروبتة، خاصة (أبا الفتوح) بصيغة الجمع، وإن لفظ شيخ لهو لقب تكريم في العربية، وكان الإسماعيلية الباطنية يلقبون به الأمير؛ إذ إن ألقابهم كانت دينية أكثر منها سياسية^(١).

ولهذا أطلقوا على حسن بن الصباح نفسه لقب (شيخ الجبال). ومن أجل هذه الأسباب كلها، فإن نسبتهم إلى قبائل اللوذهيين والبتهان تبدو قصة مختلفة؛ فضلاً عن أن التسليم بإمكان ذيوع الإسلام بين قبائل البتهان في هذه الفترة يعد أمراً صعباً. وعليه، فالصواب أن الشيخ حميد، والشيخ نصر، وأبا الفتوح داوود، وغيرهم، من العرب نسباً، ومن جلم بن شيبان نسلًا.

وقد كتب أحد كتاب الهند الكبار - دون دليل - أن (أبا الفتوح) داود هو نفسه المعروف في تاريخ السند باسم (سومره)، وأن (سومره) هو لقبه الهندوكي، و(أبا الفتح) هو اسمه الإسلامي^(٢).

وقد وقع في هذا الخطأ؛ نتيجة تصوره أن الملتان والمنصورة، كانتا تحت حكم أسرة واحدة؛ لهذا فعندما كان اسمه (أبو الفتح) في سلسلة حكام الملتان؛ ينبغي أن يكون اسمه (سومره)، نسب السند؛ لأنهما في الحقيقة اسمان لشخص واحد؛ علمًا بأن هذا خطأ مؤكد.

(١) الحقيقة لا فرق بين أبي الفتح وأبي الفتوح، فكلاهما كنية؛ حيث إن الكنية في العربية، ما صدر بأب أو أم، كما أن نصيرًا تصغير نصر، فلم كان الأخير أقرب إلى العربية؟ وأين موسى بن نصير، فاتح إفريقيا والأندلس؟

(٢) ذكره مولانا عبد الحليم شرر، في الجزء الثاني من كتابه "تاريخ السند" - ص ٩، ثم ص ١٢، ويبدو أن مولانا قد أخطأ في فهم ألفاظ البيت (المجلد الأول - ص ٤٩١).

ولا يمكن الاستدلال من الرسالة التي وردت في كتاب الدروز، والتي أولها:
"للموحدين في الملتان والهند عامة، والشيخ بن سومر (راجا بل) خاصة" على أن
ابن سومري كان ملكاً على الملتان.

وما ذكر أحد من المؤرخين اسم (سومره)، عند الحديث عن سلسلة نسب
أمراء الملتان، ولا يوجد أى سند يدعم ذلك. وكان السومريون بالسند فقط، وكانت
بدورها مستقلة تماماً عن الملتان؛ كما ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، من أقوال
الرحالة العرب. وكل ما تشير إليه هذه الرسالة أن (أبا الفتح داوود)، أمير الملتان،
وسومر، كانا من أتباع طريقة واحدة. والغالب أنه بعد انهيار حكومة أبي الفتح
وأُسره؛ عين سومر هذا شيخاً وإماماً لقرامطة السند.

أما القول بنسب (الشيخ حميد)، وغيره إلى قبائل البتهان، فيمكن تخريجه
على أن الشائع لدى الإسماعيليين؛ أنهم كانوا يلجأون إلى التقريب بين سائر
الطوائف والعشائر بالقرابة الدينية والعصبية؛ من أجل نشر عقيدتهم.

وهكذا أشاع (الشيخ حميد)، وغيره، أنه في الأصل بتهاني؛ بغية استمالة
قبائل البتهان إليه. ولكن ليس له، ولغيره، أى علاقة بالأصل الهندوكي، ونسبه. كما
أن أسماءهم غير هندية.

الحضارة الهندية الإسلامية في الملتان

لقد حدث نوع من التزاوج المثمر بين الحضارتين العربية والهندية؛ حيث إن
المدينة صغيرة وجميلة، فيها أسواق متخصصة لأصحاب الحرف والمهن، ويحيط
سور أطرافها الأربعة. وكان المعسكر الحربي الخاص بالأمير، خارج المدينة، به
عمائر مرتفعة.

وكما ذكر البيروني: "إن في المدينة مسجدًا، بناه محمد بن القاسم (ما بين ٣٤٠هـ/٣٧٥هـ غالبًا). وقد أغلقه جلم بن شيبان، الإسماعيلي القرمطي؛ باعتباره أثرًا أمويًا، وهدم معبد إله الشمس المشهور، وأقام عليه مسجدًا".

وعندما فتح السلطان محمود الملتان، عام ٣٩٦هـ أو ٤٠٣هـ، فتح المسجد الأول، وترك الثاني دون ترميم، وقد تداعى بنيانه زمن تأليف البيروني كتابه (عام ٤٢٤هـ)، وصار ميدانًا تنبت فيه أشجار الحناء.

وقد ذكر الإصطخري، عام ٣٤٠هـ: "إن أمير الملتان يذهب لصلاة الجمعة في المسجد الجامع، راكبًا فيلاً، وكان هذا تقليدًا خاصًا بالهنداكة؛ فاتبعه الأمراء العرب. وقال: إن أهل الملتان يرتدون الكرته^(١)، وإن جلهم يتحدثون الفارسية والسندية".

والخلاصة أنه حدث نوع من التمازج، والتشابه بين الهنداكة، والمسلمين، في الأزياء واللغة. وفيما يتعلق بالأزياء واللغة، ذكر ابن حوقل (٣٦٧هـ) ما يلي:

"وزى المسلمين والكفار بها واحد، في اللباس، وإرسال الشعر، ولباسهم الأزرق والميازير؛ لشدة الحر ببلدانهم، وكذلك زى أهل الملتان... ولسان أهل المنصورة، والملتان، ونواحيها، العربية والسندية، ولسان أهل مكران، الفارسية والمكرية، ولباس القرايط فيهم ظاهر، إلا التجار فإن لباسهم القمص والأردية، كسائر أهل العراق وفارس"^(٢). ص ٣٢٥.

وحين أتى البشاري المقدسي، عام ٣٧٥هـ، رسم صورة واضحة عن حضارة وأخلاق هذه البلاد، فيقول:

(١) زى خاص بالرجال؛ هو عبارة عن قميص، وسروال طويل، يشبه الباجامة.

(٢) ابن حوقل - سفرنامه - ص ٢٣٢ - لندن.

"والملتان تكون مثل المنصورة، غير أنها أعمر، ليست بكثيرة الثمار، غير أنها رخيصة الأسعار... والتجارة حسنة نشأ كل دور سیراف من خشب الساج طبقات، ليس عندهم زنا، ولا شرب خمر، ومن ظفروا به يفعل ذلك، قتلوه، أو حدوه، ولا يكذبون فى بيع، ولا يبخسون فى كيل، ولا يخسرون فى وزن، يحبون الغرباء، وأكثرهم عرب، شربهم من نهر غزير، والخير بها كثير، والتجارات حسنة، والنعم ظاهرة، والسلطين عادلة، لا ترى فى الأسواق امرأة متجملة، ولا أحدا يحدثها علانية، ماء مريء، وعيش هنيء، وظرف ومروة، وفارسية مفهومة، وتجارات مفيدة، وأجسام صحيحة، إلا أنها سبخة بليدة، ودور ضيقة، وهواء حار يابس، وهم سمر وسود"^(١) (ص ٤١٣).

"ودراهم الملتان على عمل دراهم الفاطمي، وينفق فيها القنهرى"^(٢).

المنصورة

(برهمن آباد)، هى أكبر المدن المشهورة لدى العرب، واسمها الهندي، كما ذكره البيروني، هو (بهمنوا)، وقد عرفها أهل إيران باسم (برهمن آباد)، وهو الاسم الذى شاع بين المسلمين. وتبعاً لبعض المتطلبات السياسية والأمنية، اضطر العرب أن يقيموا لأنفسهم مدناً خاصة بهم، أشهرها: المحفوفة، والبيضاء، والمنصورة.

وحين ضعفت شوكة العرب، أواخر عصر بنى أمية، أخذ السندهيون يدفعون بالعرب تجاه السواحل، فقام الحكم بن عوانة، والى العرب وقتئذ، بجمع العرب فى مكان واحد، على الشاطئ الآخر من النهر، وأسماه المحفوفة.

(١) البشارى المقدسى - أحسن التقاسيم - ص ٤٨٠ - ٤٨١ - ليدن.

(٢) المصدر السابق - ص ٤٨٢. يبدو أن القنهرى عملة عادية، ولا نعلم كيف ذكرها اليت باسم (قندهاريات)؛ باعتبار أنها تسك فى (قندهار)، ولا أساس لذلك من الصحة، ويعد تحريفاً للكلمة.

وكان عمرو بن محمد بن القاسم مع الحكم، وكان يفوض إليه ويقلده حسيم أموره وأعماله فاغزاها من المحفوظة، فلما قدم عليه وقد ظفر أمره، فبنى دون البحيرة مدينة وسماها المنصورة^(١).

وعندما عين أحد أفراد البرامكة، عمران بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي، واليًا على السند، إبان العصر العباسي، وفي خلافة المعتصم بالله (منتصف القرن الثالث الهجري)، أسس مدينة البيضاء، ولكن المنصورة هي المدينة الوحيدة من بين المدن، قدر لها الشهرة والخلود.

مؤسس المنصورة

لماذا سميت مدينة المنصورة بهذا الاسم؟ اعتقد البعض خطأ أنها قد نشأت في عهد الخليفة العباسي المنصور، فسميت المنصورة باسمه؛ وهذا يفتقر تمامًا إلى الصحة؛ إذ إن هذه المدينة شيدت في عصر الأمويين، وهكذا نسبها المسعودي إلى منصور بن جمهور^(٢) (ج ١ ص ١٦٨)، الذي كان واليًا على السند، إبان تداعي الدولة الأموية، وبداية قيام الدولة العباسية.

وهذا أيضًا غير صحيح. والحق أنه يتعين علينا ألا نخدع بالاسم؛ إذ إن مؤسسها، كما يتضح من أقدم المراجع لدينا عند البلاذري، المتوفى ٢٧٩هـ، هو عمرو بن محمد بن القاسم. ومن ثم، فإن تسميتها بالمنصورة إن هي إلا نوع من التفاؤل، على غرار تسميته المدينة الأخرى بالمحفوظة.

تاريخ بنائها

كان الحكم، الذي أنشأ عمرو هذه المدينة في عهده، واليًا من قبل خالد بن عبد الله القسري، أمير العراق، الذي تولى الإمارة عام ١٠٥هـ، وعزل منها عام

(١) البلاذري - فتوح البلدان - ص ٤٣١ - لندن.

(٢) مروج الذهب - الجزء الأول - ص ٣٧٩.

١٢٠هـ. وكان الحكم ثانى الولاة الذين بعثهم خالد على السند. ومن ثم، فإن فترة ولايته قد بدأت غالبًا ١١٠هـ. وعليه، فإن تاريخ بناء المنصورة ينبغي أن يكون بين عامي ١١٠هـ و ١٢٠هـ.

موقعها

كان ابن خرداذبة (عام ٢٥٠هـ)، أول من ذكر أن المنصورة تقع على نهر السند: " ونهر السند هو شعب نهر جيحون، وإليه ينسب بعض مملكة الهند، يمر بالمنصورة، ويصب في البحر الشرقي الكبير، بعد أن تحمل منه أنهار بلاد الهند"^(١)، ثم تلاه البلاذري (٢٧٩هـ)؛ حيث قال: "فبنى دون البحيرة مدينة، وسماها المنصورة"^(٢). كما كتب الإصطخري، وابن حوقل: "لقد أقيمت على مثل هذه البقعة من ضفاف نهر مهران (السند)؛ ليخرج منها فرع من نهر، يجعلها وكأنها جزيرة".

وقد حدد بعض الجغرافيين العرب موقعها، بالنسبة لطولها؛ فقالوا: "وهي من الإقليم الثالث، طولها ثلاث وتسعون درجة، وعرضها من جهة الجنوب اثنان وعشرون درجة" (ج ٥ ص ٢١١)^(٣). ومن حسن الحظ أن توافرت لدينا خريطة ابن حوقل، التي رسمها للسند في عصره؛ وبالنظر إليها، يتضح أن نهر السند يأتي من ناحية البنجاب، ويصب في بحر الهند؛ وخلف هذه المنطقة، يوجد موضع في اتجاه البر، على مسافة صغيرة، يخرج منه فرع جديد للنهر؛ ثم ينعطف، ويلتحم بهذا النهر مرة أخرى.

وهكذا، كانت تقع هذه المدينة في منتصف النهر، يحوط بها هذا الفرع من كل جانب؛ فتبدو وكأنها جزيرة صغيرة، تقام عليها هذه المدينة، تحيطها المياه من

(١) ابن خرداذبة - المسالك والممالك - ص ١٧٤.

(٢) البلاذري - ص ٤٣١.

(٣) ياقوت - معجم البلدان - تحت كلمة (منصورة).

كل جانب؛ فتحميها من محاصرة الغزاة، وكان موقعها يشبه تمامًا موقع (سرنكايتم)، التي تكونت هي الأخرى من انعطاف نهر (كاويري) في ميسور، وتمائلها كذلك (ترجنابلي) (في أطراف مدراس)؛ إذ كانوا يعتقدون أن مثل هذه المناطق تكون حصينة محفوظة؛ نظرًا إلى فنون القتال القديمة.

وقد فسر أبو الفضل كل هذا في (آئين اكبري)؛ فذكر أن المنصورة هي الاسم القديم للمدينة السندية الشهيرة (بهكر) ^(١). والحقيقة أن كل الأوصاف الجغرافية التي ذكرها تنطبق على المنصورة؛ حيث يقول: " تتلاقى هنا جداوله، فتصير نهرًا واحدًا، ثم يتفرع إلى فرعين يمران في منخفض؛ أحدهما يتجه جنوبًا، والآخر شمالاً ". وقد كان اسم (بهكر)، وما زال مألوفًا في التواريخ الهندية.

المنصورة عاصمة

كانت المنصورة مدينة حصينة؛ نظرًا لموقعها على ضفاف النهر، وبالقرب من البحر، ومن ثم، كانت حركة المرور إلى العراق والبلاد العربية سهلة، وقت الضرورة؛ لذا سرعان ما صارت حاضرة العرب في السند. ففي القرن الثالث، أصبح اسمها (بايه تخت) (العاصمة).

وقد ورد اسمها هذا في القرن الثالث، عندما ذكرها البلاذري، المتوفى ٢٧٩هـ، في حديثه عن هذه المدينة: " فهي التي ينزلها العمال اليوم " ^(٢). وهكذا، ذكرها كل من جاء بعده من الرحالة العرب. وأخيرًا، صارت عاصمة لإمارة عربية قرشية.

(١) آئين اكبري - المجلد الثاني - ص ١٦٠ - نولكشور.

(٢) البلاذري - ص ٤٣١.

السند فى العصر العباسى

ظلت السند خاضعة للسلطة المركزية فى بغداد حتى عهد الخليفة المأمون (عام ٢١٨هـ)؛ وفى أواخر عصره، أخذت أحلام الاستقلال تراود الأمراء العرب. وذلك أن الفضل بن ماهان، مولى بنى سامه، فتح سندان، وغلب عليها، وبعث إلى المأمون، رحمه الله، بفيل، وكاتبه، ودعا له فى مسجد جامع اتخذه بها، فلما مات، قام محمد بن الفضل بن ماهان مقامه، فسار فى سبعين بارجة إلى (ميد) الهند، فقتل منهم خلقاً... وكان هذا فى عهد أمير المؤمنين، المعتصم بالله (٢٢٧هـ)، وأهدى إليه ساجاً لم ير مثله، عظماً وطولاً، وكانت الهند فى أمر أخيه، فمالوا عليه، فقتلوه وصلبوه^(١).

والغالب أن هذه هى الحرب الأهلية التى فقد فيها المسلمون هذه الولاية. وفى خلافة المعتصم بالله؛ أعلن محمد بن الخليل الاستقلال فى (قنابيل)، لكن ما لبث عمران البرمكى - والى المعتصم على السند - أن قاتله، وفتحها، وحمل رؤوسها إلى قصدار^(٢).

ثم وقعت العصبية بين النزارية واليمانية، فمال عمران البرمكى إلى اليمانية، فسار إليه عمر بن عبد العزيز الهباري، فقتله وهو عار، وكان عمر هذا ممن قدم السند مع الحكم بن عوانة الكلبي^(٣).

أسرة الهبارى القرشى فى السند

كان هبار بن أسد من أشد أعداء الإسلام ورسوله فى بنى أسد القرشية، أيام دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم، ثم أسلم فى فتح مكة، عام ٨هـ. وقد قدم واحد من نسله إلى السند فى معية الحكم بن عوانة الكلبي، والى السند، ألا وهو

(١) البلاذرى - فتوح البلدان - ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٢) المصدر السابق - ص ٤٣٢.

(٣) المصدر السابق - ص ٤٣٢.

حفيدة عمر بن عبد العزيز الهباري^(١)، وشجرة نسبه هكذا: هو عمر بن العزيز بن المنذر بن زبير بن عبد الرحمن بن هبار بن أسد. وكانت هذه الأسرة مضطلة بأمور الحكم في عهد الأمويين، والعباسيين^(٢).

كان هذا الرجل قد تزعم قبيلة النزارية، وقتل عمران، وكانت النتيجة أن نال عمر بن عبد العزيز الهباري إمارة العرب في السند. وحين توفي هارون بن خالد، وإلى السند، عام ٢٤٠هـ، في عهد الخليفة المتوكل، طلب عمر بن عبد العزيز من ديوان الخلافة أن تسند إليه ولاية السند، فوافق الخليفة، وكتب اليعقوبي، المتوفى عام ٢٧٨هـ، في تاريخه المؤلف عام ٢٥٩هـ، يقول: "إن وإلى السند، هارون بن خالد، توفي عام ٢٤٠هـ، ولما كتب عمر بن العزيز سامى - الذى يعود أصله إلى سامه بن لوى - والذى كان والياً على السند، وحيث كان يحسن إدارة شئون البلاد، لم يتوان الخليفة، المتوكل، عن قبول طلبه، وظل مستقلاً بها، إبان خلافته"^(٣).

إن قول اليعقوبى بنسبة عمر بن عبد العزيز إلى ذرية سامه بن لوى، غير صحيح، فقد كان عمر بن عبد العزيز من أحفاد هبار بن أسد، الذى ينتسب بدوره إلى كعب بن لوى (ابن خلدون المجلد الثانى ص ٣٢٧ مصر). والأغلب الأعم أن اليعقوبى قد خلط بينه، وبين أمراء الملتان، الذين كانوا من ذرية سامه.

على أية حال، فقد ظلت الإمارة تابعة للعباسيين حتى بعد نهاية ولاية عمر بن عبد العزيز الهباري عليها. وهكذا كان اسم السند في خطط الخلافة، ببغداد، على مدى حكم الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ)؛ حيث إنه في ذلك العصر، وفي

(١) البلاذرى - فتوح البلدان - ص ٤٣٢.

(٢) ابن خلدون - المجلد الثانى - ص ٣٢٧.

(٣) تاريخ يعقوبى - المجلد الثانى - ص ٥٩٩ لندن.

عام ٢٥٧هـ - تحديدًا، أسندت إمارة السند إلى يعقوب بن الليث، مؤسس الدولة الصفارية، إضافة إلى تركستان، وسجستان، وكرمان^(١).

وفى عام ٢٦١هـ، أنعم المعتمد على أخيه الموفق بولاية السند، مع الولايات الشرقية، وقد شهدت تلك الفترة تمرد القرامطة، على السواحل العربية والعراقية، على خليج فارس شرقًا، وقيام التمرد الإسماعيلي الفاطمي، الذي آل به الحال، فى النهاية، إلى مصر غربًا.

ويبدو أن هذه الفترة كانت مواتية لقطع العلاقات الاسمية مع بغداد، والبلاذري، الذى توفى عام ٢٧٩هـ، كتب يقول: "ثم ولى ثغر السند عمر بن حفص بن عثمان، وكان ضمن ألف رجل، ثم داود بن يزيد بن حاتم، وكان معه أبو الصمة، المتغلب اليوم، وهو مولى لکنده"^(٢).

ويبدو أن أولاد عمر بن عبد العزيز الهبارى لم يهدأ لهم بال، وقد كان أبوهم يقطن فى (بانيه اوبنيا) بالسند^(٣). أما هم فقد استولوا على المناطق السفلية من السند، متخذين المنصورة عاصمة لهم. وفى عام ٢٧٠هـ، كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الهبارى حاكم المنصورة. وفى هذه الفترة، كتب إليه الملك الهندوكى لمنطقة (الرا) (الور بالسند)، يطلب منه إرسال أحد العلماء المسلمين؛ ليفسر له شريعة الإسلام بالهندية^(٤).

وحين أتى المسعودي، عام ٣٠٣هـ، وجد عمر بن عبد الله حاكمًا على المنصورة، وقد التقى بالعديد من الزعماء العرب هناك، ورأى أناسًا من الأسرة

(١) تاريخ ابن خلدون - الجزء الثالث - ص٣٤٣ - مصر.

(٢) البلاذري - فتوح البلدان - ص٤٣١ - ٤٣٢.

(٣) ابن حوقل - ذكر السند. ونص عبارة ابن حوقل: "وبانية مدينة صغيرة، ومنها عمر بن عبد العزيز الهبارى القرشي.... وهو جد المتغلبين على المنصورة، ونواحيها" - ص٣٢٣.

(٤) بزرک بن شهریار - عجائب الهند - ص٣ - لندن.

العلوية والساداتية، وكان الملك عمر بن عبد الله، والوزير رياحًا، والقاضي من آل أبي الشوارب.

وأصل عبارة المسعودي^(١): "وكذلك كان دخولي إلى بلاد المنصورة في هذا الوقت، والملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله، ورأيت بها وزيره رياحًا (زيادا) وابنيه محمدًا وعليًا، ورأيت بها رجلاً، سيدًا من العرب، وملكًا من ملوكهم، وهو المعروف بحمزة، وبها خلق من ولد علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، ثم من ولد عمر بن علي، وولد محمد بن علي، وبين ملوك المنصورة، وآل أبي الشوارب، القاضي، قرابة وصلة نسب، وذلك أن ملوك المنصورة، الذين منهم الملك في وقتنا هذا، من ولد هبار بن الأسود، ويعرفون ببني عمر بن عبد العزيز القرشي، وليس هو عمر بن عبد العزيز (بن مروان)، الأموي" (ج ١ ص ١٦٧-١٦٨).

وبعد المسعودي، جاء ابن حوقل، عام ٣٦٧هـ، وكانت الأسرة الحاكمة هناك الأسرة الهبارية، ولم يكن بينها وبين الخلافة العباسية أى ارتباط سياسى أو إداري، وإن ظلت العلاقة الدينية قائمة، والخطبة باسم الخلفاء العباسيين فى المساجد. ونص عبارته: "ملكها من قریش، من ولد هبار بن الأسود، وقد تغلب عليها أجداده، وساسوهم سياسة أوجبت رغبة الرعية فيهم، وإيثارهم على من سواهم، غير أن الخطبة لبني العباس" ص ٣٢٠.

(١) المسعودي - مروج الذهب - الجزء الأول - ص ٣٧٧.

(٢) إن الدكتور Bird، الذى أشار إليه البيت، فى الجزء الأول - ص ٤٨٨، قد أساء فهم هذه الفقرة، حيث اعتقد أنها "إن أولاد سيدنا حمزة (سيد الشهداء)، قد نزحوا إلى هذه البلاد، واستوطنوها"، ويبدو أنه قد تشابه عليه اسم حمزة، فليس حمزة هذا هو سيدنا حمزة، عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإنما زعيم عربى آخر، يحمل نفس الاسم، ولم يذكر أولاده، كما أن سيدنا حمزة لم يكن لديه أولاد ذكور، وبالتالي لم تنتشر ذريته.

وحين أتى المقدسي، عام ٣٧٥هـ، كانت هذه الأسرة ما زالت حاكمة، وإن امتد أثر الديالمة الشيعية - التي كانت تحكم فارس - إلى السند أيضاً، عن طريق بلوچستان. ومع ذلك، ظل اسم خليفة بغداد باقياً أيضاً، ويدعى له في المساجد.

ويقول البشاري: "وأما المنصورة، فعليها سلطان من قریش، ويخطبون للعباسي، وكانوا قد خطبوا على عضد الدولة، ورأيت رسولهم قد وافى إلى ابنه، ونحن بشيراز".

تعداد المنصورة ومساحتها

ذكر ابن حوقل أن طول المنصورة وعرضها يبلغ ميلاً واحداً، وهي محاطة بالماء من جميع الجهات، وسكانها من المسلمين. ويقول البشاري المقدسي: "المنصورة هي قصبة السند، ومصر الإقليم، تكون مثل دمشق، بناؤهم خشب وطين، والجامع من حجر وأجر، كبير مثل جامع عمان، على سوارى ساج، لها أربعة أبواب: باب البحر، وباب طوران، وباب سندان، وباب الملتان، ولهم نهر يحوط البلد، والجامع وسط الأسواق"^(١).

المنصورة ومساحتها الخضراء

كانت مساحة هذه الإمارة العربية تشمل العديد من مدن السند، يقول البشاري: "المنصورة هي قصبة السند، ومن مدنها: (الديبل)، و(الزندريج)، و(كدار)، و(مايا بتلى). كما عد الإصطخرى بعض المدن الأخرى، مثل: (باييه)، و(سدوسان)، و(الور)، و(سوباره)، و(صيمور).

ويذكر المسعودي أن عدد القرى والمدن، التي تضمها ولاية المنصورة، يبلغ ثلاثمائة ألف، ومن ثم، يمكن القول إن المنصورة كانت ولاية كبيرة نسبياً. ثم

(١) البشاري - أحسن التقاسيم - ص ٤٧٩.

يضيف: "تنتشر في أرجائها الحقول والأشجار والمدن"^(١). ومن ذلك كله، يمكن تقدير مدى مساحتها الخضراء، وعدد سكانها.

قوة الملك الحربية

كانت هناك حروب متعاقبة بين أهل المنصورة، وقبائل (الميد)، (إحدى القبائل السندية)، يقول المسعودي: "ولملك المنصورة فيلة حربية، وهي ثمانون فيلاً، رسم كل فيل أن يكون حوله ما ذكرنا، خمسمائة راجل، وأنه يحارب ألوفاً من الخيل، على ما ذكرنا، ورأيت له فيلين عظيمين، كانا موصوفين عند ملوك السند والهند؛ لما كانا عليه من البأس والنجدة والإقدام على كل الجيوش، وكان اسم أحدهما "منقرقلس"، والآخر "حيدره" (ج ١ ص ٦٨) (٢).

وبما أن المسعودي قد أخبرنا عن قوة المنصورة العسكرية كاملة. وإذا كان كل فيل يلزمه خمسمائة مقاتل، فإن عدد الجيش الذي يلزم الفيلة، يصل إلى أربعين ألف جندي.

الحالة العلمية والدينية في المنصورة

خير من وصف هذا الأمر هو البشاري، في رحلته؛ حيث كتب يقول: "أهل لباقه، ولهم مروة، وللإسلام عندهم طراوة، والعلم وأهله كثير... ولهم ذكاء، وفطنة، ومعروف، وصدقة"^(٣).

"أما أهل الذمة (وهم غير المسلمين)، فيعبدون الأصنام، وليس بين المسلمين مبشرون، فأكثرهم من أهل الحديث، وقد رأيت القاضي أبا محمد المنصوري، الذي كان داودياً، وإماماً في مذهبه، له حلقة للدرس، وله مؤلفات يمتاز أكثرها بالجودة

(١) المسعودي - مروج الذهب - الجزء الأول - ص ٣٧٨.

(٢) المصدر السابق - ص ٣٧٨.

(٣) أحسن التقاسيم - ص ٤٧٩.

والإتقان. ونجد فقهاء المذهب الحنفى فى المدن الكبرى، ولا نجد مالكية أو حنابلة أو معتزلة؛ إذ إنهم جميعًا على طريقة مستقيمة، ومذاهب محمودة، وصلاح وعفة". أما وجود أهل الحديث، إبان تلك الفترة، فيثير الدهشة والحيرة، كما أن المقصود بالفرقة الداودية، أتباع داود الظاهري، لا فرقة البهرة الداودية؛ إذ الأولى من أهل الحديث.

اللغة

يقول المسعودي: "ولغة السند، خلاف لغة الهند" ج ١ ص ١٦٥. ويصف البشارى (ديبل)، ميناء المنصورة، فيقول: "المدينة كلهم تجار، كلامهم سندی وعربى" (١).

ومن هنا، ندرك ما كان للغة العربية من أثر فى اللغة هنا؛ حيث تروج الألفاظ العربية فى اللغة السندية، مثلما تروج فى اللغة الأردية، ويتجلى أعظم الأثر فى خط اللغة السندية، الذى لا يزال هو الخط العربى نفسه (النسخ).

سقوط المنصورة

كيف تم انهيار الحكومة العربية فى المنصورة؟ لا توجد إشارة واضحة صريحة فى هذا الصدد. ومن المؤكد أنها قد استمرت حتى عهد البشارى؛ أى عام ٣٧٥هـ، ثم بعده بخمسة عشر عامًا، توالى هجمات محمود الغزنوي. وفى عام ٤١٦هـ، عندما شن محمود حملته المشهورة على (سومنا)، قد سلك طريق السند فى طريق عودته من هناك؛ أى من الكجرات إلى السند، ومنها إلى الملتان، على ضفاف نهر السند، ثم إلى غزنة.

(١) البشارى - أحسن التقاسيم - ص ٤٧٩. ومروج الذهب - الجزء الأول - ص ٢٨١.

وقد ذكر المؤرخون أنه مر من المنصورة في طريقه هذا^(١)، بيد أن ابن الأثير، في كتابه (الكامل في التاريخ)، قد ذكر هذه الفقرة الكاملة، ضمن أحداث ذلك العام^(٢): "ثم صار إلى برهمناباد (المنصورة) العتيقة، وهي على فرسخين من المنصورة، ولم تكن المنصورة يومئذ، كان موضعها غيضة، وكان المنهزمون من الكفار بها، فقاتلوه، ففتحها محمد عنوة، وقتل بها بشراً كثيراً، وخربت" (ج، ص ٥٣٨)، ومن هنا، عاد السلطان إلى غزنة، مروراً (ببهاثيه) "٣".

والسؤال هنا: ما معنى ارتداده عن الإسلام؟ إن لم يكن قد تم التشهير بوالى المنصورة؛ لدعم هذا الهجوم عند المسلمين. إنه طبقاً لأجواء حصار هذه الفترة يكون معناه: أن ملك المنصورة قد اعتنق مذهب القرامطة، مثل نظيره في الملتان، إذ إن شهادة البشارى المقدسى، قبل هذا الهجوم بواحد وأربعين عاماً، تؤكد أن أهل المنصورة كانوا من أهل السنة، بل تؤكد كل الدلائل أنهم أيضاً من أهل الحديث.

على أية حال، يتضح من ذلك أن الحكومة الهبارية، في المنصورة، قد انتهت، بقضاء السلطان محمود عليها، عام ٤١٦هـ. وقد ورد ذكر قبيلة هبار بن أسد في كتاب المحقق المشهور ابن خلدون، كالتالي: "إنه كان (عمر بن عبد العزيز) من نسل هبار بن الأسد، وقد استولى على السند بعد مقتل الخليفة المتوكل، وتوارث أولاده حكم السند من بعده، حتى سقطت دولتهم، على يد السلطان محمود الغزنوى، وقد كانت عاصمتهم المنصورة"^(٤).

(١) الكريزى - زين الأخبار - ص ٨٧ - برلين.

(٢) ابن الأثير - الكامل - الجزء ٩ - ص ٢٤٣ - لندن.

(٣) قد كتب اليت أنه نقل عن ابن الأثير، أن السلطان محمود قد توج أحد المسلمين ملكاً على "المنصورة"، المجلد الأول، ولكن هذه الفقرة لم يذكرها ابن الأثير، وإنما ذكر ما نقلناه فقط، وربما أنه وقع في هذا الخطأ؛ لاعتماده على إحدى الترجمات الأوربية.

(٤) تاريخ ابن خلدون - الجزء الثانى - ص ٣٢٧ - مصر.

هل كان أهل المنصورة أيضاً من القرامطة الإسماعيليين؟

إن ما أدلى به البشاري - الذي كان بدوره عالماً وفقهياً - في السطور السابقة من شهادة، يفيد أن أهل المنصورة كانوا يتبعون المذهب السني (٣٧٥هـ). وإذا وضعنا هذا نصب أعيننا، سيكون من الصعب علينا الاقتناع أنهم قرامطة، في عام ٤١٦هـ. كما تبين، مما نقلناه عن ابن خلدون: أن السلطان محمود قد انتزع إمارة السند من الأمير الهباري، وكما اتضح، من أقوال ابن الأثير، أن الأمير الذي انتزع منه السلطان محمود الإمارة، كان مرتدًا، الأمر الذي يحتمل معنى آخر، وهو أنه قد صار قرمطيًا إسماعيليًا.

مثلما ذكرنا، فإن شهرة أهل المنصورة على أنهم من القرامطة الإسماعيليين، لم تكن هي المبرر لهجوم السلطان على ولاية المنصورة المسلمة. ونفهم من أقوال ابن الأثير، أن القرامطة قد أسقطوا أسرة الهباري السنية، بعد عام ٣٧٥هـ؛ أو أنهم قد أقاموا دولتهم في السند، بعد ضياع الملتان من أيديهم، وهي التي أسقطها السلطان محمود، عام ٤١٦هـ.

رسالة الدروز

إن ما ذكرناه من اقتباس لرسالة الدروز سابقًا، على جانب كبير من الأهمية في هذه القضية؛ حيث جاء فيه: إن صاحب الرسالة إمام الدروز الإسماعيلي، بالشام، والذي يقول: للموحدين بالملتان، والهند عامة، والشيخ بن سومر (راجا بل) خاصة. وقد ورد في هذه الرسالة: أن الوريث الشرعي لابن (سومر ملك بل) هما: (بهوتروا) و(هؤدل هيل)، كما ذكر أسماء العديد من أفراد هذه الأسرة الآخرين، منهم العربي، ومنهم الهندي، كما ورد فيه ما يثير حميته: "المبجل (راجا بل)، عليك بإيقاظ أسرتك، وعليك إرجاع الموحدين، وداود الأصغر إلى الدين الصحيح، وهو (أي داود الأصغر) من أطلق سراحه السلطان مسعود الآن، فأنت الوحيد الذي

تستطيع أن تقوم بهذه المهمة، وأن ترجعه هو، وابن أخته، عبد الله، وكل أهل الملتان، حتى يتميز أهل التوحيد والتقديس^(١)، عن أهل الجهالة والتمرد^(٢).

ونستخلص من هذه الرسالة، النقاط المهمة التالية

١. إن (سومر) كان من أهل السند، ثم صار، فيما بعد، مؤسس الأسرة السومرية، وكان إسماعيلياً.

٢. إن أسماءهم خليط من العربية والهندية؛ مما يشير إلى أن هذه الأسرة مزيج من العرب والهنود.

٣. إن ملوك الملتان - كأبي الفتح داود، وغيره، وكذلك أسرة السومري في السند - من أتباع مذهب واحد.

٤. إن (سومر)، في الغالب، كان (شيخاً)، وإمام الإسماعيليين في السند؛ إذ إن الإسماعيليين يطلقون لقب (الشيخ) على زعيمهم الديني.

٥. يبدو أنه كان لأبي الفتح داود، ابن يشتهر باسم داود الأصغر، جعله السلطان مسعود يتوب عن المذهب الإسماعيلي، كما أنه أطلق سراحه بعد توبته هذه.

٦. إن عبد الله كان حفيداً لأبي الفتح داود الأكبر، وابن أخت داود الأصغر، وهو الذي سعى أهل الملتان كي يجعلوه أميراً عليهم.

٧. كان هدف هذه الرسالة؛ حض (سومر راجا بل) على استثارة حمية قبيلته، ومحاربة السلطان مسعود، وأهل الملتان، حتى تسترد الإسماعيلية قوتها

(١) ينفي الإسماعيليون الصفات عن الله، ويعتبرون أن الإيمان بصفات الله، مثلما يؤمن أهل السنة، نوع من الشرك. وبناء على ذلك، يعدون هذا هو التوحيد والتقديس، وكانت هذه هي عقيدة المعتزلة، لهذا كانوا يطلقون على أنفسهم، أهل العدل و التوحيد.

(٢) البيت - الجزء الأول - ص ٤٩١.

الزائلة، فيعودوا إلى حوزته. وهكذا، كان ثم محاولات عديدة تتم بالملتان، غير أنها جميعًا باءت بالفشل.

٨. وأخيرًا، أوضحت لنا الرسالة مدى ما كانت تتسم به شخصية (سومر) من القوة، والبطش، والأنفة. هذا وإن كان أحد أبناء (سومر) معاصرًا للسلطان مسعود، فيعنى أن (سومر) نفسه، كان معاصرًا للسلطان محمود، المتوفى ٤٢١هـ.

٩. هذه هي الأسرة (السومرية)، التي استولت على السند - بعد هذا الخطاب بعشرين عامًا - بدلاً من الغزنويين، أثناء اضمحلال دولة السلطان عبدالرشيد بن محمود الغزنوي (المتوفى ٤٤٤هـ).

أثر خالد من الأسرة الهبارية

على الرغم من أن الأثر الظاهر للسلطان الهباري، قد خفت ضوؤه إلى الأبد. فإن أثره الروحي ظل خالدًا؛ حيث استوطنت أسرته الملتان، بعد رحيلها من السند، تحت رعاية الغزنويين. وقد ولد شيخ الإسلام زكريا الملتاني، عام ٥٢٨هـ، وتوفى عام ٦٦٦هـ، على حد قول فرشته، وعام ٦٦١هـ، طبقًا (لأخبار الأخبار). وقد لقبه الشيخ عبد الحق الدهلوي، بالأسدي^(١).

وقد علمنا، أن مولانا يعود نسبه إلى قبيلة "هبار"؛ وقد تتبع نسبه الشيخ عين الدين البيجاوري، فوجده يصل إلى هبار بن أسود بن مطلب بن أسد^(٢).

وقد نقل بيرزاده محمد حسين، في الجزء الثاني، ص ٨، من ترجمته الأردنية لرحلة ابن بطوطة، اقتباسًا عربيًا من كتاب (خلاصة العارفين)، أحد ذخائر

(١) أخبار الأخبار - ص ٢٦ - مطابع هاشمي - مبرته - الهند.

(٢) فرشته - الجزء الثاني - ص ٤٠٤ - نولكشور.

الكتب القديمة، التي كانت في حوزة أسرة الشيخ الحالية، والتي بدورها منقولة من مقولات جلال البخاري. وشجرة النسب الواردة فيه تؤكد ما ذكرناه.

وهكذا، فإننا أمام تاريخين لقدم أسرة شيخ الإسلام إلى الهند؛ أولهما: القرن الأول الهجري، مع قدوم الفاتحين العرب، كما ورد عند ابن بطوطة. وثانيهما: نزوحها من البلاد العربية، في القرن الخامس الهجري. ويبدو هذان التاريخان متفقين؛ حيث يتزامن قدومهم إلى السند، مع التاريخ الأول؛ أي القرن الأول الهجري، كما يتطابق استيطانهم للملتان، تحت رعاية الغزنويين، بعد سقوط المنصورة، مع التاريخ الثاني، أي القرن الخامس الهجري.

بيد أن مرورهم بخوارزم، عند مجيئهم إلى هنا؛ طبقاً لتاريخ فرشته، يفتقر إلى الصواب. ولكن ما يفوقه أهمية، هو ما أورده مؤلف (تاريخ طاهري)، حيث وضع قائلاً: "إن الشيخ بهاء الدين كان من أهالي السند، وإن أهالي (سمه) استوطنوا منطقة (سكور)، الموجودة حالياً في (سكهر)، بعد انهيار محمد تور الأول، الذي كان قد عمرها. فقد كانوا إذن من سكان هذه المنطقة".^(١)

السند في قبضة الغزنويين والغوريين وسلاطين دهلي

إن بقاء السند تحت سيادة الغزنويين حتى عام ٤٤٤هـ؛ ليؤكد أن خراجها كان يأتي إلى غزنة حتى السلطان عبد الرشيد الغزنوي، عام ٤٤٤هـ. ثم عمت الفوضى الدولة الغزنوية بعده، ومع ذلك، ظلوا حكاماً على مناطق البنجاب والسند حتى عام ٥٢٨هـ، اسماً وقولاً، لا فعلاً.

وما إن حل عام ٥٧٨هـ، حتى حل الغوريون محل الغزنويين، فاستولى ناصر الدين قباجه، أحد قادة شهاب الدين، على السند، كما تولى آلتمش مقاليد السلطة في دهلي. وفي النهاية، هزم آلتمش قباجه، وأجلاه عن السند.

(١) اليت - تاريخ طاهري - ص ٢٥٦.

ومن ذلك الوقت، ظلت السند مرتبطة بدهلي، اسمًا وقولاً، ولكنها كانت مستقلة فعلاً . وفي عهد محمد شاه تغلق، عام ٧٥٢هـ، تناقلت السيادة في السند بين الأسرات الحاكمة المحلية، ثم استولى عليها السلطان فيروز شاه، في عام ٧٦٢هـ، عن طريق تسوية بينه وبين الحكام المحليين، ثم أسندها إليهم، وظلت في أيديهم حتى عام ٩٢٧هـ؛ أي أن اغتصبها الأمير التتاري أرغون، ومع نهاية عام ١٠٠٠هـ، أصبحت من الإمارات التابعة للسلطان أكبر المغولي.

السومري

ليس لنا علاقة بكل التواريخ المذكورة أعلاه، ما علينا سوى البحث عن أصل قبيلتين مستقلتين، في كل ما تناولناه من تواريخ. إحداهما قبيلة (سومري)، والأخرى (سما). فإن القبيلة التي استولت على السند، في فترة ضعف الدولة الغزنوية، كان يطلق عليها (سومري)؛ أما القبيلة الثانية فهي (سما)، وقد استولت على الحكم، عام ٧٥٢هـ، في عهد محمد شاه تغلق، وظلت تحكمها حتى عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م.

وهناك اختلاف شديد بين المؤرخين حول أصل هاتين القبيلتين، خصوصًا هوية قبيلة (السامرة)، وعقيدتها، اللتين تفتقران إلى المزيد من البحث.

أما الرسالة الدرزية، التي سبق الإشارة إليها؛ فيتضح منها: أن الشيخ "بن سومر راجا بل" كان موجودًا في عام ٤٢٢هـ (أي في عصر السلطان مسعود)، وأنه كان إسماعيليًا، وأن أئمة الدروز حضوه على استعاده حكومة الإسماعيليين، في كل من السند والملتان. فلا عجب إذن إن أقام السومريون دولتهم في السند، عقب ضعف الغزنويين، في عصر السلطان عبد الرشيد (٤٤٤هـ).

وعلى أية حال، فقد ظلت دولتهم هذه من عام ٤٤٤هـ إلى ما بعد عام ٧٣٤هـ بعدة سنوات. ومن ثم، تعد شهادة ابن بطوطة أهم ما ورد في هذا الشأن،

حيث إنه أتى إلى الهند في هذا العام، عن طريق السند، عندما كان السومريون تابعين لحكام دهلي، وقد شاهدتهم ابن بطوطة، ووصفهم قائلاً:

"وسرنا من نهر السند يومين، ووصلنا إلى مدينة جناني^(١)، مدينة كبيرة على ساحل نهر السند، لها أسواق مليحة، وسكانها طائفة يقال لهم السامرة، استوطنوها قديماً، واستقر بها أسلافهم، حين فتحت على أيام الحجاج بن يوسف، حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند... وهؤلاء الطائفة، المعروفون بالسامرة، لا يأكلون مع أحد، ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاهرون أحداً من غيرهم، ولا يصاهر إليهم أحد، وكان لهم في هذا العهد أمير، يسمى "ونار"، وسنذكر خبره" (ص ٣٩١).

ثم يقول في موضع آخر، أثناء حديثه عن (سيوستان) (سيهوان)، وهي الآن في مدينة كراچي، بباكستان.

"كان يسكن بهذه المدينة الأمير "ونار السامري"، الذي تقدم ذكره، والأمير قيصر الرومي، وهما في خدمة السلطان، ومعهما ألف وثمانمائة فارس، وكان يسكن بها كافر من الهنود، اسمه "رتن"، وهو من الحذاق بالحساب والكتابة، فوفد على ملك الهند، مع بعض الأمراء، فاستحسنه السلطان، وسماه عظيم السند، وولاه بتلك البلاد، وأقطعته سيوستان وأعمالها، وأعطاه المراتب، وهي الأبطال والعلامات، كما يعطى كبار الأمراء."

"فلما وصل إلى تلك البلاد، عظم على "ونار" و"قيصر"، وغيرهما، تقديم الكافر عليهم، فأجمعوا على قتله... وقدموا على أنفسهم "ونار" المذكور، وسموه ملك فيروز... وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم، قيصر الرومي. واتصل خبرهم بـ "عماد الملك سرتيز"، مملوك السلطان... فجمع العساكر، وتجهز في البر، وفي نهر السند... وخرج إليه قيصر، فوقع اللقاء، وانهزم قيصر، ومن معه أشنع هزيمة... ونزلت بتلك المدينة، إثر هذه الواقعة، بمدرسة فيها كبيرة، وكنت

(١) لا أثر لهذه المدينة، ويبدو أن النهر قد جرفها، حتى أن أبا الفضل لم يذكرها.

أنام على سطحها، فإذا استيقظت من الليل، أرى تلك الجلود المصلوبة، فتشمئز النفس منها، ولم تطب نفسى بالسكنى بالمدرسة، فانتقلت عنها^(١) (ص ٣٩٩).

ويتضح من هذين الاقتباسين عدة أمور:

١- كان السامرة يربطون بين استيطان أسلافهم، وقدوم الحجاج بن يوسف الثقفي.

٢- لم يكونوا هنادكة، وما كانوا يميلون إلى التبعية لهم، غير أنهم يتسمون ببعض الخصال التي تبعدهم عن عامة الناس.

٣- كانت السند تتبع سلطان دهلي، إبان تلك الفترة. وكان يقيم مع السامرة مندوباً من قبل سلطان دهلي.

٤- كان نظام الحكم في السند تابعاً للملتان أولاً، ثم دهلي أخيراً.

عقيدة السامرة

ثبت من رسالة الدروز أن (السامرة) كانوا يدينون بالمذهب الإسماعيلي، ولكن ما أورده ابن بطوطة؛ يعد إضافة مهمة، وهو أن السومريين قد جاءوا مع الفاتحين العرب، واستوطنوا هذه البلاد. ومن المؤكد أنهم ليسوا (راجبوت)؛ غير أن لهم بعض الطقوس، والشعائر الخاصة، يختلفون بها عن المسلمين، في أمور الزواج والشراب والطعام. وفي الوقت نفسه، لا يعدون أنفسهم هنادكة أو كفاراً، بل موحدين مسلمين. واختاروا لأنفسهم ألقاباً إسلامية، كملك فيروز، ويعدون طاعة الكافر مهانة. لذا فهم ليسوا هنادكة ألبة، وكانت عقيدتهم مزيجاً من مبادئ القرامطة والإسماعيليين، مع بعض الشعائر الإسلامية، والعادات والعقائد المحلية الأخرى. ومن هذا، أنهم جعلوا الإمام على - كرم الله وجهه - تجسيداً للإله

(١) رحلة ابن بطوطة - الجزء الثاني - ص ٤ - ٦ - مصر.

(فشنو)^(١). بهذه الطريقة، كانوا يمزجون مثل هذا النوع من العقائد؛ مما يسر لهم نشر عقائدهم، في كل البلدان.

وتؤكد كتب التاريخ على توافد الدعاة، من قلعة (الموت) الإسماعيلية، إلى السند، في العصور السابقة^(٢). وكان من مبادئهم إخفاء العقائد، كما كانوا يحبذون الأسماء الهندوكية، مثلما نرى اليوم بين طائفة (الخوجه)، في بمباي. وهناك واقعة عجيبة بشأن ذلك، وردت ضمن سيرة جلال الدين البخاري (عام ٧٠٧هـ / ٨٠٠هـ)، مريد وخادم شيخ الإسلام، زكريا الملتاني، الذي سنتحدث عنه فيما بعد. فذات مرة، قدم (سومر)، والي السند، في خدمة الشيخ، وكان الدراويش والمريدون يتزاحمون حوله، فطرد (سومره) أحدهم من المسجد، دون إذن من الشيخ، فتقوه الشيخ في هذه اللحظة بهذه الجملة: "سومره، ولكن مجنون"، فجن الرجل في الحال، وضجت المدينة بمن فيها. وأخيراً، جاءت والدته، وتضرعت للشيخ، فعفا عنه، وعندما عاد إلى رثده، جاء إلى المسجد، وقبل أقدام الشيخ، وصار من مريديه^(٣). أيفهم من هذه الواقعة، أنه رجع عن الإسماعيلية، وصار سنياً؟

لقد سقطت الدولة الإسماعيلية في مصر، على يد السلطان صلاح الدين، عام ٥٦٧هـ. ومن بعدها، استمرت سلطنة قلعة (الموت)، تحت زعامة حسن بن الصباح؛ حيث بدأت عام ٤٨٣هـ / ١٠٩١م، وانتهت على يد هولاكو، عام ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م. والظاهر أن انهيار المركز الرئيسي للإسماعيلية، في مصر، كان له عظيم الأثر على جماعة الإسماعيليين في السند. ولهذا، فليس من المستبعد أن يكون (السومريون)، أو بعضهم، قد اعتنقوا المذهب السني، على يد السيد جلال البخاري.

(١) الإله فشنو: هو أحد ثلاث الآلهة الهندوكية، وهو الحافظ.

(٢) د. أرند - الدعوة في الإسلام - ص ٢٩٣.

(٣) فرشته - المجلد الثاني - ص ٤١٦ - نولكشور.

أصل السومره

إن تفسير هوية (السومره)، وما يكتنفها من غموض، يتطلب منا تتبعًا ملخيًا لما طرحه أهم مؤرخينا القدامى، في هذا الصدد. وقد اطلعنا على ما ذكره ابن بطوطة، من أن أسلافهم قد توافدوا على السند، واستوطنوها، إبان الفتح في عهد الحجاج بن يوسف. ثم يطالعنا مير محمد معصوم، مؤلف (تاريخ معصومي)؛ بما أورده، في الباب الثاني من كتابه: "لقد فتح السلطان محمود السند والملتان، ولكن حينما تولى السلطان عبد الرشيد، عام (٤٤١هـ - ٤٤٤هـ)، انصرف إلى اللهو والمجون، ورفع عن كاهله عبء الدولة الغزنوية؛ فضعفت الدولة على إثر كل هذا؛ فما كان من (السومره) إلا أن اجتمعوا في منطقة (نهرى)، ونصبوا شخصًا منهم على العرش، يدعى (سومره).

وكان في أطراف مدينتهم أحد الإقطاعيين الكبار، ويدعى سعدًا، فوطد (سومره) علاقته به؛ فتزوج ابنته، وأنجبت له ولدًا سماه (بهونكر)، وهو الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه" (١).

وبعد ذلك، يسرد لنا مير معصوم أحوال أحفاده، فمنهم من كان يحمل اسما عربيًا، مثل: (خفيف، عمر)، ومنهم من كان اسمه هنديًا، مثل: (دودا). ويعمد مؤلف تاريخ طاهرى غالبًا، إلى سرد القصص والحكايات، والتي يبدوها بقصة عشق (عمر سومره) امرأة هندوكية، فيقول في هذا الشأن: "كانت هذه الأسرة هندوكية، متمسكة بهندوكيتها. وكانت إمارتهم بالقرب من (الور)، واستمر حكمهم بها، من عام ٧٠٠هـ وحتى عام ٨٤٣هـ، و(محمد توران) كانت عاصمة لهم" (٢).

ولم يرد في (بيك لارنامه) سوى أنه بعد الفتح الإسلامى للسند، تولت الحكم قبيلة (تميم) العربية، وبعدها بفترة وجيزة، تولت أسرة (سومره)، التى استمر

(١) البيت - تاريخ معصومي - الجزء الأول - ص ٢١٥.

(٢) البيت - تاريخ طاهرى - الجزء الأول - ص ٤٨٤.

حكمها خمسة قرون، وكانت عاصمتهم هي (مهاتم تور). ومن العجيب، أن أسماء الأعلام والبلدان عندهم مزيج من العربية والهندية، فنرى أحياناً (محمد تور)، وأحياناً (مهاتم تور)، ويبدو أن مهاتم هي تصحيف لكلمة (محمد)، وقد كانت في منطقة (ديرك-)، وهو نفس المكان الذي توجد عليه الآن منطقة (جاج كم) و(بادين)، التي بين (دنكا بازار) و(باركر).

أما مؤلف تحفة الكرام. فقد اقتبس من منتخب التواريخ (الذي ليس للبدايوني)، بل لمحمد يوسف، هذه العبارة: "عندما تولى السلطان عبد الرشيد، بن السلطان محمود الغزنوي، الحكم، استضعفه أهل السند، وفي عام ٤٤٥هـ/١٠٥٣م، اجتمعت قبيلة (سومره) بتهري، وتوجت شخصاً يدعى (سومره)، وكان له ولد اسمه (بهنكو)؛ كان قد أنجبه من ابنة أحد الإقطاعيين، ويدعى سعداً، فتولى (بهنكو) الحكم، زهاء خمس سنوات، إلى أن توفي عام ٤٦١هـ^(١). (باختصار)

ثم يذكر صاحب تحفة الكرام في موضع آخر: "إن أهل السومره هم من عرب سامراء، الذين نزحوا إلى السند مع قبيلة تميم، في القرن الثاني الهجري، وصاروا ولاية عليها في عهد العباسيين".

ثم يضيف: "كان (دلورائ-) ملكاً في السند، فطغى عليه أخوه الأصغر (امرائي)، فلجأ الأخير إلى خليفة بغداد، فأرسل الخليفة معه مائة من عرب السادات وسامراء، واتخذت أسرة الساداتية السند موطناً لها، وزوج (دلورائ-) ابنته من أحد رجالهم"^(٢).

ونكر مؤلف تاريخ طاهري سبب الخلاف الذي وقع بين (دلورائ-)، وأخيه الأصغر (امرائي)، فقال: "إن الصغير كان ينزع إلى الإسلام منذ طفولته، فقد قرأ القرآن الكريم، واعتنق الإسلام خفية، ثم ذهب لأداء فريضة الحج سرّاً؛ وفي

(١) البيت - تحفة الكرام - الجزء الأول - ص ٣٤٤.

(٢) البيت - تحفة الكرام - الجزء الأول - ص ٣٤٣.

ظروف غريبة، تزوج بفتاة تدعى فاطمة، وهو فى الطريق، وعندما رجع من الحج، وافته المنية، حين وصل إلى منطقة (سيوستان) بالسند، ودفن بها، ومازال ضريحه قبله أنظار الناس^(١).

كانوا خليطاً من العرب والهنود

إن كل ما ذكرناه من اقتباسات، يؤكد لنا أن هؤلاء القباجه كانوا هجناء من العرب والهنود؛ فمن ذكر أنهم عرب، يقصد جانباً واحداً، ومن قال إنهم هنادكة، فقد كان يقصد الجانب الآخر، ثم إن (سومر) هو مؤسس هذه الدولة، ولهذا أطلق عليهم اسم (سومره)، أو (سامرى)، وغير ذلك، وليس لهم علاقة بمدينة سامراء العراقية؛ إذ الاسم الحقيقى لمدينة سامراء، هو (سر من رأى)، فصارت (سامراء) على السنة العامة، وقد بناها المعتصم بالله العباسي، عام ٢٢٧هـ.

لم يكونوا من الراجبوت الخلص

ذكر المؤرخون الأوربيون أن هذه القبيلة من الراجبوتين، حديثى العهد بالإسلام. وهذا ما كتبه أيضاً محرر مادة "السند"، فى دائرة المعارف البريطانية^(٢). كما حاول السيد اليت إثبات ذلك، ولم يأت أحد بسند علمى أو دليل. ويتضح من إجماع المؤرخين الفرس، أنهم لم يكونوا هنوداً خلصاً، فكيف يكونون من الراجبوت الخلص؟

لم يكونوا يهوداً

ذكر مولانا عبد الحليم شرر - رحمة الله عليه - أمراً عجيباً، وهو أن هؤلاء كانوا من اليهود، حديثى العهد بالإسلام. ويبدو أن مولانا قد اشتبه عليه

(١) اليت - تاريخ طاهرى - ص ٢٥٨.

(٢) الطبعة الحادية عشرة - المجلد ٢٥ - ص ١٤٣.

الأمر؛ لسببين، أولهما: أنه كانت جماعة تدعى سامرى (سامره)، تنتمي إلى جبل (شمرون) بفلسطين، والسبب الثانى هو عبارة قد أوردها البشارى المقدسى عنهم، والتي أولها "مولانا" بشكل غريب تدعيماً لدعواه. والحق أن البشارى كان يستعرض الخصائص الأربعة الرئيسية، لكل فرقة وجماعة ذكرها فى مقدمته، فكتب يقول: "وأما الأديان، الذين هم ذمة، فأربعة: اليهود والنصارى والمجوس والصابئون، فاعترضه أحد بقوله: إن السامره أيضا هم أهل ذمة. وهكذا، تكون الأمم خمس لا أربع؛ فأجابه: وأما السامره، فإنهم صنف من اليهود، ألا نرى أن نبيهم موسى؟" هذا هو النص الأصيل للعبارة، وقد نقل محقق الكتاب، فى الحاشية، عبارة من نسخة أخرى لهذا الكتاب، أجيب عن هذا الاعتراض كالتالى: "إن عبدة الأوثان السندين يقيمون فى دولة إسلامية، ثم يكون أهل الذمة أكثر من أربعة". فأجاب بشارى قائلاً: "وأما عبدة الأصنام فليسوا بذمة، ألا ترى أنهم لا يؤدون الجزية؟^(١)، ومن ثم، فأهل الذمة هم أربعة".

ويبدو من ذلك، أن "مولانا" قد ربط بين ذكر "السامره"، فى العبارة أعلاه، والسند فى العبارة التالية لها، وأصدر فتواه، التى لا أساس لها من الصحة. وكتاب البشارى المقدسى متاح، لمن أراد أن يتحرى حقيقة هذا الأمر:

ملوك السومره:

ورد فى "تحفة الكرام" أسماء ملوك السومره. ومدة حكمهم، كالتالى:

مسلسل	اسم الملك	مدة حكمه
١	سومره	فترة طويلة
٢	بهونكر بن سومر الأول	١٥ عامًا (توفى عام ٤٦١هـ)
٣	دودا الأول بن بهونكر	٢٤ عامًا (توفى عام ٤٨٥هـ)

(١) البشارى المقدسى - أحسن التقاسيم - ص ٤٢.

٤	سنگهر	١٥ عامًا
٥	حفيف أو خفيف	٣٣ عامًا
٦	عمر ^(١)	٤٠ عامًا
٧	دودا الثاني	١٤ عامًا
٨	باتهو	٣٣ عامًا
٩	كنهرا الأول	١٦ عامًا
١٠	محمد تور (؟)	١٥ عامًا
١١	كنهرا الثاني	عدة سنوات
١٢	دودا الثالث	١٤ عامًا
١٣	تائي	١٥ عامًا
١٤	جينسر	١٨ عامًا
١٥	بهونكر الثالث	١٥ عامًا
١٦	حفيف أو خفيف الثاني	١٨ عامًا
١٧	دودا الرابع	٢٥ عامًا
١٨	عمر سومرا	٣٥ عامًا
١٩	بهونكر الثالث	١٠ أعوام
٢٠	همير (مير)	الملك الأخير
جملة فترة حكم ملوك السومره		٣٦١ عاما

لم يرد هنا عدد السنوات المبهمة التي تولاها الملك الحادى عشر، ولا تلك الفترة التي تولاها الملك الأخير، ولو أضفنا هذه السنوات، لوجدنا أن مدة الحكم ٣٧٥ عامًا. وإذا كانت بداية حكمهم عقب نهاية السلطان عبد الرشيد مباشرة، أى

(١) من العجيب أن يكون "عمر" من الشيعة، أو ربما كان أصل اسمه "انر"، كما ورد فى "سراج عفيف"، ونطقه الآخر هو "اونار" أو "ونار" أو "انار"، كما ورد فى ابن بطوطة، وكتب التاريخ الفارسية.

عام ٤٤٤هـ، وسقوط دولتهم كان في عصر محمد شاه تغلق، أى عام ٧٥٢هـ؛ فإن الفرق ٦٧ عامًا، وهى مدة تبدو كبيرة بالنسبة للمدة التى حكمتها هذه الأسرة.

نهاية السومره

فى عهد محمد شاه تغلق، بدأت النزاعات بين السومريين وسلطان دهلي، ففى نهاية عصر محمد شاه تغلق، تمرد أحد المغول، ويدعى "طغى"، فى الكجرات، وفور وصول تغلق إلى الكجرات، لاذ "طغى" بالفرار، ولجأ إلى السومريين فى "تهته" (السند)، فتعقبه الملك حتى "تهته"، مواجهًا جبهة متحدة من المغول والسامره. وفجأة، تدهورت صحة الملك، وتوفى هناك، فواجه الجيش صعوبات جمة على يد المغول والسومره، بعد وفاة مليكه. وأخيرًا، توجوا فيروز شاه تغلق ملكًا عليهم؛ ليتخلصوا من هذا المأزق الحرج، فعاد الجيش إلى دهلي، وكان هذا عام ٧٥٢هـ^(١).

ولكن عندما عاد فيروز شاه، بعد عدة سنوات، عام ٧٦٢هـ، وجد حكومة الجام، وكان الحاكم "جام انز"، وابن أخيه "باتهينه"؛ وجام هذا لقب خاص بملوك "سمه". ومن ثم، يتضح لنا أن تلك الفترة قد شهدت سقوط السومريين، وقيام دولة السموين. وقد ورد فى "تحفة الكرام" أن قيام الدولة السموية كان عام ٧٥٢هـ، ويتضح منه أن هذا الانقلاب قد وقع فور انتهاء حملة محمد شاه تغلق، وعلى حد قول فرشته، فقد كان للمسلمين اليد العليا فى هذا الانقلاب.

ويبدو أنه بعد ثورة السومريين الإسماعيليين، أو أشباه الهنادكة، رأى عامة المسلمين أنه من الواجب عليهم أن يبعدوا هؤلاء السامره، على يد جماعة محلية حديثة بالإسلام. ومن ثم، أتاحوا لرئيس قبيلة (سمه)، ويدعى (اونر)، قتل آخر

(١) ضياء برنى - فيروز شاهى - ص ٥٢٣ - ٥٢٥، كلكتا.

الملوك السومريين، الملقب (بهمبر) (امير)، وتصحيفه (ارمائيل)، وأتاحوا له إقامة دولته.

مزيّدًا من التحقيق

إن قائمة ملوك (السومره)، وتحديد فترة حكمهم، فى حاجة إلى مزيد من التحقيق والتدقيق، ويجب على مؤرخينا الهنود أن يبذلوا قصارى جهدهم فى هذا الموضوع، فمثلاً، عندما فر السلطان جلال الدين خوارزم شاه، قبل عام ٦٢٠هـ بعامين، من التتار، ثم وفد إلى السند، ووصل إلى (تهته)، قام شخص يدعى (حبسى)، أحد ملوك (السومره)، بوضع عتاده ومتاعه فى السفن، ولأذ بالفرار إلى إحدى الجزر^(١). ومع ذلك لا نجد اسم (حبسى) هذا فى القائمة. ولا يعتد بنسخة نولكشور. وقد يكون (حبسى) تصحيفاً (لجنيسر)، الذى ورد فى القائمة تحت رقم أربعة عشر.

وهكذا، كان هناك ملك يحمل اسم (اونار)، فى فترة مجيء ابن بطوطة إلى السند، عام ٧٣٤هـ، ولا نجده فى القائمة، ومن الممكن أن يكون هو (عمر)، الذى يقع فى التسلسل الثامن عشر.

"سمه"

هم الذين استولوا على السند، بعد قبيلة السومريين، وكانت عاصمتهم (تهته)، التى أطلق عليها العرب (ديبل). و(سمه) لفظ يكتبه مؤرخو الفرس بصيغة الجمع (سمكان)، وهكذا صنيع المؤلفين الإنجليز، حيث أضافوا حرف (S)، ليصير جمعها (SAMMAS)؛ مما جعل البعض ينقلها (سماس).

وقد كان أهل (سمه) يدينون بالإسلام، غير أن هناك خلافاً حول ما إذا كانوا مسلمين منذ النشأة، أم إنهم قد اعتنقوا الإسلام بعد ذلك. وكانت (تهته) مقرهم

(١) فرشته - الجزء الثانى - ص ٣١٦ - نولكشور.

الرئيسي، ولقبهم الرسمي (جام)، وأسماءهم خليط من العربية والهندية؛ فعلى سبيل المثال، كان اسم ملك (سمه) المعروف (جام نندا نظام الدين). وكانوا على قدر كبير من القوة والمنعة؛ لدرجة مكنتهم من مواجهة ملوك دهلي فترة طويلة. وقد حكموا السند منذ عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م، حتى عام ٩٢٧هـ؛ أي ما يناهز مائة وخمسة وسبعين سنة.

وثمة خلاف كبير بين المؤرخين أيضاً حول نسب هذه القبيلة؛ إذ أقر بعض مؤرخي السند أنهم من أصل عربي، ومن نسل أبي جهل. وقد أرجع مؤرخو الفرس - فرشته، وأبو الفضل في (آئين اكبرى) - نسبهم إلى الملك الإيراني (جمشيد)؛ بسبب لقبهم الرسمي (جام)، نظراً للتشابه بين (جم) و(جام).

بيد أن هذا لا أساس له من الصحة. وقد ذكر مؤرخو أوربا، مثل: اليت،^(١) ومحرروا دائرة المعارف البريطانية^(٢)، ودائرة المعارف الإسلامية^(٣)، ذكروا أنهم من الراجبوت، حديثي العهد بالإسلام، وما كلف أحدهم نفسه أن يقدم دليلاً على صحة كلامه؛ عدا الأخير (محرر دائرة المعارف الإسلامية)، وغاية ما أتى به من دليل أن (جام) هو لقب ملوك الراجبوت في منطقة (كجه- وتوانكر).

والحقيقة، إن بعض بيانات المؤرخين القدامى تدعم هذا الرأي، خاصة ما ورد في تاريخ معصومي: إن أهل (سمه) قد وفدوا من (كجه-) إلى السند^(٤).

ومما جاء في (جج نامه)، يتضح أن أهالي قبيلة (سمه) كانوا يستوطنون السند، قبل عهد محمد بن القاسم، عام (٩٦هـ). وهكذا، عندما وصل محمد بن

(١) تاريخ هند - الجزء الأول - ص ٤٩٧.

(٢) مادة السند - المجلد ٢٥ - ص ١٤٣، الطبعة الحادية عشر.

(٣) مادة "سمه" (Sammas)، الطبعة الإنجليزية.

(٤) اليت - تاريخ معصومي - ص ٢٢٣.

القاسم إلى معمورتهم، استقبلوه بالمزامير والأناشيد، وسعدوا به كثيرًا، ثم ولى عليهم محمد بن القاسم زعيمًا عربيًا، قيل إن اسمه (خريم) (؟)، ووالده (عمر) (١).

وجاء أيضًا في (تاريخ طاهري): "وهكذا خضعت تلك البلدة - التي تقع على ساحل البحر - لسيادة قبيلة (سمه)، التي مازالت أسرتها تستوطنها حتى الآن، وإليهم ينتسب ملوك (رائ- بهارا)، و(جام سهتا)، و(جهوت- وكجه)" (٢).

ولكن وقعت بين يدي فقرة وردت في تاريخ البلاذري، فحواها: "ثم ولى ثغر السند عمر بن حفص بن عثمان... ثم داود بن يزيد بن حاتم، وكان معه أبو الصمه المتغلب اليوم، وهو مولى لكنده" (٣).

أنفهم من هذا أنهم كانوا من نسل (الصمه) هذا، ثم أطلق عليهم فيما بعد لقب (سمه)؟ وأنهم قد استوطنوا (كجه)، ثم قدموا من هناك، عام ٧٥٢هـ، وانتزعوا السند من قبيلة (السومره)؟

ملوك سمه

حيث إن عصر السمويين كان متأخرًا؛ أي عندما كانت دولة قوية للمسلمين في دهلي؛ لهذا فإن أسماءهم وألقابهم، وفترة حكمهم، قد دوت بمزيد من الحيطه؛ وبناء على ما أورده فرشته، فإن تفصيل ملوكهم، كالتالي: "في عهد الملك محمد تغلق، وبدعم من المسلمين، انتقلت سيادة السند من قبضة السومريين إلى قبضة السمويين. وكان أكثر زعماء هذه القبيلة ينعمون بنعمة الإسلام، كما كانوا يدينون بالولاء، غالبًا، لملوك دهلي، وظلوا يدفعون لهم الخراج.

(١) البيت - جج نامه - ص ١٩١.

(٢) البيت - تاريخ طاهري - ص ٢٦٨.

(٣) البلاذري - ص ٤٣١ - ٤٣٢.

كما كانوا يتمردون عليهم أحياناً. وأول ملوكهم في العهد الإسلامي هو جام انر (انار أو ونار)^(١). وكان يمتاز بحكمته البالغة، وامتدت فترة حكمه ثلاث سنوات ونصف. ومن بعده، تولى الحكم أخوه (جام جونا)، الذي اتسم بالعدل الشديد. ثم جاء من بعده ابنه (جام مانى)، الذى ناهض سلطان دهلي، فهاجمه السلطان فيروز شاه فى السند، عام ٧٦٢هـ، ففشل فى بادئ الأمر، ولكن ما فتئ أن عاد من الكجرات، وانقض عليه، وانتهى الأمر بأن أبرم (جام مانى) معه الصلح^(٢).

لقد ذكر سراج عفيف، المؤرخ والشاهد على عصر فيروز شاه، كل التفاصيل المتعلقة بهذه المعركة، وهذا الصلح. بيد أنه أورد اسم ملك تلك الفترة على أنه (اونر)، ويشاركه فى الحكم ابن أخيه (نانهينه). ويمكننا أن نقدر مدى قوة (السوميين)، إذا علمنا أن الملك (جام) حين واجه فيروز شاه، سلطان دهلي، بجيش قوامه أربعين ألفاً من المشاة، وعشرين ألف فارس، لم يكتب للسلطان الغلب أولاً بسبب قلة المؤونة والعلف؛ فترك السند، وذهب إلى الكجرات، ثم عاد إليه فى العام التالي، وشن عليه هجوماً مرة أخرى؛ فاضطر (جام) إلى عقد الصلح معه، وكان ذلك عام ٧٦٢هـ/١٣٦١م.

كيف تم الصلح؟

كان الشيخ سيد جلال الدين البخارى من أشهر العارفين بالله، فى هذا العهد، والذى سبق الإشارة إليه، فى الجزء الخاص بعقيدة السومريين، وكان يقيم فى مدينة (اوج)؛ فأرسل إليه (جام) رسولاً، يرجو منه الحضور؛ لكى يلتبس العفو عند السلطان؛ وبالفعل، حضر السيد جلال الدين البخاري، فأكرم الملك وفادته، فطمأنهم

(١) ورد اسم "جام" هذا فى نسخة فرشته، المطبوعة بنولكشور، باسم "افزا"، لكن يبدو أن هذا خطأ الكاتب أو المطبعة، فاللفظ الأصلى "اناي" أو "ونار" أو "اونر"، مثلما ورد فى ابن بطوطة، وسراج عفيف.

(٢) تاريخ فرشته - الجزء الثانى - ص ٣١٧ - نولكشور.

السيد، رحمة الله عليه، وهذا من روعهم، وأخذ كلاً من (جام) وشريكه في الحكم، (بانهينه)، وذهب بهما إلى السلطان فيروز شاه، حيث أبرمت شروط الصلح^(١).

أسماء ملوك سمة

ذكر مير معصوم، وفرشته، أسماء ملوك سمة، وفترات حكمهم، غير أنهما اختلفا حول بعض أسماء الملوك الأوائل، فلم يرد، مثلاً، اسم (خير الدين) عند فرشته، بل ذكر مكانه (جام مانى)، وقد يكون (جام مانى)، و(خير الدين) اسمان لشخص واحد. وثم خالف في أسماء الملوك الأواخر أيضاً.

مسلسل	اسم الملك	مدة حكمه
١	جام اونار أو ونار أو اونر	٣ أعوام و ٦ شهور
٢	جام جونا أخو جام اونار بن بانهينه	١٤ عامًا، وكان معاصراً لعلاء الدين الخلجي
٣	جام تماجي	١٥ عامًا
٤	جام خير الدين	١٦ عامًا
٥	جام بانهينه	١٦ عامًا
٦	جام تماجي	١٦ عامًا
٧	جام صلاح الدين	١١ عامًا
٨	جام نظام الدين بن صلاح الدين	عامين وعدة أشهر
٩	جام على شير بن نظام الدين	٦ أعوام وعدة أشهر
١٠	جام كرن بن جام تماجي	عام ونصف العام
وبعد أن سقطت أسرة (جام اونر)، استتلت العرش أسرة أخرى، من		

(١) لمزيد من التفصيل، انظر: فيروز: شاهي. شمس سراج عفيف - ص ٢٤٠ - ٢٤١.

قبيلة (سمه) نفسها؛ وكان أول ملوكها (فتح خان):		
١١	فتح خان بن سكندر	١٥ عامًا
١٢	جام تغلق بن سكندر، أخو فتح خان	٢٨ عامًا
١٣	جام مبارك (أحد أقرباء جام تغلق المقربين)	٣ أعوام
١٤	جام سكندر بن جام فتح خان بن جام سكندر	عام وستة أشهر
١٥	جام ورن رائ (كان مسلمًا)	قدم من (كجه)، عام ٨٥٨هـ
١٦	جام سنجر (أحد زعماء قبيلة سمه)	٨ أعوام وعدة أشهر
١٧	جام ننذا نظام الدين	٦٢ عامًا
١٨	جام فيروز بن جام ننذا	آخر الملوك

وفي عام ٨٩٠هـ، إبان عهد (جام ننذا)، زحف شاه بيك ارغون من قندهار، وهاجم السند؛ إلا أن محاولته باءت بالفشل، ومن بعد (جام ننذا)، نشب الصراع على العرش بين ابنه جام فيروز، ومدعى الصلة بنسبهم، اسمه صلاح الدين.

وكان هذا ابن عم زوجة مظفر، سلطان الكجرات، فنهض هذا السلطان لمساندته. فطلب فيروز مساعدة بيك ارغون، القندهاري، وعونه، الذي ما فتئ أن انتهب الفرصة، واستولى على السند، عام ٩٢٧هـ؛ وبذا سقطت دولة السمويين^(١).

إن مدة حكم الملوك، المذكورة أعلاه، هي ١٩٢ عامًا؛ بيد أن مجموع السنوات، منذ عام ٧٥٢هـ وحتى عام ٩٢٧هـ، لا يربو على مائة وخمسة

(١) فرشته - الجزء الثاني - ص ٢٢٠ - نولكشور.

وسبعين عامًا. والغالب أن فترة حكم (جام نندا) كانت أكثر مما هو مذكور. ويتضح من كثرة الأسماء، أنه كان اثنان من الأسرة يتوليان الحكم في آن واحد، مثلما ورد في كتاب (سراج عفيف)^(١).

عقيدة أهل سمه

كان أهل (سمه) من المسلمين، ولكن متى شرفوا باعتناق الإسلام، وإلى أي فرقة من المسلمين ينتمون؟ مازال كل هذا سرًا من أسرار التاريخ، لم يكشف عنه النقاب بعد. ولقد عرف المؤرخون تاريخ تحولهم الديني، عن طريق أسمائهم، التي هي مزيج من العربية والهندية؛ فمثلًا، نجد فرشته قد صنف الملوك الأربعة الأوائل، وهم على الترتيب: (جام اونر)، و(جام جونا)، و(جام ماني)، و(جام تماجي) باعتبارهم هنادكة؛ أما سلسلة الملوك المسلمين، فتبدأ بالملك الخامس (جام صلاح الدين)، حيث يقول: "وكما يظهر من الأسماء المذكورة، وخاصة اسم (تماجي)، أنهم ما كانوا مسلمين" (المجلد الثاني - ص ٣١٨ - نولكشور). والحقيقة، إنه لا ينبغي أن نخدع بأسماء هؤلاء الناس؛ فإن الاسم الأول (جام اونر)، والذي ذكره ابن بطوطة على أنه (اونار) (اونر)، واسم (السامري)، الذي كان في عهده (أي في عهد ابن بطوطة)، لم يكن هندوكيًا، وكان يعتبر نفسه مسلمًا، ولم يكن يقبل أن يكون خاضعًا لهندوكي؛ لدرجة أنه ثار على سلطان دهلي، واتخذ (ملك فيروز) لقبًا ملكيًا له.

وقد أشاد صاحب (تاريخ طاهري) في كتابه، بانتشار الإسلام في عصره، وذكر أن اسمه (جام نندا)، واسم والده (بانهينه)^(٢). (وجام رائ ورن) اسمًا

(١) فيروز شاهي - ص ١٩٩ - ٢٤٧ - كلكتا.

(٢) اليت - تاريخ طاهري - ص ٢٧٣.

هندوكيّا، ولكن عندما قدم من (كجهـ)، واستولى على (تهتهـ)، أعلن قائلاً: "إنما جئت إلى هنا؛ لأحافظ على بلد المسلمين"^(١).

ويبدو أنهم كانوا يحتفظون بأسمائهم الأصلية، في بداية أمرهم؛ ثم أخذوا يقلدون سلاطين دهلي، ويسيروا على نهجهم؛ فشرعوا يتخذون أسماء عربية، كصلاح الدين، وغيره. وهكذا فإن الملك (جام)، الذي اتخذ لقب خير الدين، كان قد قضى فترات من طفولته مع والده، في بلاط دهلي^(٢).

وإذا تأملنا اسم الملك الأخير (جام ننذا نظام الدين)، لوجدناه من جزأين، أحدهما هندي، والآخر عربي. وبنفس الطريقة، كتب شمس سراج اسم الملك (جام)، الذي حارب السلطان فيروز شاه، كتب اسمه (رائـ اونر)^(٣)، وكل القرائن تدل على أنه كان مسلماً، وليس هندوكيّا؛ وإن صدق القول أنهم عرب، فهم مسلمون منذ نشأتهم؛ وإن كانوا هنادكة، فأعتقد أنهم اعتنقوا الإسلام قبل توليهم الحكم، وكانوا من أهل السنة.

وقبل أن نقدم أدلتنا، نود أن نتحدث، أولاً، عن ساهمت جهوده في اعتناق هؤلاء الإسلام، وعن نسبه أيضاً. فقد كتب السيد (أرنلد) - اعتماداً على القياس فقط - أن هؤلاء الناس قد اعتنقوا الإسلام، عن طريق التجار العرب^(٤)، ولكنى أعتقد أن المتصوفة هم أصحاب الفضل في هذا، وليس التجار العرب.

شيخ الإسلام بهاء الدين زكريا والسيد جلال الدين البخاري

سبقت الإشارة إلى أن بعض أهالي أسرة الهباري، التي كانت تحكم السند، قد ذهب إلى الملتان، بعد زوال ملكهم، وكان من بين هؤلاء شخصية خالدة الذكر؛

(١) الليت - تاريخ معصومي - ص ٢٣١.

(٢) تاريخ معصومي - ص ٢٢٥.

(٣) تاريخ فيروز شاهي - شمس سراج عفيف - ص ١٩٩ - كلكتا.

(٤) الدعوة في الإسلام - الترجمة الأربية - ص ٢٩٢ - عام ١٩٠٧ م.

اشتهرت بشيخ الإسلام، بهاء الدين زكريا الملتاني، الذي عاش في الفترة من عام ٥٧٨هـ إلى ٦٦٦هـ، وقد جاب مولانا كل البلاد الإسلامية الكبيرة، وأصبحت الملتان بسببه مركزاً للعلم والتصوف.

وقد قدم السيد جلال البخاري - أحد أئمة التصوف المعروفين - من بخارى إلى الملتان، وأخذ البيعة من الشيخ بهاء الدين. وحفيد السيد جلال البخاري هذا، كان السيد جلال الدين حسين البخاري، سيد الكونين، والذي سبق ذكره مرتين (ولد عام ٧٠٧هـ، وتوفي عام ٨٠٠هـ)، وقد كان العرف السائد لدى كبار المتصوفة آنئذ، أن يعدوا المريدين الأكفاء إعداداً جيداً، ويرسلوهم إلى المناطق البعيدة، للخدمة والتبليغ.

وبهذه الطريقة، كان قد أرسل شيخ الإسلام، زكريا الملتاني، السيد جلال البخاري الأول لهداية الناس في (اوج)، بمدينة السند، وكان هذا أواخر عصر حكومة (السومره) في السند، وقد ذكرنا، كيف التف (السومريون) في (اوج) حول السيد جلال البخاري، وصاروا من أتباعه ومريديه.

مما ورد في (تاريخ طاهري)، يتضح أن شيخ الإسلام، زكريا الملتاني، لم تكن له علاقات بالسند وحدها؛ بل كانت علاقته بأهل (سمه) علاقة وطيدة. (كتب الطاهري "سومره"، بدلاً من "سمه"، ولكن ما يناسب الفترة التي ذكرها، أهل "سمه" بدلاً من "سومره"). وكانت هذه العلاقة وراء تعيينه أكبر مريديه في هذه المنطقة بالذات. وإليك ملخص عبارة (تاريخ طاهري): " ظلت إحدى القبائل الهندوكية، والتي تدعى (سومره) (سمه)، تحكم السند، منذ عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وحتى عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م؛ أي ما يقرب من مائة وثلاثة وأربعين عاماً، وكانت عاصمتها (محمد تور). وما كنت الوحيد الذي شاهد أطلالها في منطقة (ويرك)، بل رآها الكثير من الناس. وبعد خرابها، استوطن أهلها منطقة سكورا (سكهر)، وقد جاءوا في عصر ملوك (جام السمويين)، وهم الذين عمروا إحدى القرى هنا، وسموها أيضاً (محمد تور). ومن هذه القرية، كان أتباع شيخ الشيوخ، بهاء الدين زكريا،

والملا خليفة السندهي، ومريدوهما، أكبر متصوفة الهند، كما كان المريدون من كبار الإقطاعيين، والأعيان^(١).

وقد مر بنا، ذكر الواقعة الثانية، ألا وهي: أن أحد مريدي الشيخ بهاء الدين، وهو سيد جلال بخاري، قد فتح ولاية السند. كما أن أهل (السومره) في (اوج)، قد أخذوا حفيده، سيد جلال الدين حسين بخاري، وكان يقيم في (اوج) بالسند، في الفترة من عام ٧٠٧هـ، وحتى عام ٨٠٠هـ. وعلى حد قول فرشته: "ذهبوا إلى المسجد، وقبلوا أقدام السيد، وطلبوا العفو من الدراويش، وصاروا من المريدين"^(٢).

"وكان السيد البخاري يمارس الوعظ والإرشاد في (اوج)، فكان الناس ينصتون إليه، ويتأثرون بقوله"^(٣). ويتضح من حياة السيد - رحمة الله عليه - أن (السامره) قد صارت من مريديه، حوالي عام ٧٥٠هـ. وبعدها بعدة سنوات تقريبًا، تولى (السمويون) حكم الدولة، بدلاً من (السامره)؛ ولهذا فمن المنطق أن يكون الحكام من أسرة (سمه)، التي تولت الحكم بعد ذلك، وأن يكونوا أيضًا من أتباع هذا الشيخ، ومريديه.

حين قام محمد شاه تغلق بأول هجوم على (تهته)، عاصمة السمويين، عام ٧٥٢هـ، وافته المنية هناك بصورة مفاجئة. وعندما شن فيروز شاه أول هجوم له، عام ٧٦٢هـ؛ باء بالفشل، ورحل إلى الكجرات؛ فاعتبر الناس أن هذا ليس إلا كرامة من كرامات الشيخ، وجرت على أسنتهم هذه الفقرة، باللغة السندية، والتي فحواها: "إن بركة الشيخ جعلت أحدهما يموت، والآخر يفر هاربًا"^(٤). وما المقصود

(١) البيت - تاريخ طاهري - ص ٢٥٧.

(٢) فرشته - الجزء الثاني - ص ٤١٦ - نولكشور.

(٣) فرشته - الجزء الثاني - ص ٤١٦ - نولكشور.

(٤) شمس سراج عفيف - فيروز شاهي - ص ٢٣١ - كلكتا.

بالشيخ، فى هذه الفقرة، إلا الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني، أو الشيخ سيد جلال بخاري.

وعندما عاد فيروز شاه من الكجرات، فى العام التالي، وشن هجومًا على (تهتهـ)، لم يكن أمام (جام اونر) و (بانهينه)، آئذ، إلا أن يبعثا رسولهما إلى السيد جلال الدين حسين بخاري، فى (اوج)؛ كي يتوسط لهما عند السلطان. وبالفعل، أرسل فى طلبهم، وعقد الصلح بينهما وبينه، على شروط مناسبة للطرفين. وقال للسلطان إن فى (عاصمة السوميين)، (تهتهـ)، امرأة من أولياء الله، وكان لا يمكن فتح هذه المدينة؛ ببركة دعائها، غير أنها قد توفيت، أمس الأول^(١).

كل هذه الأحداث تشير إلى أى مدى كان ملوك (سمه)، وخاصة (الجاميين)، يعظمون الشيخ جلال الدين زكريا، والسيد جلال الدين حسين بخاري، كما تؤكد أنهم لم يكونوا مسلمين فقط، بل من أهل السنة أيضًا، وتبين أن السلسلة السهروردية الملتانية هى السبب فى هدايتهم.

لم تكن هذه الأحداث فى أواخر عهد (السوميين)؛ بل إنها كانت فى بداية عهدهم. ومن ثم، تصدق دعواى بأن (السوميين) لم يعتنقوا الإسلام بعد توليهم الحكم، وإنما كانوا مسلمين منذ البداية، خاصة، إذا ما ربطنا بين هذه الحقيقة وبين تلك الواقعة، ورأينا أن المسلمين كانت لهم اليد العليا فى حصول السمويين على الحكم.

ويقول فرشته: "فى أواخر عهد شاه محمد تغلق، انتقلت السلطة من أيدى السومريين إلى السمويين، بفضل مساعدة المسلمين. وإن أكثر حكامها كانوا مسلمين"^(٢).

(١) شمس سراج عفيف - فيروز شاهى - ص ٢٤١.

(٢) فرشته - الجزء الثانى - ص ٣١٧ - نولكشور.

الحقيقة أنه لو لم يكن أولئك السمويون مسلمين منذ البداية، أكان من الممكن أن يتعاطف المسلمون معهم؟

المدن الأخرى للسند وتخومها

بالإضافة إلى المنصورة والملتان، كان في السند، وتخومها دويلات، وإمارات عربية صغيرة، والتي نجد آثارها أواخر القرن الرابع الهجري، وقبل محمود الغزنوي؛ فقد فتح والده، سبكتكين، بعضها، ثم فتح السلطان أغلبها، وضمه إلى دولته.

ومن بين هذه المدن، الأماكن التالية. نعرف بها، مع ذكر ما يميزها؛ طبقاً لمعلومات الرحالة العرب، في القرن الرابع الهجري.

ديبل أو تهتهـ

ميناء مشهور، وكما ذكرنا سابقاً، فقد أطلق عليه العرب اسم (ديبل)، بينما سماها الفرس (تهتهـ)^(١)، وكانت عاصمة لدولة (السمويين)، وهي التي هاجمها فيروز شاه، سلطان دهلي، ولم يكن النصر حليفه، وانتهى الأمر بالصلح، الذي توسط فيه الشيخ جلال الدين، أحد مریدی شیخ الإسلام، زکریا الملتانی^(٢).

وقد أنجبت هذه المدينة العديد من العلماء، وأهل الحديث العظام، وقد ذكرهم العلامة السمعاني، المتوفى عام ٥٦٢هـ، في كتابه (الأنساب)^(٣). وحيث إنها كانت ميناء، فقد كانت قبلة التجار العرب، ويمكن تقدير عدد سكانها مما حدث في عصر

(١) أنین اکبری (سندھ).

(٢) سمش سراج عقیف - تاریخ فیروز شاہی - ص ٢٤١ - کلکتا.

(٣) کتاب " الأنساب "، صورة فوتوغرافية، مطبوعة " ديپلي ".

ال خليفة العباسي، المعتمد، عام ٢٨٠هـ؛ إذ وقع فيها زلزال، أسفر عن سقوط مبان كثيرة، ويقدر عدد من كان تحت الانقاض بمائة وخمسين ألف شخص^(١).

وكتب البشاري، عام ٣٧٥هـ: " وديبل بحرية، قد أحاط بها نحو مائة قرية، أكثرهم كفار، والبحر يسطح حدارات المدينة، كلهم تجار، كلامهم سندی وعربی... كثيرة الدخل".

عسيفان

ذكر البلاذري أنها تقع بين كشمير والملتان، ويبدو أن هذا ليس صحيحًا تمامًا، لاسيما إن كان في السند أسماء أخرى تشبه هذا الاسم. ولم يتمكن الدكتور ارنولد^(٢) من معرفة موقعها، إبان تحريره لكتابه (الدعوة في الإسلام)^(٣)، وقد تم البحث في هذا، من خلال مولانا شبلي النعماني - رحمة الله عليه^(٤). ولكني أعتقد أن اسمها الأصلي (اسيوان)، والذي يمكن أن ننطقه (سيوان). وتقع مدينة بنفس هذا الاسم (سيوان) بين دهلي والسند، وقد ورد هذا الاسم في كتب التاريخ الفارسية^(٥). وقد ذكرها ابن بطوطة باسم (سيهوان)، وهي تقع الآن في مدينة كراتشي، بباكستان.

(١) العيوطي - تاريخ الخلفاء - مطبوعة كالكتا، ص ٣٨٠، ص ٣١٢، ط ٣، دراسة وتحقيق: عبد القادر عطا - بيروت. وهذا هو نص عبارة السيوطي: "وفي أيامه، دخل الزنج البصرة وأعمالها وأخربوها... ثم أعقبه هزات وزلازل، فمات تحت الردم آلاف من الناس، واستمر إلى سنة... وذكر الصولي أنه قتل من المسلمين ألف وخمسمائة ألف آدمي.

(٢) ارنولد: هو توماس ارنولد، أستاذ الفلسفة في كلية علي جره، انتقل إلى الكلية الحكومية بلامهور، وعاد إلى بلاده، عام ١٩٠٤م، وتوفي عام ١٩٣٠م، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "تاريخ الإسلام".

(٣) الدعوة في الإسلام - ص ٢٩١.

(٤) مكاتيب شبلي - الجزء الثاني - ص ١٧.

(٥) أمير خسرو - خزائن الفتوح .

وقد أقر البعض بأن (سيوان) و(سيوستان) مدينة واحدة. على أية حال، فقد كان يسكنها التجار المسلمون، في بداية القرن الثالث الهجري، أى فى عهد المعتصم بالله، المتوفى عام ٢٢٧هـ^(١).

تنبلى

وتنبلى عليها حصن بحرية أيضاً، قليلة المسلمين والتجار^(٢)، وهى من بقاع السند.

بوقان

ذكر البلاذرى منطقة فى السند، يطلق عليها بوقان، أو (بوكن)، وقال: "إن جميع سكانها، فى عصرنا، من المسلمين"^(٣). وكان عصره أواخر القرن الثالث الهجري.

قصدار

عرفها البعض باسم (قندار)، وكان اسمها الملتان، فى عهد سبكتكين الغزنوي^(٤)، وتقع قرب الحدود الأفغانية الهندية، وكانت دويلة للخوارج من المسلمين. ويبدو أنه حين وافاها أبو الحسن على بن لطيف - أحد المعتزلة المتكلمين والمناظرين - وجدها مأهولة بالخوارج؛ وقد ذكر أنها تتمتع بالأمن والأمان، فلا أثر للسرقة، بل يترك أهلها ديارهم مفتوحة، لا يغلونها، كما يترك

(١) البلاذرى - ص٤٣٣.

(٢) البشارى - ص٤٧٩.

(٣) البلاذرى - ص٣٤٥.

(٤) طبقات ناصرى - ص٧ - كلكتا.

المسافرون متاعهم في المسجد، دون أن يمسه أحد، ولم يقابل إلا خياطًا مسلمًا (يقصد سنياً)، وكان بها مسجد^(١).

وحدد البشاري موقعها، فقال: "قتأخذ من (التينر) (ببلوجستان) إلى قصدار، على الساحل في طول مكران، ١٢ مرحلة (اثنتى عشرة مرحلة)"^(٢)، ويقول أحد الجغرافيين العرب: "إنها تبعد عن الملتان بعشرين مرحلة تقريباً"^(٣).

ويقول ابن حوقل (٣٦٧هـ): ومدينة (قزدار) مدينة لها رستاق ومدن، والغالب عليها رجل يعرف بمعتز بن أحمد، يخطب لبنى العباس، ومقامه بمدينة (كيزكانان).

ثم يقول البشاري المقدسي، الذي زارها عام ٣٧٥هـ، ما يلي:

"قزدار قصبة طوران، في صحراء ذات جانبين، بينهما واد يابس، بلا جسر، في إحداهما دار السلطان فيه قلعة، والجانب الآخر بودين، وفيه دور التجار، والمطارح أفسح وأنزه، والقصبة على صغرها مفيدة، وإليها يقصد نفر من خراسان، وفارس، وكرمان، ومن بلدان الهند، إلا أن ماءها رديء، ومشاربهم من قنى"^(٤).

وصفوة القول، إنها كانت دويلة إسلامية صغيرة، وكان الأمير سبكتكين، والد السلطان محمود، يعتقد أن زوال الدويلات الحدودية، قبل الهند، أمرٌ مهم؛ فاستولى عليها، فيما بين عامي ٣٧٥هـ و٣٨٧هـ (والذي هو تاريخ وفاة سبكتكين)، وعهد إلى حاكمها تحصيل الخراج من المسلمين هناك^(٥).

(١) ياقوت - معجم البلدان - الجزء ٧ - ص ٧٨ - مصر.

(٢) البشاري - أحسن التقاسيم - ص ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٣) أبو الفدا - تقويم البلدان - ص ٣٤٩.

(٤) البشاري - أحسن التقاسيم - ص ٤٧٨ - ليدن المحروسة - ١٩٠٦م.

(٥) تاريخ فرشته - الجزء الأول - ص ١٩ - نولكشور.

طوران

كانت دولة مستقلة في عصر ابن حوقل (٤٦٣هـ)، فيقول: " ولطوران واد، وقصبتها تدعى طوران، وهو حصن في وسط الوادي، وكان يلي عمله رجل من إخواننا، يعرف بأبي القاسم البصري؛ قضاء وإمارة وبندرة، وكان لا يعرف ثلاثة في عشرة، بل كان رجلاً من أهل القرآن "ص ٣٢٤.

ويهند

من أشهر مدن الهند القديمة، ويرد اسمها في قائمة الفتوحات الغزنوية؛ إذ استولى عليها محمود، بعد بيشاور مباشرة، عام ٣٩٣هـ^(١). وكان يقطنها المسلمون قبل محمود. وكتب البيروني عنها، في قانون المسعودي، يقول: "واسم مدينة قسبة القندهار "ويهند"، وهي على وادي السند"^(٢).

ويذكر السيد (ونسنت - اسمته-)، في تاريخ الهند القديم، أن العاصمة (اوهند) تقع على نهر السند؛ ويقول: إنه بعد فتح المسلمين كابل، عام ٢٥٦هـ، انتقلت العاصمة إلى (اوهند)، التي كانت تقع على نهر السند، فأصبحت مقرًا لإحدى الأسر الهندوكية الحاكمة.

وفي أواخر القرن الرابع الهجري (٣٧٥هـ، أي قبل هجوم محمود بخمس أو ست عشرة سنة)، يقول البشاري المقدسي: "سألت فقيهاً، من أصحاب أبي الهيثم النيسابوري، ورجلاً من أهل العلم والحكمة..... قد وطئ تلك النواحي، وعرف أسبابها، فصح عندي من قولهما، أن (ويهند) هي القصبة، وأن من مدنها: (وذهان) و(بيتر) و(نوج) و(لوار) و(سمان) و(قوج)"^(٣).

(١) الكريزي - زين الأخبار - ص ٦٦ - طبعة برلين.

(٢) نقلاً عن تقويم البلدان - أبو الفدا - ص ٣٥٧ - باريس - ١٨٤٠م.

(٣) أحسن التقاسيم - ص ٤٧٧.

وكان عدد السكان المسلمين في منطقة (ويهند)، لا بأس به، حتى قامت دولتهم، وحين كانت الغلبة (بويهند) للكفار، كان للمسلمين سلطان على حده^(١).

قنوج

غير منطقة (قنوج) المشهورة بالهند، كان ثمة منطقة عامرة، بالقرب من حدود السند والبنجاب، وقد ذكرها الرحالة العرب كثيرًا، وكان فيها مسلمون، وقد خضعت هذه المدينة لحكم المسلمين، بعد عام ٣٠٠هـ. وعندما زارها المسعودي، عام ٣٠٣هـ كانت "من أعمال الملتان" (ج ١ - ص ١٦٥)، وتحت راية الدولة الإسلامية^(٢).

ثم جاء البشاري، بعده بنحو سبعين أو خمسة وسبعين عامًا؛ فكانت آنذاك إمارة مستقلة، فكتب يقول:

"قنوج قصبة كبيرة، لها ريش ومدينة، وبها لحوم كثيرة، ومياه غزيرة، وبساتين، ووجوه حسان، وماء صحيح، ومتجر ربيع، والجامع في الریش، وأكثر طعام المسلمين الحنطة، وبها علم وأجله"^(٣)، ثم يمضي في وصفه، ويذكر في موطن آخر: (والغلبة بقنوج للكفار، وللمسلمين سلطان على حده)^(٤).

وكان الرحالة والجغرافيون العرب أيضًا، يعرفون (قنوج)، التابعة لمنطقة (اوده-؛ ففي عام ٣٨٦هـ تقريبًا)، يذكر المهلبی، وزير مصر، في كتابه الجغرافي، ما يلي: "قنوج من أقاصی مدن الهند، شرق الملتان، وبين الملتان، وقنوج نحو مائتين واثنين وثمانين فرسخًا، وهی عاصمة الهند، وأكبر مدنها، ولقد

(١) أحسن التقاسيم - ص ٤٨٥.

(٢) المسعودی - الجزء الأول - ص ٣٧ - باريس.

(٣) أحسن التقاسيم - ص ٤٨٠.

(٤) أحسن التقاسيم - ص ٤٨٥.

بالغ الناس في وصفها، فيقولون: إن بها ثلاثمائة سوق لتجار المجوهرات فقط، ولدى ملكها ألفان وخمسمائة فيل، كما تتوافر بها مناجم الذهب".

ويقول الإدريسي، الذي كتب كتابه الجغرافى فى صقلية (إيطاليا)، عام ٥٤٨هـ: "قنوج بين زراعين من نهر الكنك، وقال المهلبى، فى العزيزي: قنوج مدينة فى أقاصى الهند، وهى فى جهة الشرق من الملتان، وبينهما مائتان واثنان وثمانون فرسخاً، وقنوج مصر الهند، وأعظم المدن، وقد بالغ الناس فى تعظيمها، حتى قالوا: إن بها ثلاثمائة سوق للجوهر، وملكها مائة فيل، قال: وهى كثيرة معادن الذهب، وقال الإدريسي، فى نزهة المشتاق: وقنوج مدينة حسنة، كثيرة التجارات، وبها يسمى الملك بقنوج، وعدت من مدن القنوج قشмир الخارجة، وقشмир الداخلة، وغيرهما، ومن قشмир الداخلة إلى قنوج، سبع مراحل^(١).

نيرون

كانت نيرون من بين مدن السند الساحلية، وقرأها البعض خطأ (بيرون)، وقالوا إنها المدينة التى ينسب إليها أبو الريحان البيروني^(٢)، وقد كانت بين (ديبل) و(المنصورة)، وتبعد عن الأخيرة بخمسة عشر فرسخاً، ويقول المهلبى، وزير مصر فى القرن الرابع: "إن أهلها من المسلمين". وذكر الفستن، فى مؤلفه (تاريخ الهند)، أن الاسم القديم لمدينة (حيدر آباد) بالسند الحالية، هو (نيرون).

مكران

تقع على حدود السند، وكان يحكمها عربي، يدعى عيسى بن معدان، فى عهد ابن حوقل. وكانت عاصمتها (كنير)، ومساحتها نصف مساحة الملتان.

(١) أبو الفدا - تقويم البلدان - ص ٣٦٠ - باريس.

(٢) أبو الفدا - تقويم البلدان - ص ٣٤٩، نقلاً عن ابن سعيد المغربي، وتاريخ الأطباء، لابن أبى أصيبعة - الجزء الثانى - ص ٢٠ - مصر.

مشكى

كان بالقرب من (مكران) إمارة عربية أخرى، اسمها (مشكى)، وكان يحكمها، فى عصر ابن حوقل، مظاهر بن رجاء، وكانت كبيرة، تستغرق مسافة ثلاثة أيام لطيها، ويخطبون فيها لخليفة بغداد.

لقد أرهقنا، أنا وأنتم، السير فى صحارى السند، فدعونا نستريح من وعناء السفر فى رياض جنة الله على الأرض؛ حتى نروح أذهاننا.

كشمير

إنها البلدة التى يصح القول فيها: إنها لم تفتح بخطط ملوك المسلمين الحربية وسيوفهم، بل بتأثير علماء المسلمين ومتصوفيهم. وقد وصل الجغرافيون والرحالة العرب إليها، دون أن يدخلوها؛ لوعورة طرقها.

وقد كان اسم السند يطلق على المنطقة الممتدة من البحر إلى سلسلة جبال كشمير، وقد اصطدم السلطان محمود بصخورها، بعد العرب، ولم يحالفه النجاح فى اجتيازها؛ ومع ذلك، كان التجار المسلمون يترددون عليها، فى تلك الفترة. وبعد وفاة السلطان محمود بثلاث سنوات، أى فى عام ٤٢٤هـ، هاجمها السلطان مسعود الغزنوي، فحاصرها، وأغلق القلعة على أهلها، فحبس التجار الذين كانوا بها آنذاك فى القلعة أيضاً^(١).

بعد هذه العجالة، والجولة الخيالية المقتضبة فى تاريخ الهند، نستأذن السادة القراء بالانصراف.

(١) فرشته - الجزء الأول - ص ٤١ - نولكشور.

الخاتمة

حاولنا فى الصفحات السابقة، أن نعرض على رفقاء رحلتنا صوراً من علاقات العرب بالهنود، والإسلام بالهند، وقد تجلت تلك العلاقات قبل قدوم الفاتحين من بلاد خير، وذلك لمعرفة مقام المسلمين فى هذه البلاد قبل الفتوحات. كانت علاقة العرب بالهند علاقة عميقة ومستمرة، وكانت علاقة الإسلام بالهند متأصلة وضاربة فى جذور التاريخ، إلى أقصى مدى. وبعد ختام الكتاب، إليك بعض النقاط الأخرى المهمة، التى تجدر الإشارة إليها:

١- سوباره:

ذكر العرب أن (سوباره) كان اسماً لمدينة قديمة، ومشهورة بالكجرات، وقد ذكرها الإصطخرى (عام ٣٤٠هـ)، ضمن المدن الشهيرة فى الهند. ومن بعده، أورد الرحالة المقدسى (عام ٣٧٠هـ) اسمها، فى أواخر القرن الرابع الهجرى، وأواخر القرن العاشر الميلادى، وقال: إنها تقع بالقرب من (كهмбаيت)، حيث يفصل بينهما أربع محطات. ويقول: " وهى على فرسخ (ثمانية أميال) من البحر" (أحسن التقاسيم - ص ٤٧٧ - ٤٨٦).

وقد أشارت الأبحاث العلمية، التى أجريت فى الأعوام الماضية، حول الآثار القديمة فى الكجرات، إلى أن مدينة ما كانت تحمل اسم (سوباره)؛ مما يؤكد لنا أنها المدينة التى ذكرها الرحالة العرب.

٢ - صدر مقال عن الاكتشاف الأثرى حول (سوباره)، فى مجلة (سنداي كرانيكل) ببومباي، عدد فبراير، ١٩٣٠م، فى الصفحة ٣١، ٣٢، وخلاصته: "تشير الاكتشافات الأثرية إلى أن تاريخ هذه المدينة يعود إلى عصر الملك (مكده ديس) (بهار)، المشهور بأشوكا؛ حيث عثر منقبوا الآثار هناك على حجر تذكارى للملك أشوكا، عام ١٨٨١م".

وكانت هذه المنطقة إحدى المدن المزدهرة والمشهورة في الهند، عام ٣٥٠ قبل الميلاد؛ مما جعلها تحظى باختيار الملك أشوكا، دون بقية المدن الأخرى؛ ليضع فيها حجره التذكاري. وقد نقل هذا الحجر السوباري، ليوضع في متحف أمير ويلز (غرب الهند)، وبه عشرة أسطر، وقد انمحت سطوره الأربعة الأولى. وهو مكتوب بالخط الديوناجري، الذي اشتقت منه الحروف الهندية، وجعلته أصلاً لها.

ويرى الباحث الأوربي، بوشلز: أن هذا الحجر قد جاء من العراق إلى الهند، عن طريق الرحلات التجارية، قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - بسبعة قرون أو ثمانية (انظر الكتاب). ثم يقول الدكتور (بهندكر): إن سوباره كانت ميناءً مشهوراً، في إقليم (تهانه) ببومباي، وقد ورد ذكره في ملحمة المهابهارت^(١)، وذكره بطليموس، في كتابه الجغرافى، باسم (سوباره)، وقد كانت هذه المنطقة مقدسة، وعاصمة (ابارنتا).

وتقع سوباره الحالية في نفس موقع المدينة القديمة، التي تحمل اسمها، على الضفة اليسرى لأحد الخلجان، منعطفاً بين السكة الحديد لخليج (بسين)، ونهر (وتونا)، وما زالت إلى الآن مباني (سوباره) القديمة وبيوتها، كما يوجد بها (بئر رام)، مما يدل على أنها مدينة مقدسة.

وقد اكتشف حجر (سوباره) التذكاري، عام ١٨٨١م. وكان في هذه القرية ستمائة بيت، يسكنها نحو ألفي نسمة؛ بينهم براهمة، وهنود، ومسيحيون، ومسلمون. والمسلمون من العرب والإيرانيين، الذين نزحوا إليها، في ظل العلاقات التجارية قبل سبعة قرون.

(١) المهابهارت: الملحمة القومية للهانكة، ينيف عدد أشعارها على المئتي ألف. فيها وصف حروب الكورف والباندوف، ألفت في القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد.

من هذه الخلاصة، نستنتج أن المسلمين كانوا يسكنون أيضا هناك، مثل بقية المدن التجارية الساحلية في الكجرات. وإذا كنا قد تعرفنا على هذه البلدة، قبل المسيح بمائتين وخمسين عامًا؛ من خلال ما اكتشف من معلومات مكتوبة على حجر الملك آشوكا، وكتاب بطليموس، فقد تعرفنا عليها أيضًا بعد المسيح بألف عام، مما ذكره الرحالة العرب المسلمين.

٢ - الأطباء الجاتين العرب:

الحق أنه قد سبقت الإشارة أعلاه (ص ١١) إلى استيطان الجاتين للعراق، وبلاد العرب، في عهد الصحابة؛ أي في القرن الأول الهجري، والقرن السابع الميلادي، ولكن مع التركيز على مميزاتهم العسكرية فقط. بيد أننا قد اطلعنا على أحد أعمالهم المجيدة، في تلك الفترة، من خلال أحد المصادر المهمة، حيث كتب الإمام البخاري، المتوفى (٢٥٦هـ)، في كتابه (المفرد)، واقعة من وقائع عهد الصحابة، فيقول: "ذات مرة مرضت أم المؤمنين، السيدة عائشة، رضى الله عنها، فاستدعى أبناء أخيها طبيبًا جاتيًا؛ لعلاجها" (١).

نعال السند الملكية

تحدثنا، في الصفحة ٧٧ من الكتاب، عن نعال كهмбаيت، التي كانت تصدر من المنصورة (السند)، إلى عاصمة الخلافة العباسية، في العراق. وقد عثر حديثًا، في الجزائر (الجزيريا)، على مخطوطة تعود إلى سبعة قرون، لكتاب مختصر، اسمه كتاب (الورع)، للإمام أحمد بن حنبل (المتوفى عام ٢٤١هـ)، والذي طبع في السند، ومصر، عام ١٣٤٠هـ، ويؤكد هذا الكتاب كم كانت نعال السند لامعة وفاقعة، لدرجة أن أهل الوقار لا يستحبون انتعالها، ويعتبرونها لائقة بالأمراء فقط (٢).

(١) الإمام البخاري - الأدب المفرد - باب: بيع الخادم - ص ٣٥ - مصر.

(٢) ابن حنبل - كتاب الورع - باب: لبس النعال السندية - ص ١٠١ - مطبعة السادات - مصر.

المؤلف فى سطور:

سيد سليمان الندوى (١٨٨٤ - ١٩٥٣م)

هو أنيس الحسن، عُرف بسليمان الندوى، ويلحق نسبه بالإمام الحسين رضى الله عنه، ولد فى ٢٢ / ١١ / ١٨٨٤م، بإحدى قرى إقليم بهار بالهند. كان من أسرة دينية عريقة، عُرف عنها تورعها بالعلم والأدب، ومن هنا تلقى تعليمه الأولى على يد أسرته، التى كانت تحترف مهنة الطب.

أتقن الفارسية والعربية وهو فى سن صغير، وفى عام ١٩٠١م التحق بندوة العلماء، وأكمل تعليمه بعد خمس سنوات، تتلمذ فيها على يد كبار العلماء من أمثال مولانا شبلى نعمانى، وعندما أحس الأستاذ بذكاء تلميذه احتضنه، وأوجد فيه القدرة على الكتابة الأدبية.

ظهرت أولى مقالاته عن علم الحديث فى مجلة الندوة، ذكر فيه أسماء الكتب التى تأثر بها، وتربى على فكرها ومنهجها؛ كالموطأ للإمام مالك، وفتح البارى لابن حجر، والفهرست لابن النديم، والممل والنحل للشهرستانى، وحجة الله البالغة لشيخه ولى الله الدهلوى، وغيرها من الكتب التراثية العربية والفارسية.

ومن هنا بدأت مقالاته العربية تنشر فى المجلات الأدبية فى الهند وخارجها، فنشرت له مجلة " المنار " المصرية العديد من المقالات عام ١٩٠٦م، وهو العام الذى حصل فيه سيد سليمان الندوى على الشهادة العالية من الندوة.

ظلت خدماته العلمية تؤتى ثمارها حتى آخر لحظات حياته، فقد دافع مع المهاتما غاندى عن مفهوم اللغة القومية، وقال فى خطبته المشهورة عام ١٩٤٤م: إن صحة الألفاظ المستخدمة فى اللغة يجب أن تترك لمدى رواجها بين الناس لا

على أساس مصادرها، وساند اللجنة التي كانت تنادى بأن أى لغة تتخذها البلاد كلغة قومية يجب أن تكتب بالخطين العربى والديوناجرى.

كان سليمان الندوى يُبهر المعاصرين له بسعة علمه فى الميادين المختلفة، وكان إذا أمسك بالقلم تدفق نحوًا وصرفًا ولغةً وبيانًا وتاريخًا، كل ذلك فى نسق واحد، وكأما هو متخصص فى كل علم على حدة، ساعدته دراسته فى الحديث على تنمية موهبة التمحيص والتحقيق لديه، حتى إنه لم يعد يطمئن لما يكتب إلا إذا وثّقه بأسانيده وآمن بأمانة رجاله؛ لذا اكتسبت مؤلفاته سمعة عالية بين القراء فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى.

أهم مؤلفاته:

- ١ — اللغات الجديدة معجم ١٩١٠م.
- ٢ — أرض القرآن (مجلدين) ١٩١٧، ١٩١٨م.
- ٣ — سيرة النبى (ثلاث مجلدات) ١٩٢٤ — ١٩٣٩م.
- ٤ — سيرة عائشة ١٩٢٤م.
- ٥ — خطبات مدراس ١٩٢٥م.
- ٦ — العلاقات العربية الهندية ١٩٢٩م.
- ٧ — الملاحاة العربية ١٩٣١م.
- ٨ — الخيام ١٩٣٠م.
- ٩ — نقوش سليمانى ١٩٣٩م.
- ١٠ — رحمت عالم ١٩٤٠م.
- ١١ — حياة شبلى ١٩٤٣م.

المترجم فى سطور:

أحمد محمد عبد الرحمن، أستاذ فى قسم اللغة الأردنية - كلية اللغات
والترجمة - جامعة الأزهر - القاهرة.

المؤهلات العلمية:

- ليسانس اللغة الأردنية ١٩٨٤م - كلية اللغات والترجمة بتقدير عام جيد جدا.
- ماجستير فى الأدب الأردى ١٩٨٩م قسم اللغة الأردنية جامعة دهلى الهند.
- M. Phil (أدب مقارن) ١٩٩١م قسم اللغة الأردنية جامعة دهلى الهند.
- دكتوراه عن فن التراجم بين العربية والفارسية والأردية جامعة دهلى ١٩٩٤م.
- دبلومة عليا فى اللغة الهندية قسم اللغة الهندية جامعة دهلى ١٩٩٢م.
- درجة أستاذ مساعد بقسم اللغة الأردنية كلية اللغات والترجمة بتاريخ ٢٠٠١/٦/٦م.
- درجة الأستاذية بقسم اللغة الأردنية كلية اللغات والترجمة بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٦م.

تأليف الكتب العلمية:

- القواعد العملية لدراسة الأردنية (مشارك) ١٩٩٧م.
- الشعر الأردى فى القرن الثامن عشر الميلادى (مشارك) ٢٠٠٠م.
- محاضرات فى نشأة اللغة الأردنية وتطورها (مشارك) ٢٠٠٣م.
- الشعر الأردى الحديث والمعاصر (مشارك) ٢٠٠٤م.

• الشعر الأردى الكلاسيكى (مشارك) ٢٠٠٦م.

• كم علماء العربية فى شبه القارة الهندوباكستانية (مشارك) ٢٠٠٦م.

الترجمة:

• ترجمة كتاب التصوف المعروف بـ لطائف المعارف شاه محمد عبد

العليم الصديقى القادرى من الأردية إلى العربية (مشارك) ٢٠٠٤م.

• ترجمة سيرة النبى لشبلى النعمانى الجزء الثالث (مشارك) مطبوع
٢٠٠٥م.

• ترجمة سيرة النبى لشبلى النعمانى الجزء السادس (مشارك) مطبوع
٢٠٠٦م.

• ترجمة العلاقات العربية الهندية لسيد سليمان الندوى مطبوع ٢٠٠٧م.

• مراجعة ترجمات القرآن الكريم والكتب الدينية باللغة الأردية لمجمع
البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف الإسلامية منذ عام ٢٠٠٠ وحتى
الآن.

الأوراق البحثية:

• مصر فى أدب الفكاهة الأردى من خلال كتاب "بجنك آن" لمحمد خان
منشور فى الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩م.

• دراسة مقارنة لرواية صلاح الدين التاريخية فى العربية والأردية "منشور
الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٠م.

• أثر الحركة التقدمية فى الشعر الأردى الحديث الهيئة العامة للكتاب
٢٠٠٣م.

- المراثية في الشعر الأردى - تطبيقا على مراثى أنيس مجلة الدراسات الشرقية مرك الدراسات الشرقية جامعة القاهرة. العدد (٣٧) يوليو ٢٠٠٦م.

- الشخصيات الهندية غير المسلمة فى شعر إقبال مجلة كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر العدد (٤٠) لعام ٢٠٠٦م.

الجوائز:

- جائزة شبلى النعمانى للنهوض باللغة الأردية فى مصر من الهند عام ١٩٨٩م.

التصحيح اللغوى: على أبو زيد
الإشراف الفنى: حسن كامل

شبه القارة الهندية هي إحدى هذه الواجهات الرئيسية لشبه الجزيرة العربية. ومن هنا، تقف العلاقات العربية الهندية على أرضية صلبة، تستند إلى تاريخ طويل من الاحترام المتبادل، والمنفعة المشتركة، رغم أن طبيعة العلاقات قد تغيرت نسبياً، بعد انقسام شبه القارة عام 1947 م إلى دولتي: باكستان والهند، حيث دخلت هذه العلاقة مرحلة جديدة، وإن كانت لم تقطع جذورها بالماضي.

ومن هنا، جاءت أهمية ترجمة هذا الكتاب؛ لنرى كيف قدمت المصادر العربية وغير العربية قديماً، صورة واضحة للمبادئ والقيم المتميزة، التي طالما شكلت روافد أساسية للعلاقات العربية الهندية. والكتاب يضع أمامنا عدة تساؤلات، لعل أهمها: إلى أي مدى استطعنا أن نستثمر هذا الماضي المشرق في تحقيق تعاون بناء بيننا وبين الهند، في الوقت الحاضر؟ هل تعثرنا في معرفة قدراتنا الضخمة، في مواجهة تحديات اليوم؟ أم أن نظرتنا المقصورة تجاه الآخر حالت دون تحقيق كل هذا؟

